الباب الرابع

الطابع العالمي في علاج الإسلام للمشاكل الفردية والجماعية :

١ – الإسلام والفرد .
٢ – الإسلام والمجتمع .
٣ – الإسلام والعلم .
٤ – الإسلام والعلاقات الدولية .
٥ – الإسلام في مجال التطبيق .

(١) الإسلام والفرد

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾

[سورة مريم : ٩٣ - ٩٥]

الإسلام دين عالمي كل شيء فيه يقطع بهذه الحقيقة ويصدر عنها .

وإذا نحن تأملنا عناية الإسلام بالفرد وحقوق الفرد فيه ألفينا أنه دين المساواة العامة والحرية الصادقة .

وفي بحثنا عن الفرد في الإسلام نود أن نوجه الحديث في أمره إلى أمور ثلاثة :

١ - تربية الفرد وإعداده في ظل تعاليم الإسلام إعدادًا يؤهله للخلافة في الأرض وحمل الأمانة الغالية التي نيطت به .

٢ - الحقوق التي أقرها الإسلام للفرد تكريمًا لإنسانيته وصيانة لحريته ورعاية وتحقيقًا للتعارف والمودة بينه وبين الناس جميعًا .

٣ - الواجبات التي ارتبطت بوجوده فردًا فى كيانه الذاتي ، ولبنة في بناء المجتمع الإنساني ، وعبدًا لخالق يملك أمره وترتبط سعادته ونجاته بمعرفته .

أما الأمر الأول فلعل ما قدمنا في الباب الثاني عن « القرآن والإنسان » يلقي ضوءًا عامًا على عناية الإسلام بالفرد ورعايته له في جميع مراحله وشئونه كافة . وكذلك ما قدمناه في الباب الثالث من هدف العبادات وغايتها .

ونزيد الأمر هنا تحديدًا ووضوحًا فنقول : لاشك أن الإنسان روح وجسد .

وأن الجسد معلوم ، وحقيقته بينة ، وأن الروح من أمر ربي ، وهي التي تقوم في الإنسان سمعًا وبصرًا وإدراكًا ، وبها قوام الجسم وحركته وإنتاجه وعمله .

وتربية الفرد في الإسلام تعني بالأمرين معًا : أي الإنسان كله روحه وجسده وأية تربية تقصر عن القيام بالأمرين معًا إنما تقيم انفصالا في طبيعة الإنسان كما تؤدي إلى انحراف في سلوكه وعمله .

الإسلام ينظر إلى الفرد نظرة كاملة ، تتفق مع واقع الفطرة ، وحقيقة الخلق .

وواقع الفطرة روح وجسد .

وحقيقة الخلق الإنسان مخلوق والله خالق

فلابد من مراعاة الصلة في التربية بين الخالق والمخلوق .

وخير تربية وأكملها هي التي تتفق مع سماحة الفطرة وحقيقة الخلق .

وإذا كانت حقيقة الإنسان هكذا روح وجسد ، والفصل بينهما يذهب بهذه الحقيقة في واقع الحياة — فإن الفصل بينهما في التربية يقيم الاضطراب الذي يذهب باستقرار النفس ويأتي بانحراف السلوك .

والتربية الصادقة هي التي تعنى بالإنسان كله وتقيم العدل في داخله ، وتعطي في اعتدال كل جانب حقه

نعم في اعتدال ، لأن المبالغة أو الميل لأي جانب خسران للكل وتفويت لراحة الإنسان وسعادته .

هبك سمعت أن ملح الطعام مفيد ، فقمت إلى طعامك وأردفت كمًا مبالغا فيه طلبا للفائدة وطمعًا في المزيد منها ، فتحول الطعام إلى ملح أجاج .

هل يمكن أن يساغ الطعام أو تتأتى الفائدة ؟

نحن لا نقر الرهبنة بمعنى اعتزال الحياة لمصلحة الروح .

ولا نقر البهيمية المنطلقة لإشباع الغرائز ومتعة الجسد .

فكلاهما انحراف بالفطرة من جانب ، وتدمير للحياة من جانب آخر .

الإسلام شريعة سمحة ، حنيفية معتدلة .

وأنت تسمع من النبي الكريم صاحب الخُلُق العظيم هذا التحديد الفاصل الذي يحول دون الميل والانحراف في جانب الروح أو الجسد في أمر كاد بعض صحابته يفعله طلبًا لمثوبة الله وأجره .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها . فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ وقد غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا .

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا .

فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟

أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له . لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني »[1] .

أصوم وأفطر ، وأقوم وأرقد ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني : أرأيت إلى هذا التوازن في إقامة العدل والاعتدال في حياة الإنسان ؟

إن الإسلام لا يقبل أبدًا أن يقوم حق على حساب حق آخر ، ولو كانت النية فيه طلب المثوبة والأجر والاستزادة من عمل الخير .

إن الخير في متابعة الفطرة واعتدال النفس .

وهل يمكن للروح أن تنعم بفضائلها في جسد مضيع ممتهن ؟

وهل يمكن للجسد أن ينعم بالصحة والعافية مع روح حيل بالمعصية بينها وبين أسباب الرفعة والكمال ؟

---

(١) رواه البخاري .

هب إنسانا صام عن الطعام بصورة مضنية ثم قام ليصلي .

هل يقوى هذا على أداء صلاة يشعر معها باعتدال النفس وقوة الأداء والتحمل ؟

ثم ما مصيره إذا هو امتنع عن الطعام بصورة دائمة ، لابد من التوقف والهلاك .

فتنقطع فضائله التي يزعم القيام بها مع الجسد الذي جار عليه وقتله .

وهو لابد هالك ولن تغنيه لوعة سحر أو حرقة تعبد .

ثم هب إنسانًا آخر طوع نفسه لمطالب الجسد فغدا نهمًا يرضي غرائزه وشهواته دون ما حدود !

هل يمكن هذا الجسد أن تستقيم له صحته واعتداله ؟

فما تطلب تكريمه منفردًا في الحالين يودي بنفسه وبالآخر .

وتأبى طبيعة الفطرة إلا أن يستقيما معًا ، ويمتزجا في الخير معًا ، ويتوحدا في الطهر وهما يخضعان لله الواحد الأحد !

إن الاعتدال هو الذي يتيح للروح أن تظفر بفضائلها وللجسد أن ينعم بمطالبه : « لا رهبانية في الإسلام » .

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾

[سورة القصص : ٧٧] .

والتربية للفرد في الإسلام تقوم على هذا الأساس : أن لا تفرقة بين روح وجسد ، وبين دين ودنيا ، وبين العمل لكليهما .

فهي تعنى بالجسد لتجعل منه أداة قوية للعمل المنتج والسعي المثمر والجهاد البناء .

وتعد الإهمال في شأنه وما يتطلبه من مأكل ومشرب وملبس إهمالًا لدين الله وتضييعًا لشرائعه .

وتربية الجسد تأخذ صورًا متعددة تتفق مع ما يتطلبه أمره من نظافة وطهر ومناعة وقوة ، والتربية له تمتزج مع فضائل الروح امتزاج تفاعل فطري تنتج عنه الثمار الطيبة والأعمال الصالحة .

فرض الإسلام الصلاة رياضة للجسد وطهارة للروح ، فهي بأعمالها تفي للإنسان كله بالطهر في ظاهره وباطنه .

وضوء لطهارة الأعضاء يمتزج بذكر ودعاء .

ركوع وسجود يتناول الجسم بالحركة كما يتناول القلب بالخشية والذكر .

تفاعل فطري بين عمل الروح وعمل الجسد كتفاعل الماء والغذاء في طبيعة الشجرة الطيبة ، ترى أثره في الإنسان خيرًا وبرًا وعملًا زكيًا ، وتراه في طيب الشجرة أصلا ثابتًا وفرعًا ناميًا وثمرًا شهيًا .

سن الإسلام الغسل وفرضه طهارة للجسم وتنشيطًا له لتنشط الروح في جو مشبع بالطهر محفوف بالنظافة .

سنه لكل أمر يقع فيه اجتماع عام كيوم الجمعة وغيره ، ليزيد من أسباب المودة والحب ، ويقضي على أسباب النفور والبغض ، وفرضه في جنابة أو حيض ، وهكذا يبني الإسلام أمره على النظافة في كل شيء والوقاية من كل ضر .

حرم الخمر صيانة للعقل ووقاية للجسد وحفاظًا على كرامة الإنسان .

حرم الزنا صونًا للإنسان كله من أسباب التدمير المادي والمعنوي .

حرم كل ما من شأنه أن ينال الإنسان بضعف أو يعرضه لنقص .

فرض الصوم تقوية للروح والجسد ، فإن تعرض الجسد معه لضعف أو ألم منعه وأوقفه وجعل ذلك من الضرورات التي قال الفقهاء عنها :

« الضرورات تبيح المحظورات » .

ومن الضرورات حماية الجسد والمحافظة عليه بشتى الوسائل حتى أنه يسقط ما فرض إذا لم يقو الجسد لعلة على تحمل ما أوجب وشرع .

الصلاة فرضت على هيئة مخصوصة معلومة .

فإذا عجز الإنسان عن القيام فلا بأس أن يصلي جالسًا ، فاذا عجز عن القعود ، فلا عليه أن يصلي مستلقيًا .

ألا تراه يفرض الصوم ؟ فإذا سافر الإنسان أباح له الفطر حتى لا يلتقي على جسده عامل السفر ومشقته ، وعامل الصوم وعزيمته .

فرض الحج ، وجعله لمن استطاع إليه سبيلًا .

وفرض الجهاد الذي يتطلب إعدادًا معنويًا وماديًا ، ورفع الحرج عن غير القادرين من أصحاب الأعذار .

وهكذا تجد شرائع الإسلام كلها مددًا متصلا للإنسان كله بلا تفرقة بين روحه وجسده ليقوم برسالته ويحيا عاملًا لغايته .

والإسلام بعقيدته – التي تفتح للعقل آفاق الكون وتعصم القلب بالعفاف والطهر عقيدته التي تجعل من الفرد فردًا ذا رشد وعزيمة وهمة عالية وسعي مشكور – خير باب لتربية الإنسان على الحرية البناءة .

وهو ينشد الكمال ويطلبه بأسبابه ويسعى للخير ويدخل إليه من بابه ، لا يلتوي أو يداهن أو يرائي ، لأنه صاحب خلق واضح وغاية بينة ، وعقيدة راسخة . إن الله يراه في سر وعلانية ، قائم على أمره لا تخفى عليه خافية .

ومن أسباب التربية الاستقلالية الفذة أن جعل الإسلام كل إنسان مسئولًا عن عمله ، يجني نتيجة كسبه .

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [سورة فصلت : ٤٦] ، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [سورة الإسراء : ١٥] .

هذه التربية الاستقلالية التي تجعل من الفرد إنسانا جديرًا بتحمل المسئولية والتبعة ، وأن تناط به أمانة الله الغالية هي التي أتاحت لأفراد قلائل رباهم محمد رسول الله ﷺ أن يفتحوا الدنيا وأن يضعوا أسس حضارة إنسانية لم يعرف التاريخ البشري أكرم ولا أبر منها ، خطت بالإنسانية من مرحلة إلى مرحلة ، وانتقلت بها من حياة إلى حياة . اجتازت حدود الرق إلى سعة الحرية ، وانطلقت من أسر الظلم إلى

ساحة العدل ، ومن ظلام التقليد والجهل إلى نور المعرفة والعلم ، أخرجت الإنسانية من وحشتها في الكون إلى ألفتها معه وإفادتها بما فيه ، وهذه التربية الاستقلالية تجعل من الفرد ميزانًا للحق ونبراسًا للعدل لا يميل مع الهوى ولا يقلد الناس في باطل .

يحكم على الأمور بوازع من دينه فيتبع إحسان المحسن ويتجنب إساءة المسيء . وأنت تسمع روح التربية الاستقلالية التي تجعل من الفرد مثالًا نيرًا لحرية الفكر ونزاهة التقدير والتجرد للحق ، تسمع من فم الرسول ﷺ قوله : « لا يكن أحدكم إمعة يقول : إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت . ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » .

هذه التربية الاستقلالية جعلت الفرد الواحد من أتباع هذا النبي الكريم يفتح دولا ويبني أممًا ومعه يقينه وإيمانه وكأنه يحاكي الشمس في عالمها زودت بخصائصها وانطلقت في مدارها بإذن ربها .

تفيض على الناس بنورها ومنافعها وهي قريبة في علو ، نافعة في سخاء تلتزم حدودها وتعبد ربها .

والجزاء الذي نوهنا عنه في الإسلام والذي يوقر المؤمن به ولا يغفل عنه لا يأخذ طابع التهديد أو الوعيد الذي يجعل النفس تفزع أن يصيبها شر لم تكن مقدماته بدأت من النفس ، وإنما يجعل النفس توقن أن من داخلها ينبع الخير أو الشر وهي لن تحشر إلا في عملها ، فهي من خيرها في خير أبدًا ومن شرها في شر أبدًا .

وهنا فقط تتأتى الحرية الشخصية بأوفر أسبابها وأوسع معانيها .

كما تقع المسئولية على الفرد بصورة تجعل منه كيانا ذاتيًا كأنما استخلف في أرض الله وحده .

وما أجمل وأعذب هذه الكلمة التي قالها إقبال عن والده وهو ينصحه أن يتدبر القرآن وأن يأخذ نفسه به . يقول إقبال : كان والدي يقول لي : « اقرأ القرآن كأنما نزل عليك » ! خيره لنفسه وخطيئته لا يحملها غيره ولا يجازي عليها سواه ، فما كسب من خير فلنفسه وما اكتسب من شر فعليها : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا

مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٦] ويأتي الجزاء مطابقًا للعمل : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [سورة النساء : ١٢٣] ، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [سورة الإسراء : ١٥] ، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ۝ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [سورة النجم : ٣٩ - ٤٢] .

وفكرة استقرار الجزاء في النفس تصونها من مهلكات الهوى وانحراف الغفلة ، كما تمنح الإنسان حرية العمل الذي يتحمل نتيجته ويجني ثمرته .

﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة المزمل : ٢٠] ، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [سورة آل عمران : ٣٠] .

قلت : إن الإسلام يعد الإنسان لرسالة الحياة وحمل أمانة الله فهو لهذا يحل له كل طيب ، ويحرم عليه كل خبيث .

﴿ يَا بَنِىٓ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ الَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٣١ ، ٣٢] .

يعطي الجسد حظه من متع الحياة الطيبة التي تصونه وتحفظه وتحول بينه وبين أسباب الضعف .

كما يعطي النفس حظها من التزكية بألوان العبادة المتصلة بالعقيدة ، والسلوك الناشئ عنها حتى لا تميل مع الهوى فتضل عن سبيل الله .

وإذا كان الإسلام بتربيته الكاملة الصادقة يعد الإنسان لحمل الأمانة التي تصون الناس وتأخذ بيدهم إلى الرفعة والكمال . فلننظر أي حقوق أقرها الإسلام للإنسان ؟ وأي معونة سيقت له وذاك هو **الأمر الثاني في حديثنا عن الإسلام والفرد** .

إن العناية بالفرد أساس لإصلاح المجتمع . إذ المجتمع في حقيقته مجموع أفراد

والحقوق التي خولها الإسلام الفرد وأقرها له تجعل منه سيدًا كريمًا يأخذ امتداده بخصائصه الذاتية على أوسع مدى مقيدًا فقط بضوابط الخلق التي تجعل منه طاقة موجهة للخير العام حتى في أخص مطالبه ومنافعه الذاتية .

وهذه الميزة في تكريم الفرد وتربيته وقيام الضوابط النفسية المتفاعلة بتقوى الله وخشيته لا تجتمع له بصورة كاملة صادقة في أي مذهب من مذاهب الفكر البشري .

وإذا نحن تأملنا أمره في كلا المعسكرين الرأسمالي أو الشيوعي وجدنا مصداق ذلك .

فالمعسكر الرأسمالي يغالي في حرية الإنسان دون ضوابط من الخُلق والضمير التي تحد من استغلاله وانحرافه ، ففي مقدور الرأسمالي أن يستحوذ أو يستغل وأن يحتكر وأن يتلهى في شهواته دون أن يجد من نفسه ناصحًا أمينًا يوقفه عند حدود مصلحة الآخرين .

وهذه الحرية بهذه الصورة يعدها الإسلام رقًا وذلًا إذ تجعل الإنسان أسيرًا لشهوته منقادا للذاته محصورًا بجشعه وأنانيته .

في المعسكر الشيوعي : تجد النظرة إلى المجتمع تجعل من الفرد خادمًا لهذا الوهم المفقود .

أين المجتمع إذا ضيع الفرد وامتهنت كرامته وديست حريته ؟

المجتمع لا يمكن فهمه مستقلا عن أفراده ، ولا يمكن تحقيقه إذا عدمت أفراده .

إنه كيان معنوي حقيقته في تجميع الأفراد .

والفرد في هذا المعسكر لا هو حر في أن يعمل وأن يجني ثمار عمله ، ولا هو حر في اعتناق ما يراه ملائمًا لفطرته من مذاهب الفكر والسلوك .

وكيف تنتظر كرامة لفرد في أمة تنحصر رسالتها في منفعة البطن والمعدة وهي تخضع مثل الإنسان لهذه المنفعة الدنيا التي ليس وراءها شيء يبتغي أو حياة ترتجى ، فلا تتطلع أبدًا إلى السماء ولا ترجوها في شيء ولا تعترف لها بفضل ، الإنسان معها عبد غريزة ومنفعة وأسير مادة صماء يحيا فيها ويسخر من أجلها ، كما أنه كذلك في معسكر الرأسمالية إذ المال هدفه واللذة غايته !

فالميزتان ميزة حرية الإنسان وكرامته ، وإقامة ضوابط تجعل حقه ينتهي عند حق غيره : أي العدل في إعطاء الحقوق والمساواة في النظرة إلى الناس جميعًا ، لا يمكن أن تجدهما بصورة كاملة بارة صادقة إلا في الإسلام .

على أن الإسلام في تقريره لأمر الحرية والمساواة لا يقبل أبدًا أي مساس بهما .

وسندرك من تقرير هذه الحقوق أن الإسلام يعد الإنسان لحمل أمانة الله التي أبت السماء والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان لأنه وهب له ما لم يوهب لها .

هي مسخرة بقانون لا تسأل عن سيرها أو قيامها ، لا تسأل الشمس لِمَ ظهرت أو غابت ؟ لا تسأل الجبال لِمَ استقرت أو سارت ؟ لا تسأل الأرض عن حركتها ولا النجوم عن مدارها ! لأنها مسخرة منقادة ، لا تسأل عن شيء ولا تتحمل تبعة شيء .

أما الإنسان المدرك المختار فقد حمل أمانة الله لأنه مؤهل لحملها مزود بأسباب رعايتها والحفاظ عليها ، وأي تفريط فيها جهل بنفسه وظلم لحقيقته .

وإذا كان الإنسان من حيث كونه إنسانًا في أي مكان وجد قد زود بهذه الأسباب وأهّل بطبيعته للتحمل والجزاء ، فإن نظرة الإسلام للفرد تقوم على هذا الأساس من تقدير إنسانية الناس جميعًا ، ومن تقرير الحق الذي يحقق المساواة والحرية لهم جميعًا .

فإذا استقر أن الناس سواء في الإنسانية والخُلق ترتب عليها مساواتهم في الحقوق . والإسلام في هذه الناحية يبرهن بتجرده الفذ وتحريه منطق الحق والعدل على أنه بحق دين رب العالمين .

الإسلام يعد الناس جميعًا متساوين في الإنسانية ، لأنهم جميعًا صنعة إله واحد أبناء لأب واحد ، إن أباكم واحد وإن ربكم واحد .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] .

وهذه المساواة العامة في الإنسانية تتحطم معها فوارق الجنس واللون والحسب والنسب ، وهي فوارق الانحراف البشري والظلام الإنساني ، فوارق الجاهلية الضالة والهوى المتسلط والتعالي الكاذب والتمييز المصطنع ، وهو تمييز تأباه فطرة الحياة التي لا تفرق في قليل أو كثير في طبيعة الخلق والولادة والمأكل والمشرب والحياة وأسباب المعرفة والإدراك .

لست أدري أين هي التفرقة في واقع الخلق حتى تقع بين الخلق ؟

التفرقة في حقيقتها انتكاس بالإنسانية وتفويت لأسباب الرفعة الحقيقية التي لا يمكن أبدًا أن تتم لعبد يغفل عن حقيقة نفسه ومعرفة خالقه .

والطبيعة تأبى على الإنسان أن يكون غير كونه إنسانًا ، فهو خاضع للقوانين المسيطرة والسنن العامة والمصير المشترك .

كما تأبى سنن الخالق أن يمتد بقاؤه فيحقق ما يصبو إليه من استعباد الناس والتعالي عليهم : فكم من حالم أيقظته مخالب الموت ! وكم من مختال على العباد داسته أقدامهم في التراب ! وكل ما فوق التراب تراب فمن أين تأتي التفرقة والمبدأ معروف والمصير مشترك ؟

الإسلام العظيم يأباها ويحاربها ، والنبي الكريم يعلن في خطبته الجامعة :

« أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ويقول القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] .

مساواة تدعو إليها الفطرة العامة ، ويقضي بها المصير المشترك ويتطلبها عدل السلوك وسلام الإنسانية ، قامت في الإسلام من أول أمره حين دعا الناس جميعًا إلى عبادة الواحد رب العالمين .

وهذه المساواة في الإنسانية تستلزم المساواة في الحقوق : فالناس جميعًا أمام قانون الله سواء ، لا فرق بين عظيم وحقيرٌ وشريف ووضيع ، فالحق أساس هذا الدين والعدل سياجه .

والناس مع اختلاف عقيدتهم وألوانهم وأجناسهم أمام عدله وحقه سواء .

وأنت تسمع من قانون هذا الدين : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [سورة المائدة : ٨] .

وأنت ترى رسول الله ﷺ يغضب حين يرى أسامة رضي الله عنه يستشفع لقرشية سرقت ويقول له غاضبًا معنفًا : « أتشفع في حد من حدود الله ؟ » .

ثم يخطب الناس قائلًا : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وهذا عمر بن الخطاب يقول في أول خطبة له في الخلافة : « أيها الناس ، الضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له ، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه » .

ويقول في رسالته لأبي موسى الأشعري في أمر القضاء :

« آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك » .

وهو الذي قال لعمرو كلمته الخالدة حين علم أن ابنه ضرب آخر : وعدّ أن

الابن ما ضرب إلا بجاه أبيه ، قال له بعد أن انتصف للمضروب :

« يا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » .

ومن جميل ما يذكر في هذا المجال ما جرى بين علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وقد تحاكم الأول أمام عمر وكان الخصم يهوديًا .

وكان عمر كعادته ينادي عليًا بقوله يا أبا الحسن .

فلما ناداه في هذه المرة وهو يتحاكم أمامه كعادته ظهر الغضب على وجه علي ، فظن عمر أن عليًا يتبرم من وقوفه مع اليهودي على قدم المساواة . وعلي مَنْ تعلم حسبا ونسبا وإيمانا وصدقا ، قال عمر لعلي : أكرهت أن يكون خصمك يهوديًا ؟ فقال علي رضي الله عنهم جميعًا : إنني غضبت لأنك لم تسو بيني وبين خصمي اليهودي إذ ناديته باسمه وناديتني بكنيتي !

أرأيت أن المساواة في الحقوق ليست بين المسلمين وحدهم ، بل بين المسلمين وغير المسلمين ، وأن عليا يقف في ساحة القضاء مع خصم يهودي يأبى عليه دينه أن يترك لفظا تشم منه رائحة التعظيم له ، فيغضب ويعد هذا تمييزًا في موطن القضاء ؟ وما كان النداء من عمر إلا نداء قد اعتاده ، ولكن عليًا لم يستطبه منه في هذا الموطن ، موطن القضاء ورد الحقوق !

ولعلك تذكر ما سقناه لك من أمر زيد بن سعنة اليهودي الذي جاء يتقاضى النبي دينا عليه ، فجبذ ثوبه عن منكبه ، وأخذ بمجامع ثيابه .

وأغلظ له وقال له : إنكم يا بني عبد المطلب مطل .

ولما هم عمر ليرد الإساءة ، وشدد القول لليهودي قال الرسول ﷺ : « أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر : تأمرني بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضي » !

وهذا ما دعا زيدا هذا أن يسلم ، وأن يتصدق بنصف ماله على فقراء المسلمين شكرًا لله على نعمة الإسلام !

ألا إن عمر يدخل عليه قاتل أخيه فتتأثر نفسه لرؤيته .

فيقول له إني لا أحبك فيقول الرجل : أفتنقصني بذلك حقي يا أمير المؤمنين

قال عمر : لا وأستغفر الله

فيقول الرجل : ما أبالي ، ما يفرح بالحب إلا النساء !

ولست أبيح لنفسي أن أطلب المقارنة بين هذا وبين التفرقة العنصرية في أقوى الأمم حضارة في عصرنا الحديث ، إذ لا تصح المقارنة بين شريعة الله وشريعة العبد ، وبين عدل الخالق وظلم المخلوق !

وكفاك أن تعلم أن الإسلام يجرد عزائم المؤمنين لإقامة الحق والعدل مع الصديق والعدو مع الفقير والغني : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أو الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [سورة النساء : ١٣٥] .

وأن تتأمل ما تنص عليه شرائع القوم هناك في العالم الحر من تفرقة بين الأسود والأبيض ! وتجعل للبيض حقوقًا لا ينالها مواطنوهم السود وما أمر هذه التفرقة في أمريكا وجنوب أفريقية وغيرهما من دول العالم بالأمر الخفي الذي يحتاج إلى بيان !

بقي جانب آخر من المساواة بعدما قدمنا من أمر المساواة في الإنسانية العامة وفي الحقوق .

جانب المساواة في تكافؤ الفرص وظروف المعيشة والكسب : أي المساواة في شئون المال والاقتصاد .

والإسلام في هذه الناحية قد حرم كل ما من شأنه أن ينال من هذا الحق أو يحول دون تكافؤ الفرص ورعاية المصلحة :

فقد حرم الربا تحريمًا قاطعًا ، وأعلن الحرب من الله ورسوله على مرتكبيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ

تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩] .

كما حرّم الاحتكار والرشوة وأكل أموال الناس بالباطل ، وحرم الاستغلال في أية صورة سواء كان استغلال سلطة ونفوذ أو استغلال غش وخداع ، وجعل من حق الوالي أو الحاكم أو الأمير مصادرة أي مال ناشيء عن ظلم أو فساد .

وأغلق الإسلام بهذا كل باب من الأبواب التي تفسد التعامل أو تحول دون تكافؤ الفرص ورعاية الحقوق ، ثم هو يضع نظامًا عادلا لتفتيت الثروة حتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء : وضع نظام الميراث وما أحكمه ! وفرض الزكاة وما أبرها ؟ وأوجب الإنفاق والتكافل .

وإذا أنت جمعت : المساواة في الإنسانية – المساواة في الحقوق وأمام القانون – المساواة في تكافؤ الفرص وأسباب الكسب التي يمتنع معها كل سبب من أسباب الاستغلال أو الظلم إذا أنت جمعت كل ذلك ألفيت بعد تحقيق العدل – هكذا – أن التفاوت الناتج عن العمل الصالح والسعي المشروع أمر تقره الفطرة وتقتضيه شريعة العدل .

أليس من العدل أن ينجح هذا وأن يرسب ذاك نتيجة لجد الأول وكسل الآخر بعد تهيئة لكليهما ، وأن المساواة بينهما في النتيجة ظلم يقضي على التنافس الشريف ويفوت على الإنسانية الاستفادة بالنهضة ويحول بينها وبين السمو والرفعة ؟

ألسنا نقدم في مبارياتنا الرياضية ومسابقاتنا العلمية والأدبية جوائز تشجيعية لكل متفوق ومتقدم ؟ نفعل هذا بعد تهيئة الفرص للكل في أن يعمل ويجد .

ونختار في مبارياتنا ومسابقاتنا حكمًا نضع له قانونًا يمنع أن يكون التفوق نتيجة استغلال لحق الغير أو تعد عليه أو عمل غير مشروع لا يقره قانون العدل ؟

إن المساواة يجب أن تكون في الحقوق والواجبات وتكافؤ الفرص وإزالة الفساد والاستغلال ، لا في نتيجة العمل الناشيء عن جهد وسبق ، القائم على حق وعدل .

المساواة في النتائج مطلقًا معناها : المساواة بين الجد والكسل ، بين السعي والقعود ، بين استعمال الفكر والتخبط ، بين أخذ الأسباب والتواكل !

بل إن وضع الناس جميعًا على قدم المساواة في الجهد بدون مراعاة للتفاوت والإفادة بالتنافس الكريم ، واستعمال الطاقة البشرية البناءة ، والذخر الإنساني المخبوء أمر ينافي فطرة الخلق وشريعة العدل .

كما أن التفاوت في النتائج الناشئة عن استغلال أو احتكار أو تحكم أو عن طريق كسب غير مشروع تنكره شريعة العدل ويأباه دين الله .

إننا نطلب حرية الإنسان على أوسع مدى مقيدة بالحقوق والفضائل غير محرومة من النتيجة والجزاء ، لينعم الفرد بكرامته ويحرز قصب السبق بسعيه ، وتنعم الإنسانية بخصائصها وما أودع الله فيها من ذخر يكشف عنه التنافس الشريف والفكر الحر ، والسعي العادل .

ويمكنك أن تتصور كرامة الإنسان وحريته في ظل هذا العدل الشامخ الذي يأبى أن يحرم الإنسان نتيجة عمله كما يأبى أن يكون ماله ناشئًا عن استغلال أو إضرار بحق الغير .

ثم هو يفتح في نفسه آفاق الرحمة الناشئة عن معرفة الله ، فيجمع بذلك بين كرامة الإنسان وحريته وتكافله مع غيره دون إضرار بأحد من الخلق أو تحكم في شئونهم .

ونود أن يكون معلومًا أن المساواة في الإنسانية العامة والحقوق تشمل الناس جميعًا ، كما تشمل الرجل والمرأة ولا ينال من المساواة في شيء أن يكون نصيب المرأة في الميراث نصف نصيب الرجل أو أن تكون شهادتها كذلك في بعض الشئون على النصف من شهادة الرجل ، فإننا إذا تأملنا ما يؤديه الرجل من واجبات مالية ألفينا أن المساواة الحق فيما حدده الحق وبيّنه .

أليس الرجل هو الذي يقوم برعاية المرأة في جميع مراحلها ويقوم بدفع المهر والنفقة والمرأة مع غناها ليست ملزمة بالإنفاق على نفسها أو أولادها ؟

فهذا التفاوت تقتضيه التبعات كما أن التفاوت في الشهادة تقتضيه فطرة الخلق وطبيعة الرجل والمرأة .

فالمرأة وميدانها الأصيل الأمومة وما يلزمها من حنان وعاطفة وحنو ، قد تميل بها طبيعتها إذ تنظر للأمور من الزاوية التي جبلت عليها وزودت بها لأداء رسالتها فتضل ، فاقتضى أن يكون معها أخرى تذكرها أن تضل تقومان مقام رجل واحد في الشهادة : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٢] .

والإسلام تكريمًا لها يستبعد شهادتها في الأمور التي تنال من كرامتها أو تخدش عفتها كشهادة الزنا ، أما الأمور النسوية الخالصة فلا بأس أن تقوم بالشهادة فيها دون مشاركة الرجل .

والإسلام في الحالين – في حالي الميراث والشهادة – يساير الفطرة في الرجل والمرأة ويجعل الحق مرتبطًا بالواجب : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٨] .

وسيأتي الحديث عن وضع المرأة في الإسلام في حديثنا عن المجتمع .

لكننا نود أن نقرر هنا أن المساواة التي حققها الإسلام ونادى بها مساواة عادلة لا تفرق بين جنس وجنس ولون ولون ، لا تفرق بين رجل وامرأة اللهم إلا فيما اقتضته طبيعة الخلق أو دعا إليه التفاوت في التحمل ، إذ الإسلام دين الفطرة ، وليس من الفطرة في شيء أن يُقال : أن المرأة رجل أو الرجل امرأة ! فإن ذلك تبديل للخلق وتفويت لوظيفة كليهما .

المساواة في الإنسانية العامة بينهما أمر تقتضيه الفطرة ، ولذا فإن الإسلام يخاطب الرجل كما يخاطب المرأة ويجعلها مسئولة عن عملها ، مطالبة مثله بشرائع الله لا تذوب شخصيتها معه ولا تحرم نتيجة كسبها : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩٧] ، ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم

مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ [سورة آل عمران : ١٩٥] .

وأصل هذه المساواة في الإنسانية والحقوق في الإسلام عقيدته التي تجعل الناس جميعًا مخلوقين لخالق واحد مدينين في حياتهم وموتهم ومعاشهم ومعادهم لرب واحد رب العالمين .

ولذلك فإن المساواة في هذا الدين تأخذ طابع الرسوخ والثبات لأنها ترتبط بالعقيدة الثابتة الراسخة التي لا ينزع الإنسان معها إلى علو في الأرض أو فساد ، بل ينشد بها ومعها الكمال الإنساني والخلق الرباني ينشد معها التجرد والصدق كما ينشد البر والوفاء والرحمة .

وهذه معان لا يستقيم أمر المساواة إلا بها ولا يتحقق وجودها إلا عليها ؛ فالمساواة الناشئة عن إيمان بالله هي المساواة التي تحقق بها العدل بين الناس جميعًا ، فلا يبغي أحد على أحد ولا يتعالى أحد على أحد ، بل ينزع الجميع ، وهم يصدرون عن معرفة لله صادقة ، إلى التواضع لله والخوف منه والرجاء فيه ، تواضع لا يستقيم معه تَعَالٍ على الخلق أو استخفاف بالحق أو مخالفة لقانون العدل .

ولنتأمل بعد هذا ما قرره الإسلام من حرية تكميلًا لحقوقه ورعاية لكرامته وتمكينًا لخصائصه الذاتية أن تستبق في الخير على أوسع مدى . وأن تصعد إلى الكمال – إن شاءت – في حرية مكفولة . يمكن أن يتم معها جزاء ؛ فمنطق الفطرة يقتضي أن تتوافر مع الجزاء حرية العمل ، وأن ترتفع المسئولية إذا جاء الإكراه أو سلبت الإرادة .

ولذا فإن الإسلام لا يعد إيمان المكره إيمانا لأنه مسلوب الحرية والإرادة كما أنه لم ينف الإيمان عمن أكره على كلمة الكفر ما دام القلب مطمئنًا بالإيمان .

حرية الفرد في الإسلام منشؤها انتفاء العبودية لغير الله ولذا فإنها ليست حرية الانطلاق الأعمى ، وليست حرية الاستجابة بلا قيود للملذات والشهوات ، فإن هذه عبودية .

إن الحرية في الإسلام تعني أولا تحرير النفس من رق الهوى واستذلال الشهوة ، تحرير إرادته أن تذله رغبة أو تأسره نزوة أو يخضع لغير منطق العدل .

تحرير عقله من الوهم والشك وتطهير قلبه من المرض والنفاق !

والإسلام يقرر هذه الحرية الجامعة بأول نداء له : « لا إله إلا الله » .

بهذا النداء ارتفعت رءوس طالما ذلت لحجر ، وأعتقت نفوس طالما دانت لبشر .

بهذا النداء تحرر العقل من التقليد والوهم وتحرر القلب من الظلام والشك ، وتحرر البشر من الخضوع لغير الخالق البارىء المصور الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن .

أصبحت الكلمة للعدل وحده ، وأصبح الخضوع للحق دون سواه .

فك إسار العقل وتحررت الإرادة .

وأصبح الإنسان حرا حتى أمام أخطر القضايا شأنا ، فله أن يختار ما يعتقد ، وأن يتقبل عقيدة الحق إن شاء أو يرفض : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [سورة الكهف : ٢٩] .

لا إكراه لأحد على أحد .

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ [سورة الرعد : ٤٠] ، ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [سورة الغاشية : ٢٢] .

حرية الاعتقاد مكفولة في هذا الدين .

لا يكره أحد على عقيدة : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [سورة التوبة : ٦] .

فالإسلام قد طلب أن يكون الإيمان بهذا الدين عن طريق المعرفة والإقناع ، لا عن طريق التقليد والإكراه .

سبيله إلى دعوته منطق سديد وموعظة حسنة وآيات قائمة بينة : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

[سورة النحل : ١٢٥] .

وهذه الحرية التي تراها بينة في عقيدة الإسلام وشريعته ..

تمنح الإنسان حرية المشاركة بالرأي في شئون الحكم والنصح لأئمة المسلمين وعامتهم ، وقد أقر الإسلام حق الشورى في القضايا العامة التي تهم الناس وتؤثر في شئونهم : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٩] .

وقد أثنى الله على المؤمنين بقوله : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾

[سورة الشورى : ٣٨] .

فالخلافة الصحيحة في الإسلام هي ما كانت نتيجة بيعة صادقة .

ومع قيام السلطة الحاكمة بالبيعة والانتخاب جعلها مسئولة عما تعمل ، وإنك لتسمع هذا الشعور بالمسئولية من لسان عمر حين يقول : « لو أن جملا هلك ضياعا بشطر الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب ! » .

ويقول : « من رأى فيّ اعوجاجًا فليقومه » . وما أعظمه حين يقول : « رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبي ! » .

ومن قبله أبو بكر يتولى شئون المسلمين فيقول : « أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتموني على باطل فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم » .

واستمع إلى عمر بن عبد العزيز وقد تولى أمر المسلمين ماذا يقول ؟ « أما بعد ، فإنه ليس بعد نبيكم ﷺ نبي ، ولا بعد الكتاب الذي أُنزل عليه كتاب .

ألا ما أحل الله عز وجل حلال إلى يوم القيامة ، وما حرم الله حرام إلى يوم القيامة ، ألا لست بقاض ولكنني منفذ ، ألا وإنني لست بمبتدع ولكنني متبع ، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله عز وجل ، ألا إني لست بخيركم ولكني رجل منكم غير أن الله جعلني أثقلكم حملا ! » .

ولقد دخل عليه مولاه مزاحم بعد توليه الخلافة فقال له : يا أمير المؤمنين لعلك مهتم .

فقال : « بمثل هذا الأمر الذي نزل بي اهتممت ، إنه ليس من أمة محمد في مشرق ولا مغرب أحد إلا له قبلي حق يحق عليّ أداؤه إليه غير كاتب إليّ فيه ولا طالبه مني ! » .

وهذا الشعور بالمسئولية أمام الله والخوف منه وقيام الدين هكذا في نفوس المسلمين جعل الواحد منهم لا يخشى في كلمة الحق لومة لائم ، يقدمها لوجه الله وحده وهم الذين حفظوا عن نبيهم ﷺ : « الدين النصيحة . قالوا : لمن يا رسول ؟ قال : لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم » . فحرية الرأي مكفولة في هذا الدين .

وهذا عمر تقف له امرأة في مجمع القوم فترده في أمر غاب عنه فيه وجه الصواب ، فلا يزيد – وقد ظهر الحق معها – على أن يقول : « أخطأ عمر وأصابت المرأة » .

وإننا لنرى سيد الخلق ﷺ يستشير صحابته وينزل على آرائهم : استشارهم في الخروج إلى أحد وأخذ برأي غالبيتهم .

واستشارهم من قبلها في أسرى بدر كما استشارهم من بعدها في الخندق وأخذ بمشورة من أشار بحفر الخندق .

استشارهم في كل أمر لم يرد من الله فيه نص قاطع إذ لا مشورة في أمر قضى الله فيه وحكم رسوله .

ولا شيء يجرد الخير للأمة ويشحذ همتها له مثل تبادل الرأي والمشورة فهو فضلا على كونه تكريمًا للإنسان ثروة للأمة التي تنعم بمواهب أبنائها وخبرتهم والإفادة بكفايتهم .

وإذا استشرت إنسانًا ملكته ، وإذا كان شريكا في الرأي كان مدفوعًا إلى العمل بدافع الرغبة فيه .

وإذا كان الإسلام قد قرر هذه الحرية السياسية مع تقريره لحرية العقيدة فإنه أيضًا جعل الناس أحرارًا فيما يزاولون من أعمال وما يبرمون من عقود في بيع أو شراء أو هبة أو زواج وهو ما يعبر عنه بالحرية المدنية .

وهذه الحرية لا تحد إلا بحدود الحق والعدل ؛ إذ بهما تصان الحقوق ويطيب الكسب وفي ظلهما يمكن رعاية المصلحة العامة وتقدير شأنها .

وإذا كان الإسلام قد جعل الكرامة الإنسانية حقًا من الحقوق التي امتن الله بها على عباده في قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [سورة الإسراء : ٧٠] . فإن هذه الكرامة تستوجب حق الإنسان في العلم [1] ، وفي التملك . كما تستوجب حقه في الحرية والحياة .

ولا أعرف دينا من الأديان أو شريعة من الشرائع أفاضت في تقرير هذه الحقوق وتفصيلها وتبيينها بصورة كاملة صادقة مثل ما فعل الإسلام .

وليس هذا مجال التفصيل ، لتبيين كل هذه الحقوق ، فإن ذلك يستلزم مجلدات ضخمة . كل ما نود أن نشير إليه هو تقرير الحقوق العامة بصورة يمكن معها معرفة الإطار العام للإسلام في مجالات الحياة الإنسانية المختلفة .

ومن وراء ذلك دراسات واسعة لكل حق وقوانين منظمة لكل شأن .

والفقه الإسلامي في مجالاته المختلفة بحر زاخر يفيض بشرح هذه الحقوق والقوانين المنظمة لها سواء منها ما يتصل بحق الحياة ، كالقانون الجنائي وغيره من القوانين التي تؤمن حياة الناس أو ما يتصل بحق العلم وآدابه والوفاء له والحرص عليه .

أو ما يتصل بحق الحرية وما ينظم شأنها من قوانين الحكم والقانون الدولي أو التوجيه الاجتماعي ، أو ما يتصل بحق الكرامة في إحلال الطيب وتحريم الخبيث .

وكذلك ما يتصل بحق التملك من القوانين المنظمة لشئون البيع والشراء والإيجار

---

(١) عقدنا للعلم فصلا خاصا به لأهميته تحت عنوان : « الإسلام والعلم » .

والرهن والمعاملات الإنسانية بصورة عامة .

وقانونه في كل ذلك يصدر عن إيمان بالله وتقدير لشأن الإنسانية كلها إذ هو دينها ، فلا يجعل الحق لفئة دون فئة أو أمة دون أمة بل يجعله شمسًا ساطعة تشمل الكل بفيض من نور الحق ونزاهة العدل .

بقي لنا أن نقول : كيف نذكر هذه الحريات عن الإسلام .

والإسلام يبيح الرق وهو يتنافى مع أبسط معاني الحرية الإنسانية ؟

ولما كان هذا الموضوع من الموضوعات العامة التي يجب أن تعالج في ضوء المشاكل الدولية فقد آثرت أن أتحدث عنه في فصل « الإسلام والعلاقات الدولية » لكنني أبادر فأقرر أن كتاب الله لم يذكر رقا وإنما أوجب عتقا وأن الإسلام أغلق روافد الرق وفتح مصارفه وحرص على تحرير الرقبة بكل وسيلة وبأي سبب : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [سورة البلد : ١١ - ١٣] .

وسنرى أن الإسلام قد عالج هذه المشكلة التي جاء فوجدها أكرم وأبر علاج يمكن أن تنشده الإنسانية .

بعد هذا الإجمال الذي قدمناه عن الحقوق أقرها الإسلام للفرد وهي أيضًا حقوق الدولة والجماعة الإنسانية كلها ، نود أن نتعرف على الأمر الثالث :

٣ - الواجبات التي ارتبطت بالفرد ونيطت بوجوده ، وهذه الواجبات تتجه إلى نواح ثلاث :

١ - تتجه إلى الواجب على الفرد لنفسه .

٢ - واجب ربه عليه .

٣ - واجب مجتمعه عليه سواء كان خاصًّا أو عامًّا من الأسرة إلى المجتمع الإنساني العام .

أما واجب نفسه عليه فالإسلام جعل النفس أمانة لدى الإنسان يصونها بالرعاية والحفظ ويسأل بين يدي الله عنها .

ومن أجل هذا لا يبيح للإنسان أن يفرط في أمر نفسه ولا أن يتصرف فيها

بسوء لأن نفسه ليست ملكًا له ، بل هي لله وحده فلا يتصرف إلا بإذنه :

عن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ : أتى برجل قتل نفسه فلم يصل عليه [١] .

وعن جندب بن عبد الله أن النبي ﷺ قال : « كان فيمن قبلكم رجل به جرح فجزع ، أخذ سكينا فحز بها يده فما رقأ الدم حتى مات . قال الله عز وجل : بدرني عبدي بنفسه ، فحرمت عليه الجنة » [٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « الذي يخنق نفسه يخنقها في النار ، والذي يطعن نفسه يطعنها في النار » [٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا » [٤] .

أرأيت كيف يكون أمر الحفاظ على النفس والتقدير لحرمتها ؟

والإسلام كما أوجب على الفرد أن يصونها من كل ضار خبيث فرض عليه أن يزكيها بكل نافع طيب .

لذا نجد الإسلام يأمر بإعداد الإنسان من كل جوانبه إعدادًا يؤهله لرسالة الله ويحمله أمانته ، وينظر إلى السعي كما ينظر إلى الصلاة كلاهما عبادة يتقرب بها إلى الله : « من أمسى كالًا من عمل يده بات مغفورًا له » [٥] .

فالإسلام يقر نداء الفطرة ويستجيب لداعي الغريزة بالصورة التي يصون بها حقوق النفس ويحفظ معها حقوق الآخرين .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه البخاري .
(٣) رواه البخاري .
(٤) رواه البخاري .
(٥) حديث شريف .

ويجعل من واجب الفرد أن يكون عادلا مع النفس معتدلا في مطالبها لا يركن إلى رهبنة يضني فيها جسده ، ولا يستجيب لهوى يطمس إشعاع روحه ، بل يجعل من نفسه ميزان عدل في التقبل والعطاء .

فأول واجبات النفس على الفرد أن يصونها من الحيرة والشك في مجال العقيدة والفكر وأن يسعى لإجابة مطالبها المادية صيانة لها – في اعتدال وعدل – وأن يحصنها بالمعرفة والأخلاق رعاية لآجلها وعاجلها وتحقيقًا لسلامها وبرها .

وهذه الواجبات الثلاثة للنفس لا يفرط الإسلام في واحدة منها ، فمن واجب الفرد في جانب العقيدة أن يتأمل ويتبصر ، ليدرك أن من وراء هذا النظام الدقيق قادرًا عالمًا مدبّرًا .

والإسلام كما تعلم لا يكره الإنسان على عقيدته بل يقدمها إليه في فطرة هادية ويطلب إليه أن يتعرف عليها عن طريق التأمل والفكر في الكون وفي النفس ؛ لتكون عقيدته من تحصيله ومعرفته ، وقبوله ورفضه بإرادته وميله : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ [سورة الأنفال : ٤٢] .

وتحصيل العقيدة الراشدة – مع كونه فطريًّا – يتطلب من الإنسان نزاهة وتجردًا وفكرًا وعملا ، وخُلُقًا وأدبًا ، وصبرًا وصدقًا .

وكل ذلك من واجب النفس على الفرد في باب العقيدة وما يترتب عليها في كل شأن من شئون العمل والسلوك أو العبادة والأخلاق ، ليأمن في عاجله وآجله .

أما الواجب المادي عليه لصيانة جسده فقد أوجب الإسلام على الإنسان أن يسعى ويعمل لتحصيل وتوفير راحته ، وقد جعل الحفاظ على الجسد في عدل واعتدال عبادة يتقرب بها إلى الخالق .

فسعيك لتحصيل قوتك عبادة ، وسعيك لتوفير ملبسك عبادة ، وسعيك لإقامة مسكن ملائم لك عبادة ، وسعيك لحصانة فرجك عبادة .

وكل هذا يستلزم سعيًّا دءوبًا يحدد في الإسلام بحدود الأخلاق ورعاية الحقوق ، فإن مطالب الجسد إذا لم ترتبط بهما عانت النفس مغبة الهوى الكذوب والأنانية الجشعة .

ثم يقوم واجب آخر هو واجب النفس على الإنسان في كسب المعرفة والتجمل بمكارم الأخلاق ، والإسلام يحرص على المعرفة ويأمر بها ويدعو إلى مكارم الأخلاق ولا يتهاون في قيامها ، وهذه وتلك تستوجب تربية وإعدادا ، ودربة وتهذيبا ، وصبرا وعزما .

وإذا أنت سألت عن الواجب لله على الإنسان أمكنك أن تجيب بلا تردد :

هو الواجب عليه لنفسه ومجتمعه بضابط واحد فقط أن يقصد بكل ذلك وجه الله وابتغاء مرضاته ؛ لتسلم النفس من الهوى المهلك والظلام المعوق والضلال المفرق ، ويسلم المجتمع وقد سلمت النفس من الفرقة والتنابذ والأنانية والأثرة .

وإذا كان الإسلام قد فرض عبادات يؤديها الإنسان تقربًا لربه فإنها للإنسان أولا وآخرًا والله غني عن العالمين .

هي عنوان ولاء للخالق الذي لابد منه للبر بالمخلوق .

هي شارة خضوع للواحد الذي لابد منه لإشاعة الرحمة والسلام بين عباده .

فأنت ترى أن الواجب لله على الفرد يمتزج بالواجب عليه لنفسه ومجتمعه ، ولا ينفصل عن ذلك أبدًا .

وتلك عظمة الإسلام في فطرته وذاك إعجازه في يسره ومتانته وفاعليته .

أما عن الواجب على الإنسان لمجتمعه من الأسرة وهي المجتمع الصغير متدرجًا إلى الإنسانية كلها وهو المجتمع الكبير . فتلك رسالة الإسلام في توحيد شأن الإنسانية وتكافلها وتعاونها وجمعها على أخوة بارة ووحدة صادقة .

ولعلك تتساءل عن هذا التدرج من الأسرة وهي المجتمع الصغير إلى الدولة إلى المجتمع الإنساني كله قائلًا : إنني أرى الأمر يسير في هذا التدرج على هيئة هرم ، والهرم في قانون المادة يرتكز على القاعدة وهي أوسع مجالاته .

وينتهي إلى القمة وهي أصغر ما فيه ، لكي يستقر ويطمئن ويبقى فهل الأمر فيما نحن بصدده كذلك ؟

إن التدرج من الأسرة إلى المجتمع صعودًا أو هبوطًا لا يأخذ طابع التدرج في

البناء المادي بحيث ينتهي من شيء ثم يبدأ في غيره .

بل يأخذ طبيعة الشمول والإحاطة لشئون الحياة في مد فطري وتفاعل فكري وتشابك إنساني ، يمده وحي إلٰهي وشرع رباني بحيث يتردد صدى عملك لنفسك في أرجاء مجتمعك القريب والبعيد تردد الصوت في جنبات الكون ، ويتفاعل سعيك وأنت تصدر عن معرفة الله مع سعي الآخرين فيكون لحن الألفة والمحبة والتعاون والبر والرحمة مع الناس أجمعين .

فأنت ترى من هذا أن الإسلام يعد الفرد ليكون عالميًّا بعقيدته وفكره ووجدانه وسعيه وعمله ، يشغل بأمر الناس جميعًا كما يشغل بأمر نفسه ويعد مسكنه .

هذا الكون مع رحابته – وإن ضم جدثه أو جسده – حيز ضئيل محدود من كون الله الواسع العريض .

يقول شاعر الإسلام محمد إقبال : « إن العالم تراث للمؤمن المجاهد ، لا يشاركه فيه أحد ولا يعد مؤمنًا كاملًا من لا يعتقد أن العالم خلق له » .

ويقول : « إن المؤمن إذا نادى الآفاق بآذانه أشرق العالم واستيقظ الكون » .

« ولست أعلم بالتأكيد مصدر هذا الصبح الذي يطلع على هذا العالم كل يوم ولست أعلم سره ، ولكني أعلم أن الفجر الذي يهتز له هذا العالم المظلم ويولي به ليل الإنسانية الحالك إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق » .

إذا أحسن المؤمن تربية شخصيته وعرف قيمة نفسه لم يقع في العالم إلا ما يرضاه ويحبه .

« المسلم الضعيف يعتذر دائمًا بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب ، وقدره الذي لا يرد » [1] .

والحق أن هتاف المؤمن لحن أخاذ يتردد صداه في جنبات الكون .

فمن واجب مجتمعه عليه أن يصدر في كل أمره عن وحي إيمانه :

---

(١) شاعر الإسلام إقبال لأبي الحسن الندوي .

فيجد الصغير منه بر الوالد وحنو الأم .

ويجد الكبير منه وفاء الابن البار وإحسان الولد الصدوق .

وتجد الزوجة أسباب الرحمة وأنس العشرة .

ويجد الصحب نشيد الحب وطيب الألفة .

واجب مجتمعه عليه في نظر الإسلام أن يسعى جاهدًا لراحته وإسعاده متكافلا متضامنًا يرى لكل فرد ما يراه لنفسه ويحب له ما يحب : « وخير الناس أنفعهم للناس » .

واجبه أن يكون فاهما للصالح العام وأن يجند نفسه له وأن يضع مقدراته في خدمته وهو ما يسمى في الإسلام : « سبيل الله » .

يذود عن حياضه ويدافع عن كيانه ويصونه بالنصيحة والموعظة الحسنة ، ويرعاه بالسلوك الطيب والعمل الصالح متجردًا في ذلك كله للحق والعدل وابتغاء مرضاة الله .

واجبه أن يحق الحق ويبطل الباطل وأن يعمل للخير ويتجنب الشر .

واجبه أن يتفاعل في شئون أمته ، فلا يطعم وغيره جائع ، ولا يتخم وغيره محروم ، ولا يأمن وغيره خائف ، ولا يصح وغيره مريض ، ولا يعلم وغيره جاهل ، بل يقدم من مطعمه وزاده ومن أمنه وصحته وعلمه ما يوفر به أمن الآخرين وراحتهم ، وأن يجند نفسه لهذا الخير العام ، ليتأتى التكافل الاجتماعي المنشود ، وتتحقق الأخوة الإنسانية الصادقة .

واجبه ألا يتجه إلى مجتمعه وهو ينظر إلى نفسه يستخدمه لمصلحته بل يتجه إلى نفسه ناظرًا إلى مجتمعه يستخدمها لمرضاة الله في البر بعباده وشئون خلقه فتنمحي الأنانية والأثرة وتحيا المحبة والإيثار .

وتلك معان تخضع ماديات الحياة لها فلا ترى مع قيامها كنزازة أو شحًّا أو أنانية أو جشعا ، بل ترى المال يتأدب بأدب النفس فيساق طيعا لأداء الواجب وتحقيق البر .

وتتسع الرحمة في مجال الإيمان فتشمل كل ذي كبد رطب من إنسان أو حيوان وتمضي في صحبة الإيمان بارة راشدة وفية بالعهد ناطقة بالصدق هاتفة بالعدل مجندة للرحمة والسلام .

فالفرد في ظل الإسلام لا ينطوي على نفسه مشغولا بهمه عن هم غيره .

بل يرى في دائرته الصغرى عالمه الأكبر ، وينظر من دار دنياه إلى وطنه الأعظم .

وأنى لإنسان يتردد بصره في أرجاء جنته أن ينحصر في حدود شهوته ؟

وأنى لإنسان يعرف حقيقة نفسه لا يطلبها برًّا وعدلا في غيره ؟

أنى لشمس الحقيقة أن تنحصر في دار أو دينار ؟

إن المؤمن وهو يحمل رسالة الله في صدق يعمل في كون الله في امتداد وسعة يحده إيمانه ويحدوه يقينه .

وبعد : فإن الواجبات التي ارتبطت بوجود الإنسان فردًا في كيانه الذاتي ولبنة في المجتمع الإنساني ، وعبدا لخالق يملك أمره وترتبط سعادته ونجاته بمعرفته .

تلتقي كلها عند قول الله تعالى – إن أنت أحسنت التدبير – : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة هود : ١١٢] .

* * *

(٢) الإسلام والمجتمع

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

[سورة الحجرات : ١٣]

كثيرًا ما يذكر المجتمع في صورة المقابلة للفرد مع أن المجتمع في حقيقته مجموع أفراد . وإذا نحن جردناه لم نفهم لوجوده حقيقة ولا لحقيقته وجود .

ولذا فإن التغني بالمجتمع مع إهمال شأن الفرد أمر يودي بحقيقة الفرد والمجتمع جميعًا ، أعني أن القيمة الذاتية للمجتمع يستمدها من الذاتية للأفراد .

ما المجتمع في حقيقته إذا أهملنا النظر إلى الأفراد ؟ لا شيء ! إذ لا يمكن قيامه أو وجوده بدون تصور أفراده .

وإذا كان المجتمع ناشئًا من التجميع بين الأفراد وجب ألا يساء إلى الفرد باسم الصالح العام ومصلحة المجتمع ، إذ الإساءة إلى أي فرد إنما هي في الوقت نفسه إساءة لحقيقة المجتمع . وإن التكريم للفرد إنما هو في الوقت نفسه إعلاء وتشييد لحقيقة المجتمع الذي هو كيان معنوي ناشيء من النظر إلى تجميع الأفراد .

إن للحياة قانونا مواده كلها عند كلمتي : « الحق ، والعدل » وهو قانون الإسلام الذي هو دين الحياة ، فإذا وضعت هذا القانون حكمًا في شئون الناس ألفيت أن الإساءة لن تقع بين الخلق ، وأن ما يقع من عقاب نتيجة سلوك منحرف يوزن بميزان الحق والعدل إنما هو في حقيقته تكريم للفرد وللمجتمع جميعًا في صورة منع الشر وحسم الفساد .

وإنما الإساءة التي نعنيها ونعني أنها كثيرًا ما تقع على الأفراد نتيجة الاستغلال لكلمة المجتمع هي الإساءة بلا قانون من حق أو عدل .

إن العقاب في حقيقته تكريم وحياة ، أما العدوان ففي طياته عوامل الفناء والهلاك .

والمجتمع الكريم صورة منعكسة لكرامة الأفراد ، والمجتمع المهين أيضًا صورة منعكسة لمهانة الأفراد .

فالمجتمع حقيقته في أفراده . فإذا أنت أهملت شأن الأفراد فقد ذهبت بحقيقة المجتمع .

قد يقال : إننا كثيرًا ما نحد من حرية الأفراد لصالح المجتمع .

نقول : إذا كان ذلك بقانون : « الحق والعدل » فليس في ذلك ضير على حرية الفرد بل الضير كل الضير أن تترك حريته بلا قانون تعبث إذا شاءت بحقوق الآخرين ، وإذن فقانون الحق والعدل يتوافر بهما أمران :

قيام الفرد ظافرًا بحقه .

وتحقيق المجتمع الصالح وافرًا بأفراده .

ولكن من يقوم بتحقيق العدل والحق إلا المجتمع الذي يتضافر على ذلك ؟

نقول : لا يمكن تحقيق العدل والحق إلا عن طريق الأفراد أولا بالإعداد والتربية حتى تتوافر اللبنات الصالحة التي يشاد بها وعي اجتماعي عام يصان به قانون الحق وتتحقق به شريعة العدل .

وإذن فمدار الأمر على الفرد الذي هو أساس المجتمع ومنه وبه يمكن الدخول إلى ساحة التجميع البشري في أمن ورشد وبر وسلام .

ولست بهذا أنال من قيمة المجتمع أو أهمل شأنه ، بل على العكس من ذلك ، فإنني أقدر وجوده وأحرص على صلاحه وتكريمه ، ولكن عن طريق المعرفة الصادقة لعوامل بقائه وحفظ كيانه .

الفرد أساس المجتمع ، ولذا فإن الإسلام يعده إعدادا كاملا ليوفر به أمن

المجتمع ويصون ألفته ومحبته ، وكل ما يمكن أن يقال في هذا المجال : يجب ألا تستغل كلمة « مجتمع » وألا يساء إليها باسم التكريم لها وألا يهان الفرد باسم الخضوع لها والخشوع في محرابها .

مع أن المجتمع لا يمكن أن تلتمس حقيقته في الوجود إلا في حقيقة أفراده ، إذ لا يمكنك أن تحشر العباد جميعًا في أرض ثم تزعم أنك تخدم حقيقة المجتمع فأين المجتمع حتى يمكن خدمته ؟

إنه سراب وخداع إذا لم يلتمس في وجود الأفراد .

ومن هذه النظرة العابرة لحقيقة المجتمع ، وبُعد الحديث عن الإسلام والفرد يمكننا أن نتجه بالحديث إلى أولى وحدات المجتمع :

الأسرة وهي المجتمع الصغير :

أول ما يطالعنا في الحديث عن الأسرة الزواج إذ هو باب الدخول إليها وأساس تكوينها وامتدادها ، وقبل أن نمضي في الحديث عنه نود أن ندرك أن الأسرة في نظر الإسلام هي النواة الحقيقية لتكوين المجتمع ، أو هي المجتمع في خصائصه الأولى ومقوماته الأصيلة .

ولذا فإن تقدير الإسلام لها وعنايته بها تفوق كل عناية وتقدير ، وإذا كان باب الدخول إليها هو الزواج فقد حرص الإسلام كل الحرص على أن يوفر للزوجين وسائل المودة والرحمة : وهما جماع ما في الزواج من خير :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [سورة الروم : ٢١] . وطريقه إلى تحقيق الرحمة والمودة أمران :

الأول : غرس الأخلاق الكريمة التي تفي بالحقوق في بر وتحقق المودة في طهر .

الآخر : تجنب كل ما من شأنه أن يكون سببًا في إيجاد الفرقة والشحناء ، والتنازع والبغضاء .

وإذا كانت الأسرة تبدأ أولا من الزوجين فالإسلام حريص على وضع أساس

ثابت تمتد به الأسرة باسقة في سماء الطهر والفضيلة .

والزوجان كلاهما قد مر بأدوار سبقت مرحلة الزواج تلك .

ولقد تحدثنا عن عناية الإسلام بها وحرصه على توفير أسباب التربية الصالحة الصادقة .

وإذن فعناية الإسلام بالأسرة لم تبدأ حين ابتدأ الزواج ، بل عنايته قبل أن يكون الإنسان شيئًا مذكورًا ، وهو يأمر بتخير التربة الصالحة لغرس نبت كريم [1] .

ولنسر مع بداية تكوين الأسرة – مع الزواج – لنرى توجيه الإسلام وإرشاده في أخطر قضية يتوقف عليها امتداد الإنسانية وتكثير الجنس البشري :

يطالب الإسلام أولا أن يكون الزواج ناشئًا عن رغبة ومعرفة بعد توفير الأسباب التي يصح معها الزواج وتستقيم بها حياة الزوجين .

لم يعرف الإسلام ما يسمى في عرف اليوم « بالخاطبة » وهي التي تقوم بدور الوسيط بين الزوجين تقدم لكل منهما من صفات الآخر ما يوافق مزاجه – إن صدقا وإن كذبا – رغبة في الحصول على ما تنشده من ربح .

ولئن صح مثل ذلك أولا فإن الاكتفاء به لا يضمن قيام الأدم بين الزوجين وما أجمل أن تسمع من فم الرسول الكريم ﷺ :

عن المغيرة بن شعبة أنه خطب امرأة فقال ﷺ : « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » .

وعن أبي هريرة : كنت عند النبي ﷺ فأتاه رجل ، فأخبره أنه خطب امرأة من الأنصار . فقال رسول الله ﷺ : « أنظرت إليها ؟

قال : لا .

قال : فاذهب فانظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئًا » .

---

(١) راجع : فصل « القرآن والإنسان » .

وإذن فقد أباح الإسلام للزوج أن يرى من أمر زوجه ما يجعله يقرر أمر الرضا بها أو الانصراف عنها في حدود المحافظة على « العفة والكرامة والشرف » هذا فيما يتعلق بالهيئة والشكل .

أما فيما يتعلق بالصفات والأخلاق فقد حرص الإسلام على تخير ذات الدين التي يملي عليها دينها أن تحفظ الرجل في نفسه وماله ولا يرى منها إلا ما تطيب به نفسه ويطمئن له قلبه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » [١] .

ومن حديث ابن عمر مرفوعًا : « لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن – أي يهلكهن – ولا تتزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأَمَة سوداء ذات دين أفضل » [٢] .

وليس المقصود المقارنة بين الدين وغيره من المال والجمال أو التنفير منهما ، بل المراد أن يكون هدف الإنسان أولا الدين ، وهذا لا يتعارض مع الجمال أو المال أو الحسب ، ولكن شيئًا من ذلك لا يصح أن يكون مقصود الإنسان من الزواج مجردًا عن الدين وعده أصلا في التقدير !

وليس المطلوب نظر الرجل فقط إلى ذات الدين ، بل نظر المرأة أيضًا فلا تخدع بما ترى من ألوان الزهو والزينة فإن الناس معادن فلا تخدعن بالزيف عن الجوهر الأصيل . عن سهل قال : « مر رجل على رسول الله ﷺ . فقال : ما تقولون في هذا ؟ قالوا : حريّ إن خطب أن ينكح ! وإن شفع أن يشفع ! وإن قال أن يُستَمع إليه ! قال : ثم سكت .

فمر رجل من فقراء المسلمين فقال : ما تقولون في هذا ؟ قالوا : حريّ إن خطب ألا ينكح ! وإن شفع ألا يشفع ! وإن قال ألا يستمع إليه !

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه ابن ماجة .

فقال رسول الله ﷺ : هذا خير من ملء الأرض مثل هذا » [١] .

وقال رسول الله ﷺ : « إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ، ألا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » قالها ثلاثا .. [٢] .

الحياة الزوجية حياة ممتدة وكما يقولون : « عشرة العمر » .

وهذه تتطلب من الصفات الإنسانية أولا ما يدعو إلى التحمل والصبر والقناعة والرضا .

أنت تطلب زوجا يعجبك حسنها ، وتسعى بكل الوسائل الممكنة للظفر بها .

يتم الزواج وتقع العشرة فلا تلبث أن ترى أن هذا الجمال المرغوب أصبح شيئًا عاديًا بالنسبة لك .

فالشيء ترغب فيه إذا امتنع عليك ، وتزهد فيه إذا وصل إليك واستدام معك .

وتأتي الحياة الزيية التي تنشد صفات النفس المستقرة لكي يتوافر للبيت نعمته من الأمانة والصيانة والرضا والقناعة مع الصبر والتحمل ، وهذه لها بالدين أبر صلة وأكرم رباط .

لابد أن يتوافر للنفس أولا أمران : « القناعة والرضا » اللذان يفيضان على النفس الاستقرار وعدم التطلع ، إذ لا يصلح في الحياة شيء إذا شغلت النفس بامتلاك كل ما تتطلع إليه .

ولأمر ما أراد الحق تبارك وتعالى أن يعلمنا حين امتن على نبيه فقال : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [سورة الضحى : ٥] .

فجعل الرضا أعلى مراتب النعمة والعطاء ، لم يقل كما محدودًا أو مالا معدودا

---

(١) رواه البخاري

(٢) رواه الطبراني

بل قال : ﴿ يُعْطِيكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ .

والحق أن إنسانا تعطيه من المال عدا وافرا ثم يسلب نعمة الرضا فتجده من ماله في شقاء !

وإنسانا آخر تعطيه من المال قدرًا ضئيلًا ثم يمنح نعمة الرضا فتجده من حاله في هناء ، وهذا الرضا القانع لا يمكن أن يتم بالحصول على ما ترغب إنما يتوافر بخصائص النفس ونزاهة الطبع وصدق التدين .

ولذا رغب الإسلام في صاحب الدين وصاحبة الدين ليضمن سلامة العشرة وصفاء المودة وكما علمت لم يهمل توافق الطبع وقبول الشكل ، وللناس فيما يعشقون مذاهب .

ولم يكتف الإسلام بهذا بل طالب بالتكافؤ الذي لا يجعل كلا الزوجين ينظر نقيصة في الآخر أو يرى في نفسه فضلا ليس فيه :

وهذا التكافؤ أمر تقديري لكن فيه نوعًا من الملاءمة التي يحرص الإسلام عليها ليوفر بها أسباب المودة والرحمة .

وفي دنيا الناس تتنوع قيم الناس المادية والمعنوية وتتفاوت درجاتهم تبعًا لذلك . وكل إنسان له ثوب يلائمه ولباس يستقيم معه ، لذلك جعل الإسلام من أسباب تدخل الولي في الزواج « عدم التكافؤ » الذي قد يجر عارًا أو وبالا على إحدى الأسرتين أو كلتيهما .

وجعل الإسلام من حق الزوجة أيضًا أن تقبل أو ترفض ما يعرض لها أو عليها من أزواج وليس للولي أن يُكرهها على قبول زوج ترفضه أو لا ترغب فيه !

عن عبد الله بن بريدة أن فتاة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : « إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع خسيسته فجعل ﷺ الأمر إليها .

فقالت : قد أجزت ما صنع أبي ، ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء » [1] .

(١) رواه أحمد والنسائي .

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن ، قالوا : يا رسول الله ، وكيف إذنها ؟ قال : أن تسكت » (١) .

عن خنساء بنت خزام الأنصارية أن أباها زوجها وهي ثيب فكرهت ذلك فأتت رسول الله ﷺ « فرد نكاحه » .

وعن عائشة قالت : « يا رسول الله : تستأمر النساء في بضعهن ؟ قال : نعم .

قلت : إن البكر تستأمر فتستحي فتسكت . فقال : سكوتها إذنها » .

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « أيما امرأة تزوجت بغير إذن وليها فزواجها باطل ، فزواجها باطل ، فزواجها باطل » .

ويمكنك بالتأمل في هذا الحديث والذي سبقه أن تعلم أن الزواج رباط أسر ، ونداء مودة ورحمة يستدعي الرضا من كل جانب حتى لا يضطرب الأمر بخروج البنت على أهلها بزواج من لا يرغبون فيه أو بإكراه البنت على زواج من لا ترغب هي فيه !

﴿ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [سورة البقرة : ٢٦٩] .

ويمكننا من هذا أن ندرك المستوى الرفيع الذي تبوأته المرأة في ظل الإسلام الحنيف وأن نتعرف منه على مسألتين : مسألة تعدد الزوجات ، ومسألة الطلاق . لندرك أن ذلك لم يكن من الشرع امتهانا للمرأة ، بل كان تكريمًا لها في أبر صور التكريم .

تعدد الزوجات :

إن الإسلام ما جاء فقط لإنقاذ خراف بني إسرائيل الضالة وإنما جاء رحمة للعالمين ، فالذين يتحدثون عن منع التعدد لا يصح أن يصدروا في الحكم عن حالهم دون سواهم مع أن الإسلام لم يفرض تعددًا وإنما أباحه .

---

(١) رواه البخاري .

فعلام إذن هذا التسلط الأعمى على دين الله ؟

وماذا يطلب من دين يعالج مشاكل العالم أجمع إلا أن ينظر إلى حالهم جميعًا وأن يصدر عن تقدير لأجوالهم جميعًا .

هل يعالج المسألة من خلال نظرته لظروف قوم دون قوم ، أو من تقدير مصلحة دون مصلحة . وهو دين الإنسانية جميعًا ؟

إنه لو كان دين فئة لكان من صالح هذه الفئة – وهي تقدر أمرها أن تدرك أنه ليس من مصلحتها في شيء هذا التحديد ، وإن من رعاية أمرها وجود الإباحة لتقوم بجانب الضرورة وعلاج المصلحة .

فما بالك وهذا دين الإنسانية كلها .

هل يمنع التعدد ويبيح المعاشرة ؟

هل يتغاضى عن هذا الطوفان الغامر من الفتيات اللاتي يطلبن زوجًا وينشدن عفة ؟

أيهما في منطق الإنسانية أكمل أن تكون المرأة زوجًا مع أخرى أو تحيا بلا زواج فتتعرض لمساوىء الكبت أو رجس الفاحشة ؟

وإذا قيل : تحيا مع زوج لا تشاركها فيه أخرى . فمن أين لنا بعدد من الرجال يتساوى مع العدد المتزايد للنساء ؟

إن الرجل في كثير من الأحيان – نظرًا لما يقتضيه الزواج من تبعات – لا يتزوج إلا في الثلاثين من عمره .

والفتاة كما تعلم صالحة للزواج من سن السادسة عشرة وما قبلها في النضج الجنسي المبكر ، فإذا عددنا أن سن الزواج في المتوسط بالنسبة لها عشرون عامًا . فماذا تترك السنوات العشر – وهي الفرق بينها وبين الرجل في معظم الأحيان في الكثرة العددية للفتيات أو تجاوز السن عندهن ؟

فإذا نظرنا إلى المسألة نظرة عامة ألفينا أن النسبة العددية في ذاتها عند النساء ، أكثر منها عند الرجال ، فضلا عما يتعرض له الرجال من خطر دائم يقلل

من عدد الرجال مما يزيد نسبة العدد في النساء .

ماذا يفعل دين إنساني عام إزاء مشاكل الزمن المتجدد ؟

هل يحرم التعدد ويبيح الفحشاء ؟

وهل أفلح هؤلاء الذين منعوا التعدد في أن يمنعوا تعدد العشيقات ؟

ثم ماذا نفعل في الظروف الخاصة لبعض الناس ؟

رجل وامرأة كلاهما أخلص للآخر وأحبه .

أصيبت المرأة بمرض حال بينها وبين صلاحيتها كزوجة يصان بها عفاف الرجل وتتم حصانته . هل نقول : أبقها وعربد أم نقول : طلقها وتزوج غيرها – وقد تكون فقدت كل عائل لها دونه – وفي هذا من الجفاء والتنكر للعشرة ما فيه ، أو نقول : أرض بها على حالها واستقم ؟

إن كان الأول : لقد أبحنا تعدد الفسوق مع إنكارنا لتعدد الاستقامة والطهر .

وإن كان الثاني : فقد جافينا فضيلة الوفاء والتكافل .

وإن كان الثالث : فقد طالبناه بما قد يتعذر عليه وحملناه فوق طاقته .

الآن فالحل الوحيد : إباحة زواج يستقيم به سلوك الرجل وتعصم به أنثى من بنات حواء ، وتبقى مع الزوجة الأولى في عصمة رجل وكفالته .

فمعنى عدم الإباحة هنا أحد أمرين :

إتاحة الفحشاء للرجل ، أي تعدد أثيم ، أو تعريض الرجل والمرأة كليهما لحياة ليس فيها أمن الراحة أو راحة الضمير .

وقس على ذلك حالات كثيرة تعرض للناس وتتطلب علاجًا .

فإذا جاء الإسلام : وهو كما قلنا دين الكون كله مع اختلاف زمانه ومكانه – فأباح التعدد وفاء لمصلحة الناس وتقديرًا لشئونهم ورعاية لضروراتهم فما معنى التطاول على دين الله باسم المدنية والحضارة والتحرر ؟

وما أكثر ما تساق القضية في مجال الحرص على كرامة المرأة وحريتها !

وما أكثر ما تخدع المرأة بهذا البريق الزائف والحرص الدعي !

إن أرادت أن تقلد أختها في بلاد الغرب فلتدرس حالة المرأة هناك ، لترى : هل من الوفاء لعفتها وشرفها أن تكون كتلك متاعا مباحا وملهاة لكل عابث ؟

هل ترضى أن تكون زوجًا لرجل يعاشر معها عشرًا أو ما شاء بلا عد أو حصر ؟

هل ترضى أن تحيا في بيت خائن أو أن تكون هي زوجًا خئونًا ؟

إن قداسة الأسرة وطهارتها تعني كرامة المرأة وشرفها أولا .

وهذا الحمق في تقدير الأمور لا يمكن إلا أن يؤدي إلى بوار يصلى معه المجتمع نار الفسوق والفجور مع أن المسألة في نظري محدودة تلقائيًا مع قيام الإباحة .

فمَن مِنَ الناس يقبل على التعدد وهو في ظروف لا تدعوه أو تمكنه من الوفاء بضروراته ؟

ولو فرضنا أن بعض الناس اتجه إلى التعدد دون تقدير فلِمَ تقبل المرأة ؟

إن أية أسرة تقبل أن تزوج فتاتها أو أي فتاة تقبل أن تكون زوجًا مع أخرى لابد أنها ترى مصلحتها في ذلك ؟

ولا يمكن لأي رجل أن يجبر امرأة على أن تكون معه شريكة لامرأة أخرى .

إنها لا تقبل إلا وهي تدرك أن لها مصلحة في ذلك ، ومن أبين وجوه المصلحة أنها تفضل أن تكون شريكة في زوج إذ ذلك خير لها من أن تعيش بلا زوج أو تحيا في ظل الريبة والتعرض للإثم !

وإذن فالتحديد قائم بطبعه في سلوك الناس وأحوالهم ، ولا يحتاج من الببغاوات أن يرددن بلا وعي أو تقدير لكرامتهن ما تدين به أمم صائرة حتمًا إلى إباحة التعدد ، إذ هي تبحث لنفسها عن علاج للمشاكل التي نتجت عن تضخم عدد النساء وإشاعة الفحشاء وهي آخذة لا محالة بعد تجارب عدة بشريعة الإسلام في إباحة التعدد بعد أن اصطلت بنار الفسق ومنافاة الفطرة ومجافاة الواقع !

ومع كل ما يثار في الأمر من ضجيج يقوم به حملة التقليد الأعمى في بلاد الشرق لنا أن نتساءل :

أين التعدد حتى نسميه مشكلة تستوجب الحل ؟

اطلبوا الاحصاء لتدركوا أن عندنا أزمة زواج لا مشكلة تعدد ، أزمة إحجام عن الزواج لا أزمة إقبال عليه !

وحالة التعدد عندنا من الضآلة بحيث لا تذكر أبدًا بجانب البوار أو طالبات الزواج ، فابحثوا عن حل تحتمون به ، على القادرين من الرجال أن يتزوجوا أكثر من واحدة ، وتهيئون الفرصة للمحجمين عن الزواج أن يتزوجوا لتصونوا بذلك فتيات اليوم وأمهات المستقبل !

ثم اغلقوا على المرأة باب التقليد الأعمى وطالبوها بشخصية مستقلة تتوافر فيها قداسة الأم وطهرها وجهادها .

إن نورها في سماء الشرق وفجرها في أفقه وعفتها في محرابه وكرامتها في دينه وحريتها الصادقة في تعاليمه .

فلتصن نفسها بمواريث أمتنا ولتحيا معتدة بتاريخها وشرفها وشخصيتها المستقلة .

نحن ننكر باسم الإسلام على أمهاتنا وبناتنا أن يعشن في ظل التقليد لعادات الغير وأعماله .

إن قيل : أن المرأة في فرنسا تلبس فوق الركبة رأينا المرأة هنا تبالغ في تشمير الثوب حتى لتكاد تعري من كل ثوب !

وإن قيل : أن المرأة في فرنسا قررت أن الجمال يحتم كذا وكذا فعلت المرأة عندنا هذا « الكذا » دون وعي أو تقدير !

إننا لنخشى من حماقة هذا التقليد والإسراف فيه أن يقال : إن « الموديل » هناك هو لبس الحذاء على الرأس ! فتسرع المرأة عندنا إلى وضع حذائها على رأسها وهي تعد نفسها تقدمية عصرية !

إننا نربأ بأمهاتنا وبناتنا أن يعشن كذلك ، وننكر عليهن أن يطالبن – وهن في ظلام التقليد وحماقة الإسراف فيه – بتعديل قوانين الأحوال الشخصية .

صحيح أن الأحوال الشخصية في حاجة إلى تعديل وتقويم ، ولكن ليست الأحوال التي شرعها الله ، بل الأحوال التي انحرفت إليها فتاة التاريخ الشريف .

إن الأحوال الشخصية في حاجة إلى تعديل وتصحيح ولكن ليست حالة الزواج والطلاق كما شرع الله ، بل حالة الزواج والطلاق التي انحرف بها الإنسان .

الأحوال الشخصية في حاجة إلى نظر ، وهي حالة السلوك ، السلوك للمرأة من أوله إلى آخره ، وتحديد السبيل الأقوم لها والأنسب لشرفها وأمومتها .

فلننظر إلى حال المرأة ولنتأمل ما أحكمته السماء لطهارة الأرض ما صاغته لصيانتها وعفتها وكرامتها .

الأحوال الشخصية تحتاج إلى بحث وعلى الذين يضنون أنفسهم ويذهبون في تملق المرأة إلى غير حد أن يبحثوا في سلوك المرأة وأخلاقها قبل أن يسألوا عن دين الله وحكمه .

أما التطاول على دين الله باسم المدنية والتطور فما هو إلا نقيق الضفادع على شواطيء البحر الطهور والبحر يلقي بالزبد ويضم الجوهر النقي ويمد بالخير والنفع ! ولابد للضفادع بعد لأي أن تأوى منهكة إلى الجحور !

كم من الحماقات ترتكب باسم حرية المرأة ؟

وكم من فحور يقع باسم الغيرة عليها والمحافظة على حريتها ؟

ووالله ما عرفت المرأة نعمة الحرية الصادقة والكرامة البارة بل ما عرفت معنى لإنسانيتها إلا يوم أن أشرقت على الدنيا شمس الإسلام !

فلأول مرة في تاريخ الإنسانية يتردد في أرجاء الكون وحي كريم يتلوه محمد ﷺ على سمع الزمان وتتكفل السماء بحفظه وبقائه يضع المرأة في المكانة الإنسانية الفاضلة التي تتيح لها من الحرية والكرامة والحقوق ما تظفر معه بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة .

أليست المرأة أمًّا ؟

فماذا يقول القرآن عن الأمومة الممثلة في (الوالدين) ؟

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

[سورة الإسراء : ٢٣ ، ٢٤] .

وماذا يقول الرسول عنها :

سأله سائل من أحق الناس بحسن صحابتي ؟

« قال : أمك . قال : ثم مَنْ ؟ قال : أمك . قال : ثم مَنْ ؟ قال : أمك . قال : ثم مَنْ ؟ قال : أبوك » !

إن من المهانة لشخصٍ ما أن تحرمه نتيجة عمله أو تعفيه من المسئولية التي هي عنوان إنسانيته . فماذا فعل القرآن في هذا الشأن بالنسبة للمرأة ؟

سوّى بينها وبين الرجل بحيث تقرأ في كتاب الله : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾

[سورة آل عمران : ١٩٥] .

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [سورة النساء : ١٢٣ ، ١٢٤] .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩٧] .

ثم نقرأ عن بيعة الطهر في سورة الممتحنة (بيعة النساء) قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الممتحنة : ١٢] .

فهل يمكن أن يكون هذا الاهتمام الفذ من جانب القرآن لكم مهمل أو لإنسان مهدوم الكرامة مسلوب الحرية ؟

اللهم إن القرآن ينشدها حرية الطهر والعمل الصالح والشرف المصون لا حرية الانطلاق البهيمي والشرف الجريح .

ينشدها حرية الإنسان في أكرم معاني الإنسانية لا حرية الحيوان في أحط غرائز الحيوانية .

وإذا كان الإسلام قد أعطى المرأة حق القبول أو الرفض في الزواج فلمصلحة مَن يلغي حكم التعدد ؟ وهل قيامه ينال من كرامتها أو حريتها إذا كان الإسلام قد جعل لها حق القبول أو الرفض مع أن هناك ضرورات ملحة لا علاج لها إلا بهذا الشرع الإلهي الحكيم ؟

إن المسألة تحتاج أولا إلى التربية الصادقة والأخلاق الكريمة التي يتوافر معها أمن الناس ويستقيم سلوكهم أما إذا فسدت الأخلاق فاستغل الناس أحكام الله فليس النقص في الحكم ذاته وإنما النقص في انحراف الأخلاق !

وانحراف الأخلاق لا تصلح معه عدالة حكم أو نزاهة تقدير ، فالأخلاق المنحرفة كثيرًا ما تتحايل على الأحكام وتستتر وراء القانون .

وهل يجدي في الأمر شيئًا أن تحسم الأمر بالتحريم ؟

فكم من أمور محرمة يغشاها الناس ويرتكبونها ، ولم يمنعهم صدور الحكم بتحريمها أن يبيحوها لأنفسهم !

فالمدار في الحقيقة ليس على الحل أو التحريم إنما المدار على الأخلاق التي تجعل من النفس ميزانًا صادقًا في تقبل الطيب ورد الخبيث !

المدار على الأخلاق التي تجعل الإنسان يزن الأمور بميزان العدل ويتأملها بعين الصدق ويتقبل ما يتقبل من المباح في حدود : « الكرامة والمصلحة والاعتدال » .

والإسلام حين أباح التعدد إنما قصد صون المرأة وصيانة الرجل .

وليس تحريم التعدد مع قيام دوافعه وضرورته إلا حله في صورة منكرة وفاحشة مستترة .

وليس من الكرامة في شيء أن تغلق أبواب الحل وأن توصد نوافذ الطهر ، والإسلام ينشد المرأة لتكون أم التاريخ وصانعة المجد وربة الطهر ومدرسة الخلق ، ومن قبله كانت كما مهملا ومتاعا مضيعًا ورجسا من عمل الشيطان !

من قبل كانت تحرق عند قوم إن مات زوجها !

وتوءد عند الآخرين في مهدها !

وتورث عندهم كالمتاع إن مات بعلها !

وعند البعض كانت تباع كما يباع الحيوان وتشترى كما يشترى !

أين الكرامة لإنسان شأنه هكذا ؟ وقضية إنسان هذه كانت موضع نزاع ، وكم عقدت مؤتمرات تساءل المجتمعون فيها : هل المرأة إنسان أو لا ؟

أما الإسلام فعليك أن تراجع ما تلونا عليك من آيات ، وأن تدرك أنه جعلها والرجل أخوين ، ومنحها من الحرية ما جعلها مسئولة عن عملها وضرب مثلين في سورة « التحريم » لامرأتي نوح ولوط :

﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [سورة التحريم : ١٠] .

وامرأة فرعون كانت زوجًا لظالم كفور فذهبت بإيمانها بارة كريمة صادقة .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [سورة التحريم : ١١ ، ١٢] .

فعلى المرأة أن تدرك أن مكانتها الصادقة ومجدها المتألق وحريتها المصونة وكرامتها الحق فيما جاء به كتاب الله الكريم ، وأن تعلم أن الحريات التي تتغنى بها المدنيات

اليوم رجوع بها إلى العبودية في ثوب براق ، وأن الرجل في ظل هذه المدنية يريد أن يجعل منها مسلاة لمجلسه وترفيها في عمله مباحا له في حله وترحاله !

يريد أن يستأجرها للبار ليربح من ورائها المال الوافر !

يريد أن يضعها في فترينة العرض وموطن البيع والشراء ليجعل منها شيئًا تلصق عليه الإعلانات !

يريدها في المكتب وفي الشارع ، يريدها لنفسه ولا ينشدها لإنسانيتها أو إنسانيته !

تريدها المدنية الحديثة ربيبة كأس ، ومخمورة ليل ، ومسفوكة عرض !

تريدها لمآرب الرجل وهي تقيم الساحات الواسعة لعرضها ملكة جمال السيقان والعيون ، أو الملابس !

وتقام الشركات الضخمة شركات التأمين على عيون الكواكب وسيقان الملكات !

ثم ماذا ؟

ثم أعادوها مزركشة بمحاسن الزينة والثياب إلى قفص العبودية ، بقيود الهوى لا بقيد الحديد !

وبين لحن النغم ونشوة الإعجاب دخلوا بها إلى حانة الخنى .

ومن أضوائهم في حاناتهم الأحمر يعلن عن ذبيح .

وتخرج المسكينة من بين يدي جزار آثم فتجد صحافة العصر تمسك بزجاجات العطر تسكب عليها من المدح والثناء والإعجاب ما تغرى به كل مصونة من ذوات الخدور !

أرأيت كيف تتقلب المرأة في العبودية وتعيش في القيود ؟

أرأيت كيف استذلت فهي من حريتها في قيد ومن الهوى في ضلال بعيد ؟

قالوا لها : وعلام الحجاب وأنت وهو سواء ؟ فرفعته وعاشت في دنيا الناس بلا حجاب ، وسبقته فانسلخت من ثياب .

أنت كالرجل فهيا إلى الحلاق !

فذهبت فلم يجد لها لحية ولا شاربا ، فخرجت من عنده مدهونة مصقولة متعطرة [١] متبرجة تعتدي على عفة الشباب .

فيا أخت الشرق غشك من خدعك وصانك من قدم النصح لك .

على تربتك الطاهرة تدرج موسى وعيسى ومحمد .

وبين أرجائها تلقى الأنبياء جميعًا أمانة الله الغالية .

حصني نفسك بهدي السماء ووحي الأنبياء .

إن الرجال الذين أنجبتهم أمهات الشرق بالأمس هم غرة جبين الدهر ، ووسام الشرف في التاريخ الإنساني .

فكوني أم اليوم كأم الأمس حفيدة شرف وسليلة مجد !

الدنيا اليوم في حاجة ملحة لأن تنعم بأمن الشرق وإيمانه وأن تسعد بنوره ويقينه ، فمن غيرك وأنت المدرسة الأولى للأخلاق يعد طفولة اليوم لساحة الغد ؟

من غيرك يتعهد النبت وأنت تربته ؟

من غيرك يرعى النشء وأنت قبلته ؟

آمال الأمة وأمانتها بين يديك ، بل وديعة الله تحملينها كرها بين جنبيك فكوني كما يحب الله لك .

كوني أم الشرق في طهرها الأصيل وعفتها المصونة ، لترى الدنيا من أبنائك ما رأت بالأمس من يصون أمانة الحق ويحفظ قداسة العدل ويرفع لواء الرحمة .

أنت قوام الأسرة وبك ومنك تمتد .

والأسرة هي المجتمع الصغير وهو لا يصان إلا منك ولا يسعد إلا بك .

---

(١) من كلام المرحوم مصطفى صادق الرافعي : « لو كنت قاضيا ورفع إليّ شاب تجرأ على امرأة فمسها أو احتك بها أو طاردها وتحقق عندي أن المرأة كانت مدهونة مصقولة متعطرة لعاقبت هذه المرأة عقوبتين : إحداهما بأنها اعتدت على عفة الشاب والأخرى بأنها خرقاء كشفت اللحم للهر » !

أنت راعية ومسئولة عن رعيتك !

يا أخت الشرق من سمائك أشرقت شمس المعرفة ، فحذار أن يغشاك ظلام التقليد وأن تشملك ظلماته !

تسلحي بالمعرفة الصادقة والأخلاق الكريمة واليقين المستنير ، وثقي أن الإسلام لا يرضاك في حرية مضيعة أو مساواة مكذوبة ، وإنما ينشد لك حرية الأحرار ومساواة الفطرة المستقيمة ، فانعمي بعطاء الخالق واحذري عبث المخلوق !

قالوا لك : والطلاق أيضًا : ما للإسلام يبيحه إذا كان حريصًا على الأسرة عاملًا لصيانتها وحفظها ؟

نقول : إن الإسلام شرعه لضرورته وجعله أبغض الحلال إلى الله .

والإسلام قد عمد إلى جميع الوسائل التي تجمع الشمل وتصون الألفة وتحفظ العشرة وتحقق المودة والرحمة .

عمد إلى غرس الآداب والفضائل في نفس الفرد .

زود الزوج بنصائحه : « استوصوا بالنساء خيرا » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يفرك مؤمن مؤمنة – يعني لا يبغضها – إن كره منها خلقا رضي منها غيره » .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقا » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كنت آمر أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » .

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » .

جعل ذلك الرباط بين الزوجين مقدسا يقوم على المودة والرحمة والحب والألفة ومع حرص الإسلام الكامل على قيام الألفة وتحقيق المودة والرحمة . فإن دب خلاف

أو خيف شقاق ندب إليه : ﴿ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ [سورة النساء : ٣٥] وهما أحرص الناس على المحافظة والستر والله يوفق السعي ويسدد الخطى .

وهكذا لا يدع الإسلام سبيلا لتحقيق الوفاء وقيام العشرة البارة إلا سلكه ، حتى في حالة الطلاق فعلا ، لم يجعله طلاقا واحدا تنفصم معه العشرة في الحال وكفى ، بل جعله على مراحل يمكن معها أن يراجع الإنسان نفسه : ﴿ لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [سورة الطلاق : ١] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [سورة الطلاق : ١] .

فلا تطلق المرأة في حيض ، كما لا تطلق في طهر جامعها فيه .

وما جرى لعبد الله بن عمر رضي الله عنه حين طلق زوجته وهي حائض يفسر الأمر ويبينه :

فقد ذكر عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ ما وقع من ابنه فتغيظ الرسول وقال : ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ، وتحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها فتلك هي العدة التي أمر الله عز وجل بها في قوله : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [سورة الطلاق : ١] . وقد أفتى ابن عمر بأن طلاق المرأة في حيض لا يعتد به .

والطلاق بعد هذا يأتي مفردا على مراحل : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٩] .

واستمع إلى ابن عباس وهو يقول : « إذا طلق الرجل زوجته تطليقتين فليتق الله في الثالثة ، فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحبتها أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئا » .

من هذا تدرك مدى التوسعة التي قدمها الإسلام في هذا المجال لتعاود النفس

أخطاءها وتثوب إلى رشدها : ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [سورة الطلاق : ١] .

ثم بعد ذلك كله وبعد تقديم النصح والإرشاد وبذل كل ما يمكن لإصلاح ذات البين وتحقيق حياة هانئة . هل من المصلحة في شيء وقد عجزت جميع الوسائل وأصبحت الحياة بين الزوجين جحيما لا يطاق ، أن نفرض عليهما البقاء وأن نحتم عليهما العشرة ؟

اللهم إن هذا منافاة لمنطق الفطرة وسعادة الإنسان !

ثم من يقدّر راحة الإنسان أو تعبه ، حبه أو بغضه ؟

هل يقدر ذلك قاض يجلس على منصة القضاء حتى يُجعَل أمر الطلاق له ؟ اللهم إن هذا مناف لحرية الإنسان وكرامة الإنسان ، وتحكّم فيما لا يملكه الإنسان من نفسه حتى يملكّه له غيره !

هل تملك أنت أن تحب فلانا أو تبغض فلانا ؟

إنك لا تملك إلا أن تعدل في إعطاء الحقوق ولا يطالبك الله بغير ذلك ، لكنك لا تملك أن تحب إنسانا فتعاشره ، أو تبغض آخر فتجتنبه ، وهذا قول رسول الله ﷺ : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك » .

وما لا يملكه هو « الحب والبغض » وتفاوت درجاتهما .

والحياة الزوجية لا يمكن تقدير ما فيها لإنسان خارج عن حدود الرجل والمرأة ، لذا جعل أمر تقدير العلاقة لهما دون غيرهما .

أما القاضي ، فيختصم إليه في أمور يمكن أن تكون موضعا لتقديره كالخلاف على أداء الحقوق وما يترتب على ذلك من مشاحنات أو منازعات ، أما أن يكون أمر الطلاق مقيدا برأي القاضي في كل شيء فهناك حالات لا يمكن القاضي تقديرها ، ولا يملك أمر البت فيها : كأمر الحب والبغض ، الذي لا يترتب عليهما ظلم أو جور !

أما إذا ترتب عليهما شيء من ذلك فهنا يمكن التدخل ويمكن الاحتكام ، وهذا أمر طبيعي أقرته الشريعة وقضى به حكم الله .

وأعود فأقول : « الأخلاق » ميزان أمين وطريق مأمون للوفاء بالحقوق وأداء الواجبات وصيانة العدل بين الناس مع قيام الضوابط وتحديد المسئوليات ، وبدونها لا يمكن أن يحسم أي منكر مع « قيام التحليل والتحريم » فكثير من الشرائع الصالحة إلتوت بها أفئدة المفسدين !

وكثير من مواد الطهر والعفاف عبثت بها أيدي الشياطين .

وبالأخلاق يمكن استكمال ما يكون في التشريع من خلل وبضياعها يضيع ما في التشريع من كمال !

ومع هذا فإن الإسلام جاء كاملا وافيا بكل شئون الحياة ، ولم يدع خيرا للإنسانية إلا أقره ، أو باطلا إلا أبطله ، ومبادؤه كلها ذات فاعلية خارقة في نماء الفضائل وحماية الأخلاق ، فلم يكن هذا الدين الخالد ليرسم للناس سبيل السلوك فقط ، أو يبين طريق الحلال والحرام فحسب . ولكنه – بحمد الله – تناول الإنسان كتربة للوحي الإلهي ، تشمله الرعاية والوقاية والإمداد والحفظ ، وجعل كل خير يفيض به نابعا من ذاته لتأخذ الأخلاق طابع الثبوت والأصالة ، لا ثوب النفاق والمنفعة المتغيرة !

إن دين الله حياة كاملة وحقيقة لا تقبل التجزئة فأخذ البعض كترك الكل يجر إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة :

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٨٥] .

ولذا فإن طلب العلاج في جزئيات لم يكتمل عمل الإسلام فيها أمر ينفر منه الإسلام نفسه .

سألني سائل يوما :

ما رأي الإسلام فيمن يشتغل خادما في خمارة وهو مسلم ؟

وأنا أعلم أن الخمر وتناولها وبيعها وشراءها والعمل فيها حرام .

فتوقفت قليلا أفكر في جواب الإسلام الحقيقي :

ليست المسألة مسألة حرام أو حلال في هذا الشأن بقدر ما هي بحث عن العوامل التي أدت إلى أن يقوم هذا بالعمل في الخمارة !

وإصدار الحكم عليه وحده بتحريم عيشته أمر يتنافى مع نزاهة الحكم والتقدير ، فإذا نحن قلنا له : دع هذا العمل فإنه حرام فمن واجبنا أن نقول له وهذا عمل آخر نظيف يقوم مقامه !

يَسّر أسباب الحلال وامنع أسباب الحرام ، ثم احكم على الناس بحل عملهم أو حرمته وهم في حرية تامة دون إكراه من الضرورة أو تحكّم من الحاجة !

لماذا أوقف عمر قطع اليد في عام المجاعة مع أن السرقة وحدّها معروف ؟

وماذا قال للسيد الذي شكا إليه عبده بسرقة ؟

بحث الأمر مع العبد فلما اقتنع أن سرقة الخادم عن حاجة قال للسيد : لو جاءني العبد سارقا لقطعت يدك أنت !

والإسلام وهو يعالج مشاكل الناس لا يرضى بوضع أحكام « بلهاء » دون تقدير للأسباب ورعاية للضرورات ، بل يضع علاجا لكل داء لتصح النفس ، ويستقيم السعي ، وترتفع الضرورة ، ويكون هناك موضع لتنفيذ الأحكام .

وما أخال أمر الطلاق أو تعدد الزواج وجعلهما مشكلة تتفوه بها ألسنة القصيري النظر ويتطاول من أجلها — على دين الله — منحرفوا الفكر والسلوك .

ما أخالها إلا وليدة عوامل متعددة تتصل بالأخلاق تارة وبالأوضاع الاجتماعية تارة أخرى ، ولا تمت بأدنى صلة إلى التشريع في ذاته !

ومجمل الأمر في شأن الأسرة أن الإسلام يوليها عنايته ، ولا يقبل أي ترخص في رعايتها والحفاظ عليها ، كما أنه يضع من التشريعات التي تنظم شئونها المختلفة ، ويقدم من التوجيهات ما يصون ألفتها ويحقق تعاونها ، ويشرع من الفرائض والعبادات مايصحح به لبناتها ويعصم أخلاقها حتى تتوافر القدوة وينشأ الناشيء في جو من الطهر والسلوك الطيب ، فيجد عونه على النشأة الصالحة كما يجد أسباب طهره واستقامته !

وللأسرة كما للمجتمع كله هدف وغاية :

وليست غاية الأسرة أو المجتمع بمعزل عن غاية الأفراد أو منفصلة عنها .

وهذه الغاية هي التي تتيح لأفراد المجتمع تماسكا يبدو معه المجتمع وكأنه جسد واحد يعمل بروح واحدة ويحس بإحساس واحد : « مَثَلُ المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » .

وفي هذا الحديث بيان للغاية التي وحدت النفوس هكذا تجدها في قول الرسول « مَثَلُ المؤمنين » فالإيمان هنا غاية ووسيلة معا : غاية مقصودة لذاتها ، وهو في الوقت نفسه وسيلة تجميع وربط وأخوة وتعاون ووحدة وتماسك وبر وتكافل .

وأنت تسمع كلمتين من كتاب الله في هذا الباب تشعر معهما أن هذه الغاية تفي بالأخوة التي تجعل التكافل أمرا ساريا في الشئون كلها بدافع الحب والإيمان « إنما المؤمنون أخوة » .

الغاية « الإيمان بالله » أصدق وسيلة لتحقيق الأخوة البارة التي ظهر أثرها واضحا في التكافل الفريد الذي تم بين الأنصار والمهاجرين ، والذي أثنى الله عليه بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [سورة الحشر : ٩] .

فباسم الإيمان بالله يتجه الفرد والمجتمع جميعا في وحدة متراصة وكيان متماسك تسري فيه روح واحدة تعمل عملها في الجسد الواحد الذي يتأثر لأي شيء يصيبه في أي جزء من أجزائه .

والروح في الجسد سر حياته وتماسكه وسبب سمعه وبصره وإحساسه وإدراكه ، وكذلك الإيمان في حياة الناس وأحوال المجتمع هو سر الحياة والتماسك ، وسبب اليقظة والإدراك والأخوة الصادقة والتعاون البار . وصدق الله العظيم :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [سورة الشورى : ٥٢] .

والموحى به كله مرجعه إلى الإيمان بالله : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ ﴾ [سورة الشورى : ٥٢] .

هذه الغاية التي هي غاية الفرد والمجتمع جميعا هي التي أسند إليها الحق جل وعلا كل الصفات التي تصون الفرد والمجتمع جميعا :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ١ - ٧] .

﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ١٥] .

﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُولَئِكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

[سورة الأنفال : ٢ - ٤] .

وباسم هذه الغاية طالب الإسلام بتحقيق الفضائل الإنسانية التي تعصم سلوك الناس وتحقق البر بينهم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [سورة الأنفال : ٢٤] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة التوبة : ١١٩] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمَا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٦٧] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٧٠] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ ﴾ [سورة المائدة : ١] .

وباسم هذه الغاية نهى عن كل ما من شأنه أن يحول دون كرامة الفرد وترابط الجماعة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

[سورة الحجرات : ١ ، ٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [سورة الحجرات : ٦] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾

[سورة الحجرات : ١١ ، ١٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ [سورة المنافقون : ٩] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأنفال : ٢٧] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

[سورة البقرة : ٢٧٨] .

بل جعل ما يصيب الناس من خير ناشئا عنها وواقعا بها :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [سورة الأعراف : ٩٦] .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقُوا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [سورة المائدة : ٦٥] .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ٢] .

وما يصيبهم من شر ناشيء عن تخلفها والبعد عنها :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١] .

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ ﴾ [سورة إبراهيم : ١٨] .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ ۝ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [سورة النور : ٣٩ ، ٤٠] .

هذه الغاية هي التي يتم بها قيام أسرة قوية راشدة ويتحقق معها وجود مجتمع إنساني فاضل ، وباسمها تصدر القوانين المنظمة ، ترسم الحدود الضابطة التي تقوم على الحق والعدل وتفي بالرحمة والبر .

وبعد هذه المقدمة التي جعلناها وسطا بين الأسرة والتكافل الاجتماعي أود أن أمضي في الحديث عن التكافل الاجتماعي ، لمعرفة أصوله ومنهجه ودوافعه ونتائجه ، ونحن بهذا لم نبرح الحديث عن الأسرة ولم نجاوزه إلى غيره ، وإنما تمتد معه الأسرة في

تكافل عام يصونها ويربطها ويجعل من المجتمع وحدة متشابكة يسري التعاون فيها سريان الكهرباء ويجمع وحداتها على أصالة العقيدة وطهر الإيمان

وأود أن يعلم القارىء أننا لا نستطيع في هذا المجال أن نحيط بالأمر من كل جوانبه ، ولذا فإننا سنقصر الحديث على ما يتلاءم مع موضوعنا العام ، لندرك أن التكافل في الإسلام أصيل في إنسانيته ، عام في فطرته ، بل في تطبيقه ، عميق في دوافعه ، فطري في نزعته .

والتكافل في الإسلام لا يقف عند حدود الأمور المادية أو وسائل المعيشة فحسب بل يتعداها إلى المعرفة بأسبابها المختلفة والبر بمعناه الواسع العميق ، فهو يطلب التكافل لصيانة الحق ورعاية الفضيلة يطلبه محققا لأسباب العلم والمعرفة كما ينشده لإشاعة الأمن وتوفير الطمأنينة ، يطلبه بارا بدنيا الناس حفيا بآخرتهم .

وهو لهذا يقوم على دعائم ثابتة وأسس مكينة من التقدير لمعنى الإنسانية ورعاية الإنسان من كل جوانبه ، يستمد زخره من معين ، لا ينضب ، ويأخذ طابعه من طبيعة الإيمان بالله والثقة فيه .

ألست تسمع من فم الرسول الكريم ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وهل حب الإنسان لنفسه يخص جانبا من أمور الحياة دون جانب ، أم أنه يحب لها كل ما يوفر أسباب الرفعة والتكريم من أمور مادية ومعنوية ؟

كما تسمع قوله : « مَثَلُ المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

قد يشتكي الإنسان من جور يصيبه ، فمن واجب التكافل أن يرفع الظلم ويحقق العدل .

وقد يشتكي من هَمٍّ يلم به ، فمن واجب الصحب أن يخففوا ألمه وأن يفرّجوا غمه .

قد يشتكي من جوع ومسغبة ، فمن واجب التكافل ألا يترك مكانا للجوع أو موضعا للمسغبة .

قد يشتكي من حائل يحول بينه وبين أسباب العلم والمعرفة ، فمن واجب التكافل أن يهيئ أسباب العلم وأن يؤمن طريق المعرفة .

وهكذا ترى التكافل يأخذ بجوانب النفس الإنسانية كلها ، ويحيط بشئون الإنسان إحاطة شاملة ولا يخص الجانب المادي وحده .

ألست ترى أن شكوى الفكر من الإجهاد يعود على الجسد كله ألما وتعبا ، كما أن خلو المعدة من الطعام يؤثر في الإنسان كله من بنيان جسده إلى وثبات فكره واعتدال نفسه .

وإذا كان الإنسان يتأثر لأي شيء يصيبه سواء في أسباب معيشته أو في مجال إنسانيته فإن التكافل الذي ينشده الإسلام لبني الإنسان لا يخص جانبا من الحياة دون جانب بل يعم جميع النشاط البشري في مجالاته المختلفة وضروراته المتنوعة ، فيجعل من الجنس البشري وحدة متشابكة مؤتلفة كطبيعة الجسد الواحد الذي يتأثر بماديات الحياة ومعنوياتها ، وتقوم فيه دورة دموية واحدة وتمسكه شبكة أعصاب متماسكة .

وترى من أمر هذا الجسد إذا أصيب أي جزء فيه أو جرح أي عضو منه ، الاستجابة السريعة والإغاثة بسرعة خاطفة .

ترى الإمدادات وترى النجدات تحوط الجرح بالمواساة وتقف ساهرة تدرأ الخطر ، حتى يندمل الجرح ويعود معافى صحيحا كما كان .

إن روح الحياة سارية في « التكافل الإسلامي » ، فهو ليس درهما أعمى خاليا من العاطفة الرقيقة المهذبة .

وليس دينارا يرتدي ثوب الخيلاء يمشي في ركاب المن والأذى بل هو حياة الفطرة السمحة أو فطرة الحياة في نمائها وعطائها وسماحتها ، الكل يجمعه روح التعاون والبر وتربطه روح التكافل والعمل للخير ، قد تعلو مكانة الفرد المادية والأدبية ولكن نفعه يزداد وتعاونه يمتد فلا ينطوي على نفسه ويحيا بأنانيته وأثرته ، بل يحيا منفعلا متفاعلا بالمجتمع الإنساني وكأنه مسئول عنه وحده .

وهو يتلقى درسه العملي على صفحة الكون ويأخذ هديه من أمانة الوحي !

يرى في الكون القائم أمامه تعاونا وتكافلا .

يرى الشمس – وإن علت في مكانتها ومكانها أمام العيون – تلتقي مع أبسط المخلوقات تمده بما لديها من خير وتشمله بالضوء والنور !

والكون والوحي صفحتان يحيا الإنسان بينهما فينعم باليقين الخاشع والموعظة المبصرة والسلوك الراشد والخير العميم .

إن التكافل الذي أقامه الإسلام على أساس المعرفة لله والتقرب إليه لا يمكن أن تقوم معه في المجتمع الإنساني فئة ظالمة وأخرى مظلومة .

فئة مستغِلة وأخرى مستغَلة .

كما لا يمكن أن يقع التنابذ بين أبناء المجتمع ، فيتمنى كل فريق زوال الآخر ، بل تربط الجميع آصرة الحب الآمن والألفة المؤمنة :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

فكيف يتمنى زواله أو يقبل استغلاله ، وهو يعلم أن إيمانه في حبه وبره لأخيه ؟ فمرتبة الإيمان تأبى عليه إلا أن يكون تقديره لأمر غيره كتقديره لنفسه . وحبه لسعادة أخيه كحبه لسعادته .

وينتفي الإيمان إن تسلطت الأنانية وانطلقت الأثرة .

والأنانية في حقيقتها إهلاك للنفس في صورة عدم الاهتمام بمصلحة الغير أو استغلاله لحاجته .

وضرورة الإنسان إلى الغير كضرورة الغير إليه ، فما يقدمه من خير مردود عليه !

وما أجمل وأكمل وأصدق تعبير القرآن وهو يقول : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٢] .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [سورة فصلت : ٤٦] .

وهنا تظهر المسئولية الفردية متسقة مع المسئولية الجماعية .

وكما قلت : إن كل فرد في الإسلام يشعر أنه مسئول عن راحة الجماعة وسعادتها . مسئول عن حمل أمانة الله الغالية ، وهذا قول الرسول الكريم ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته ، والولد راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته وكلكم راع ومسئول عن رعيته » !

هذه المسئولية ليست أمام الجماعة فحسب ، أو أمام القانون وكفى ، بل هي مسئولية تمتد فتحيط بالإنسان في ظاهره وباطنه في سره وعلنه لأنها أمام الله الذي لا تخفى عليه خافية :

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة المجادلة : ٧] .

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة التوبة : ١٠٥] .

وهذه المسئولية سواء أمام القانون المنظم لشئون الناس وأحوالهم والذي يقوم على تنفيذه من وكّل إليهم أمر ذلك ، أو أمام البيئة بتقديرها للقيم وتكافلها في صيانة الأخلاق ، أو أمام الله الذي تشعر النفس برقابته وخشيته والذي ترسخ في النفس عن طريق معرفته « قوة ذاتية » ، يشعر الإنسان معها بالقلق إن هَمَّ بمعصية أو إثم ، ويشعر بالرضا إن أحرز عملا طيبا أو وفق في خير : هذه القوة التي يعبر عنها دائما « بالضمير » ، تقوم في النفس مقام القاضي النزيه لكنه قاض يحيا مع النفس في خلجاتها ، ويعرف مكنون أسرارها ففيه المقدرة على منع الشر في داخل النفس قبل أن يظهر في خارجها !

هذه المسئولية التي يشعر الإنسان بها ويحاسَب عليها أمام أي من الجهات

التي أشرنا إليها – ليست إلا تكريما للإنسان وتمييزا لمكانته ، بل قل إنها عنوان سيادته وتفضيله .

وأود أن أقف قليلا عند مسئولية الإنسان أمام الله فهذه لا يعفيه منها سؤاله أمام القانون :

ذلك لأن القانون يقوم على تنفيذه أناس من البشر ومقدرة البشر لا تحيط بكل شيء ، كما لا يعفيه من الحساب بين يدي الله مسئوليته أدبيا أمام بيئته الاجتماعية .

وقيام المسئولية أمام الله هكذا على كل حال تجرد الأمر من أي ميل أو ظلم وتضعه في ميزان النزاهة والعدل .

وصدق الله العظيم : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾

[سورة الأنبياء : ٤٧] .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

[سورة الزلزلة : ٧ ، ٨] .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۝ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ١٠١ – ١٠٣] .

﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٤٧] .

وهذه المسئولية إذا استقر أمرها في النفس . جردت الأمور لمنطق العدل .

ولا يصلح أمر الناس إلا بقيامها في تقدير النفس ورسوخها في أعماق الضمير ، إذ التحايل على العباد أمر ممكن ، والإفلات من عقاب القانون شيء مستطاع ، ولكن النفس التي توقن أنها بين يدي خالق لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر لا تختفي بإثم ولا تتستر بمعصية ، ويكون ميزان التقدير حين ذاك هو التنزه عن كل ما من شأنه أن يغضب الخالق

ولو أرضى المخلوق ، والترفع عن كل ما يدين بين يدي الله وإن جر مغنما أو نفعا عاجلا !

وهذه المسئولية هي التي يعمل الإسلام دائما على قيامها بالنفس ، إذ بها وحدها يستقيم سلوك الناس في الحياة .

ومنطق العدل يتطلبها لا لينعم الناس بأمن الحياة وعدلها فحسب ، بل ليتأتى قيام الجزاء على العمل وإنصاف القضية « قضية الإنسان » . الذي تتفاوت حظوظه وتتباين جهوده ويختلف كسبه : ما بين صابر وجازع ، وشاكر وكافر ، ومعط ومحروم ، وعامل وكسول ، ومظلوم وظالم ، ومحكوم وحاكم ، وقوي وضعيف !

﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾

[سورة الأنبياء : ٤٧] .

وبعد فإن التكافل في الإسلام كما ذكرنا يحيط بجميع الشئون الإنسانية سواء منها ما يتعلق بالأمور المادية أو المعنوية ، يحقق للإنسانية بر الحياة ونعيمها ، ويحوطها بسياج متين يصون أخلاقها ويحمي ضروراتها ويوفر لها حرية الأمن وكرامة المعرفة :

تأمل أمره في ميدان العلم والموعظة والنصيحة .

تأمله في موقف الرسول الكريم وهو يخطب الناس فيثني على طوائف من المسلمين ثم يقول : « ما بال أقوام لا يفقّهون جيرانهم ولا يعلّمونهم ولا يعظونهم ، ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ؟

وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ؟

والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقّهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة » .

وبلغ الأشعريين ما قاله رسول الله ﷺ . وعلموا أنهم المعنيون بقوله ، فأتوا رسول الله فقالوا : يا رسول الله ذكرت أقواما بخير وذكرتنا بشر فما لنا ؟

فقال ﷺ : « ليعلمن قوم جيرانهم وليفقهنهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظن ويتفقهن أو لأعاجلنهم بالعقوبة في الدنيا .

فقالوا : يا رسول الله أنفطن غيرنا ؟

فأعاد قوله عليهم . وأعادوا قولهم أنفطن غيرنا ؟

فقال ذلك أيضا .

فقالوا أمهلنا سنة فأمهلهم سنة يفقهونهم ويعلمونهم ويعظونهم » .

ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٧٨ ، ٧٩] .

ألست ترى أن الرسول مع أنه يخاطب الأشعريين – وهو يعنيهم بقوله – لم يعمد إلى توجيه الخطاب لهم وتخصيصهم بالقول ، لأنها قضية عامة ممتدة والخطاب فيها للإنسانية كلها على مر الدهور والأيام ، تلك ميزة التكافل في هذا الدين لا يخص فئة دون فئة ولا يتوجه إلى قبيل دون قبيل .

ومن مميزات هذا الدين أيضا أنه لا يستخف بالعمل الطيب مهما كانت قيمته بل يحرض عليه فيجعل في موسوع الناس جميعا القيام به لا فرق بين فقير وغني ، وعظيم وحقير ، وحاكم ومحكوم ، يجعل في مقدرو كل فرد مهما كانت قيمته أن يسهم بقسط وافر في دعم الروابط الإنسانية وإشاعة الحب بين الناس : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فكانت أول خطبة له :

أما بعد : « فيا أيها الناس ، قدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجب دونه :

ألم يأتك رسولي فيبلغك ، وآتيك مالا وأفضت عليك ، فما قدمت لنفسك ؟

فلينظر يمينا وشمالافلا يرى شيئا ، ثم لينظر قدّامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإنها تجزي ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

فأنت ترى من الهدي النبوي الكريم امتداد العمل الطيب بحيث لا يقف عند شئون المال فحسب ، بل يحيط بجوانب الخير حتى يصبح في مقدور كل إنسان فعله . فمن ذا الذي لا يستطيع أن يبذل الكلمة الطيبة ؟ ومع أنها هينة سهلة أليست بابا كريما لألفة القلوب وائتلاف النفوس ؟

ثم تراه ﷺ . يثني على الأشعريين فيقول : « إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو فنى زادهم أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم » .

أليست هذه أروع صور التكافل المعيشي الذي يجعل الواحد منهم يشعر أنه صاحب حق لا يتميز فيه عن غيره ؟

ثم تسمع من فمه الطهور ﷺ هذا القول الذي يحرض كل قادر على أن يسعى لإنقاذ نفسه من ورطة الكفر بما يقدم من إنفاق :

« ما آمن بي من بات شبعان وجاره إلى جانبه طاو » .

« أي رجل مات ضياعا بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله » .

وفي صحيح مسلم ما رواه أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال :

« من كان معه فضل ظهر فليعد على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له » . قال أبو سعيد : فذكر رسول الله من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل » [1] .

بل تجد الرسول ﷺ يجعل الملكية الحقيقية فيما يبذله الإنسان من خير سواء فيما يتصل بضرورة النفس أو حاجة الغير .

« أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟

قالوا : ما منا أحد إلا ماله أحب إليه .

---

(١) رواه مسلم .

فقال ﷺ : فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر » .

وإذا كان ما يقدمه الإنسان من بر هو ما يملكه كان التكافل في الإسلام نتيجة باعث فطري يقوم على إحراز الخير للنفس عن طريق عمل البر ، وليس نتيجة ضغط من الظروف الاقتصادية أو عامل من عوامل الترضية ، لا يقتصر على جانب من الخير دون جانب كما لا يختص بفئة دون فئة ، لأن مبعثه كما قلنا الشعور الكامل بأن الخير للإنسان فيما يقدمه فيملكه :

جاء رسول الله ﷺ إلى زوجته عائشة يسألها طعاما ، فذكرت له ما تبقى من شاة ذبحت ، وأمسكت بشيء قليل وقالت : كلها ذهبت إلا هذه .

فقال ﷺ : « كلها بقيت إلا هذه » .

نعم . كلها بقيت : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ ﴾ [سورة الكهف : ٤٦] ، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ [سورة آل عمران : ٣٠] .

قلت : إن التكافل في الإسلام عام شامل يشمل جوانب الحياة كلها كما يشمل الناس جميعا ، فلم يكن التكافل بين المسلمين وحدهم يخصون به أنفسهم دون سواهم ، بل امتد أمره لمن كان معهم مهما كانت عقيدته أو صلته .

انظر ما جاء في معاهدة الصلح التي أعلنها خالد بن الوليد مع أهل الحيرة وكانوا مسيحيين :

جاء في المعاهدة : « وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه .. طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقاموا بدار الإسلام » .

وهذا عمر بن الخطاب يرى شيخا كبيرا يسأل الناس فيقول له عمر : ما أنت يا شيخ ؟

فيقول : ذمي يسأل الجزية والصدقة .

فقال له عمر : ما أنصفناك ! أكلنا شبيبتك ثم نضيعك في هرمك !

ثم أخذه إلى بيته فأعطاه وأرسل إلى خازن بيت المال يقول له :

« انظر إلى هذا وضرباته فافرض لهم من بيت المال ما يكفيهم وعيالهم » !

إن التكافل في الإسلام ينمو بفضائله في النفس وتظهر ثماره الطيبة في واقع الحياة أمنًا وبرًّا ورخاءً وعدلًا ، ولقد ظفرت ديار الإسلام بثمره الطيّب وغرسه الكريم :

يقول أحد العمال في عهد عمر بن عبد العزيز : « كنا نطوف بالزكاة على الناس لعلنا نجد من يقبلها » !

ومن هذا تدرك مدى ما وصلت إليه الأمة من مكانة في الخلق ورخاء في المال ومن تسابق على تحقيق الخير في شتى الميادين لأن مبعثه كما قلت : « شعور الإنسان بأنه يحرز خيرا لنفسه بما يقدم لغيره من معونة أو عمل طيب » .

وأود أن أقرر هنا حقيقة قاطعة هي أن هذا الباعث وهو إيمان الإنسان بأن ما يعمله من خير يلقاه يتحول في نفس المؤمن إلى فطرية العمل الذي لا يشعر معه بكلفة أو تكلف ، فيأتيه برغبة أصيلة وشعور بالسرور النفسي الذي صوره الرسول بقوله : « إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن » .

وتلك طبيعة الإسلام التي بها قام مجتمع « مثالي » يزخر بعمل الخير ويتفاعل في التسابق عليه مستظلا بقانون الحق مؤتلفا في ساحة العدل :

مجتمع [1] كان فيه الفقر والغنى ولكنه لم تكن فيه المهانة والاستغلال » !

وكان فيه الحاكم والمحكوم ، ولكنه لم يكن فيه الظالم ولا المظلوم !

وقد وصفه الله بقوله : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [سورة الفتح : ٢٩] .

مجتمع كان فيه أغنياء لا يخافون حق الفقراء لأنهم أدوا إليهم حق الله في أموالهم وفقراء لا يخشون شح الأغنياء لأنهم ما برحوا في فيض غامر من برهم وسخائهم ولكن كانوا يتنافسون فيما بينهم ويتسابقون إلى فعل الخير والحث عليه .

جاء الفقراء مرة إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور

---

(١) اشتراكية الإسلام : ص ٣٥٥ للدكتور مصطفى الساعي .

(الأغنياء) بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم !

قال : « أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ؟ إن لكم بكل تسبيحة صدقة ، وبكل تكبيرة صدقة ، وأمر بمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة » الحديث ..

مظاهرة للفقراء من أغرب ما رواه التاريخ ! لم يحتشدوا فيها للاحتجاج على قسوة الأغنياء وظلمهم ، فذلك ما لم يقع في ذلك المجتمع قط ، ولكنهم احتشدوا ليعربوا عن آلامهم في تخلفهم عن الأغنياء في ميادين الخير والإحسان فكيف يفعلون ؟

إنهم يريدون أن يكونوا مثلهم يفعلون الخير ، وقد ظنوا أن سبيله هو المال فحسب ، وهم لا يملكون ما ينفقون .

وكان جواب الرسول أروع ما يمكن أن يوجه إليه أمثال هؤلاء ليكونوا بنائين في المجتمع غير هدامين . إيجابيين لا سلبيين ، عاملين لا عاطلين .

إن سبل الخير ليست وقفا على وجود المال ، بل أن لها سبلا كثيرة يجدها كل إنسان ولو غير غني ، فلا يحرم ثوابها مواطن ولا يمنع دونها فقير .

إنه في كف اللسان عن الثرثرة بذكر الله وتسبيحه والقيام بالإصلاح الإجتماعي عن طريق الموعظة الحسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإماطة الأذى عن طريق الناس وإعانة من يحتاج إلى العون وفي الإصلاح بين المتخاصمين والتقريب بين المتباعدين ، وفي إمداد المجتمع بالنسل الصالح .

والإسلام في هذا الميدان لا يقنع بتقديم النصيحة وبيان السبل فحسب بل يعمد إلى الوسائل العملية لصيانة التكافل ورعاية الخير وتحقيق البر ، وهو يندب المسلمين لأن يأخذوا على يد كل عابث بالحق غير عابىء بما يصيب المجتمع من جراء فسقه أو انحرافه ، فالبناء واحد والسفينة واحدة والمصير مشترك ، وليس من حق إنسان كائنا من كان أن يصدع البناء أو يعبث بأمر السفينة ، أو يفعل أمرا يخالف قانونها .

تأمل هذا العمق الفريد في التكافل بل الحيطة في رعاية أمن الناس وسلامهم . تأمل قول رسول الله ﷺ : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على مَنْ فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ مَنْ فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » .

لا يمكن للإنسانية أن ترى أقوَم ولا أكرم ولا أبر ولا أرحم لشأنها من هذا التوجيه النبوي الكريم وهو يصون أمرها ويرعى وحدتها ويحقق تكافلها وتماسكها وقيامها على حسن التقدير والتدبير .

هم جميعا في سفينة واحدة ، والسفينة تخضع للمؤثرات ، مؤثرات القدرة الإلهية وهي تسخر البحر والرياح .

وهذه تؤمن بالإيمان وتصان برضا الرحمن .

ومؤثرات تأتي من أعمالهم هم وتلك قد نبه الرسول إليها وحذر من وقوع الاضطراب فيها ، وبين أن الهلاك إذا وقع أحاط بهم جميعا .

فعليهم أن يأخذوا على يد العابث وأن يحققوا للسفينة قانونها في الاعتدال والعدل والحيطة والتعاون حتى تصل السفينة آمنة سالمة إلى شاطئ السلام :

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [سورة يونس : ٢٥ - ٢٧] .

وما أجمل أن تدرك من أمر هذا الدين ما ساقه من قصص عملي في كتابه الخالد يقوم مقام المنارة الهادية للسفينة الضالة في المحيط الصاخب :

١ — في سورة القصص ما حدث به القرآن عن قارون وعاقبته إذ بغى في

الأرض واتخذ من نعم الله سبيلا للبغي والتسلط والعلو في الأرض بغير الحق ، فتحولت نعم الله إلى نقم ، وانفتحت الأرض تبتلع في جوفها نتن التأله الكذوب وجيفة التسلط الضال :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِن مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة القصص : ٧٦ - ٨٣] .

٢ - وفي سورة القلم قصة أصحاب الجنة الذين دبروا بليل جريمة الضن بحق الفقراء وكأنما دبروا هلاك أنفسهم وتدمير مستقبلهم وإحراق جنتهم . تأمل القصة بلا تعقيب أو تعليق من قوله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [سورة القلم : ١٧ - ٣٤] .

إن التكافل في الإسلام حياة عاملة وفطرة حية لأنه يتصل بمصدر الحياة وخالق الكون يتصل بالإيمان بالله والثقة فيه والتقرب إليه : « وما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل » .

لا تعجب إذن أن ترى - من آثار هذا الدين - أبا بكر وعمر يتسابقان على دار امرأة عجوز ليس لها من يعولها أو يقضي حوائجها .

يتسابقان في تقديم الطعام والشراب وإصلاح الدار ، وقد عجب عمر وهو يذهب إليها في ظلام الليل يقدم برا خالصا لوجه الله بعيدا عن أعين الخلق ، عجب أن رأى نفسه قد سبق بمن يصلح الدار ويحضر الشراب والطعام ويوقد السراج ، فرصد الدار مختفيا ليرى من يسبقه إلى البر وعمل الخير !

فما راعه إلا أن يرى الصديق يسرع إلى الدار يقدم ما اعتاد من الخدمة والطعام والزاد .

ولقد حق فيه قول عمر : « ما سبقت أبا بكر إلى خير إلا سبقني » .

لا تعجب أن ترى أبا بكر ينفق ماله كله في سبيل الله ويسأله رسول الله ﷺ : « ماذا أبقيت لأولادك يا أبا بكر ؟ » .

فيقول في لهجة الواثق بربه المطمئن لعطائه : « أبقيت لهم الله ورسوله » ثم أرأيت إلى ابن عفان ؟

تأتيه قافلة في عام المجاعة تبلغ ألف بعير محملة بما يحتاج الناس إليه ، ويحضر التجار ليشتروها منه ، فيقول لهم : بكم تشترون ؟ فيقول التجار نعطيك ٥٪ ربحا .

فيقول : وجدت من يعطيني أكثر ! فيقولون نعطيك ١٠٪ .

فيقول : وجدت من يعطيني أكثر ! فيقولون : نحن تجار المدينة والقافلة قد وصلت الآن فمن التجار الذين أعطوك ربحا أكثر ؟

فيقول الرجل في ثقة الكريم ويقين الصادق : « إني وجدت الله يعطيني ربحا على الواحد عشرة إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله ! أشهدكم أني بعتها لله وأنها صدقة على المسلمين » .

ثم تأمل بنت الصديق وهي تتصدق بمائة ألف درهم تقول لها خادمتها : هلا أبقيت لنفسك درهمين تفطرين عليهما – وكانت صائمة –

فتقول أم المؤمنين رضي الله عنها : لو ذكرتيني لفعلت .

يالله نسيت نفسها .. !!

لا تعجب وعش في روضة القرآن بقلبك ترى أثره فطريا في سعيك وعملك .

ولست أريد أن أقص عليك نتائج هذا الدين في نفوس المؤمنين فذاك ما لا تمكن الإحاطة به ، وإنما أريد فقط أن أشير إلى أصالة التكافل في هذا الدين وإلى عمق بواعثه ونتائجه ، لتدرك أن عناية الإسلام بالمجتمع نابعة من تقديره لكرامة الإنسانية ووحدتها . ولم يكن منشؤها حب التعالي والغلبة أو التحايل على كسب أو غنيمة !

وكيف تكون كذلك ونداء الوحي يتردد في أعماق القلوب :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة القصص : ٨٣] .

إن المؤمن في هذا الموكب الطهور يستهويه صوت الحادي إلى جنة الله ويستحثه حنين التطلع إليها ، فليس في أمره تسخير أعماله لمصلحة عاجلة أو لذة فانية .

وهو يدرك أنه في مقامه في سفر ومن سفره إلى وقوف في ساحة قضاء يجد فيه ما قدمت يداه : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [سورة آل عمران : ٣٠] . ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾

[سورة عبس : ٣٤ - ٣٧] .

﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾

[سورة النبأ : ٤٠] .

وأعود مرة أخرى فأقول : ما نصيب المرأة من كل ذلك ؟ وما دورها فيه ؟ وما وضعها الحقيقي في هذا الدين ؟

ولا أود أن أكرر ما قلته عن مدى التكريم لها والحفاوة بأمرها وعدها إما تذكر بعد ذكر الله ويجحد فضله إذا جحد فضلها ، ويطلب بره ورحمته في برها .

إنما أريد أن أضع أمام القارئ هذه الحقائق الآتية ليستبين منها مدى عناية الإسلام بالأسرة ممثلة في أمومتها وعنايته بالمجتمع ممثلا في إعداد أفراده وتربيتهم ، إعدادهم لهذا الميدان العام الذي يستوعب نشاطهم ويبرز مواهبهم وينمي خصائصهم ، إعدادهم للمجتمع عاملين لإسعاده بنائين في مجده وحضارته يرجون وجه الله وابتغاء مرضاته :

أولا : أن المرأة مخاطبة كالرجل تماما بشرائع الله مسئولة عن أعمالها لا يسقط عنها إلا ما تستوجبه ضرورة الخلق ويقتضيه داعي الفطرة ، ولها نتيجة عملها كما أن له

نتيجة عمله : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [سورة الإسراء : ١٥] .

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٥] .

ثانيا : ان ما خوطبت به المرأة يراد به تحقيق كرامتها الإنسانية مع الوفاء بوظيفتها الاجتماعية ، وأن ذلك يستوجب أن توضع للأمور ضوابط تحقق الغرض المنشود ولا تذهب بالأمر إلى غير وجهه ، فلنيسر أسباب العلم للمرأة كما نيسرها للرجل بشرط ألا نخرجها عن وظيفتها الأصلية ، وأن يكون تعليمها عونا لها على القيام بهذه الوظيفة على أكمل وجه ، وأن نحيط ذلك بسياج متين من دقة التنظيم في المنهج والسلوك ، وأن تعلم المرأة أن ميدانها الأصيل هو : « أمومة الأسرة ، وهو ميدان شرف وكرامة ، ميدان عمل وجهاد ، ميدان الإنسانية كلها بحضارتها ومعارفها وأسباب أمنها وسعادتها » .

وهو ميدان يتطلب العلم الوافر والمعرفة الصادقة ، إذ فيه يتم بناء النفوس وإعدادها إعدادا تتشعب معه فنون المعرفة وتتوافر عليه مناهج العلم .

فلتتعلم المرأة لأن رسالتها في الحياة ليست بأقل من رسالة الرجل إن لم تكن أهم من حيث كونها الأصل في إعداده .

ولتعلم أن لها فطرتها فلا تخالف الفطرة ولا تخرج بتعليمها عن حدود وظيفتها ، إنها ليست رجلا فلا يصح أن يخرج بها العلم إلى دعوى المشاركة في كل شيء لأن داعي الفطرة ونداء الطبيعة أقوى من هذا الشيء .

ويمكننا هنا أن نستعير ما قالته سيدة وصلت إلى أعلى مراتب العلم في بلادها ما قالته وهي تودع تلميذاتها بعد أن انتهت مدة خدمتها :

وقد نشرت ذلك جريدة الأهرام في عددها الصادر في يوم ١٩٦١/٥/٢٩ م [١] تحت عنوان : « أستاذة جامعية تنصح طالباتها بالزواج » .

قالت الأهرام :

أستاذة جامعية في انجترا وقفت هذا الأسبوع أمام مئات من طلبتها وطالباتها تلقي خطبة الوداع بمناسبة تقديم استقالتها من التدريس .

قالت الأستاذة :

ها أنا ذي بلغت الستين من عمري ، وصلت فيها إلى أعلى المراكز ، نجحت وتقدمت في كل سنة من سنوات عمري ، وحققت عملا كبيرا في المجتمع .

كل دقيقة في يومي كانت تأتي عليّ بالربح ، حصلت على شهرة كبيرة ، وعلى مال كثير .

أُتيحت لي الفرصة أن أزور العالم كله ، ولكن هل أنا سعيدة الآن بعد أن حققت كل هذه الانتصارات ؟

لقد نسيت في غمرة اشتغالي بالتعليم والتدريس ، والسفر والشهرة . أن أفعل ما هو أهم من ذلك كله بالنسبة للمرأة .

نسيت أن أتزوج وأن أُنجب أطفالاً ، وأن أستقر !

إنني لم أتذكر إلا عندما جئت لأقدّم استقالتي ، شعرت في هذه اللحظة أنني لم أفعل شيئا في حياتي ، وأن كل الجهد الذي بذلته طوال هذه السنوات قد ضاع هباء !

فسوف أستقيل ويمر عام أو اثنان على استقالتي ، وبعدها ينساني الجميع في غمرة شغلهم بالحياة .

ولكن لو كنت تزوجت ، وكوّنت أسرة كبيرة لتركت أثرا أكبر وأحسن في الحياة !

---

(١) من كتاب : « إسلامنا » لفضيلة الشيخ السيد سابق .

إن وظيفة المرأة الوحيدة هي أن تتزوج ، وتكوّن أسرة . وأي مجهود تبذله غير ذلك لا قيمة له في حياتها هي بالذات .

إنني أنصح لكل طالبة تسمعني أن تضع هذه المهام أولا في تقديرها وبعدها تفكر في العمل والشهرة !

أرأيت إلى نداء الفطرة وداعي الطبيعة ؟ أرأيت حديث المرأة المجربة التي نالت من العلم والثراء ما نالت ثم قالت : لم أنل شيئًا ؟

للمرأة وظيفتها ورسالتها فلتتعلم لتنهض برسالتها ووظيفتها .

ولتعلم أن هذا الميدان وحده هو الذي يجعلها مساوية للرجل في الإنسانية وتحمّل المسئولية وأداء الرسالة ، مساوية للرجل في النهوض بالتبعة وأداءالواجبات ، وليست المساواة تبديلا للخلق أو مخالفة للفطرة .

وادعاء أن المرأة تتحمل كل ما يتحمله الرجل أو أن الرجل يتحمل ما تتحمله المرأة يكذبه الواقع وتنكره الطبيعة .

ثالثا : إن ما يتصل بشئون الملبس من ستر الأبدان أو غطاء الرأس والصدر إنما يراد به صيانة المرأة وتحقيق كرامتها على صورة يستقيم معها عفاف الرجل أو تصان عفته .

وليس ضربا من التحكم أو نوعا من الأسر :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

[سورة الأحزاب : ٥٩] .

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي

الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور : ٣١] .

الإسلام يحرص على صيانة الأسرة بالطهر والعفاف .

ولاشك أن تبرج المرأة الذي حذر الإسلام إياه : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٣] .

هذا التبرج الذي يثير الغرائز ويحطم أسوار العفة . إن هو إلا معول هدم في كيان الأخلاق في صميم الأسرة وحياة المجتمع ولقد كان « مصطفى صادق الرافعي » محقًا حين قال :

« لو كنت قاضيا ورفع إليّ شاب تجرأ على امرأة فاحتك بها أو طاردها وتحقق عندي أن المرأة كانت مدهونة مصقولة متعطرة متبرجة لعاقبت هذه المرأة عقوبتين : إحداهما : بأنها اعتدت على عفة الشاب ! والأخرى : بأنها خرقاء كشفت اللحم للهر » !

ولاشك أن الإنسانية اليوم تعاني ضربا من فساد الأخلاق يودي بها وبحضارتها ويذهب بأمنها وسلامها .

ولن تصان الأخلاق إلا إذا توافر للأسرة جوها الطهور وعفتها المصونة وكرامتها المقدسة .

رابعا : أن ما يتصل بمنع الخلوة بالمرأة إلا لذي رحم . إن هو إلا سد لذريعة الفساد ووقاية من الفتنة .

« لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي رحم » [١] .

وكذلك ما يتصل بالسفر : « لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم » [٢] .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري .

ويمكنك في ضوء الواقع والنزاهة والتجرد أن توقن أن هذا التشريع هو الحكمة عينها فيما يتصل بكرامة المرأة والحفاظ عليها .

وإن ما أفاضت به الحضارة الحديثة من ترك الأمر للمرأة تفعل ما تشاء تخلو بأحد إن شاءت وتسافر وحدها إن أرادت . معتمدة على أن حرية المرأة تستوجب ذلك إن هو إلا تقدير للحرية من جانب الانطلاق ، وليس تقديرا لها من جانب القيد الذي يجب أن يقوم لتتوافر حرية الآخرين وكرامتهم .

والحرية التي لا يقوم معها قيد يوفر الحق والكرامة للناس جميعا ليست بحرية وإنما هي انطلاق أعمى مسوق بالهوى والجحود !

الإسلام لا يمنع المرأة أن تسافر ولكنه يؤمن سفرها .

ولا يمنعها أن تخاطب من تشاء من الرجال في حدود ما تقتضيه ضرورات الحياة ، ولكنه يمنع أن تقع خلوة مع أجنبي « ليس بمحرم » لأنه لا يرضى أن يفتح ميدانا للشيطان المتربص الدائب على تلمّس أسباب الشر والفساد ، وماذا على المرأة وحريتها أن تؤمن في سفر أو تؤمن في حضر ؟

ماذا عليها وعلى حريتها أن يقال : سدوا أبواب الشر وافتحوا نوافذ الطهر ؟

إن القيد الذي توهمته أسرا لها إنما هو في الحقيقة أسر للعبث المتسلط على الرجل .

أليس الرجل ممنوعا من الخلوة مخاطبا بما خوطبت به ؟

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ [سورة النور : ٣٠] .

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

[سورة النور : ٣١] .

هل من المنطق في شيء أو من المصلحة في قليل أو كثير أن يقال للرجل : انطلق كما شئت فأنت حر ولو داست قدمه أفلاذ أكباد وحرمة بيوت ؟

أيقال للمرأة : انطلقي كما شئت فأنت حرة ولو سفكت عفة الأحرار واعتدت

بما صنعت في نفسها على حياء الآمنين ، أم لابد من قيود تصون إنسانية الإنسان وتؤمن أعراض الناس ؟

على المدنية الحديثة أن تراجع أمرها وأن ترى النتائج المترتبة على دعوى التحرر والحرية فإنها سترى أن من أولى أسباب التوتر العالمي فساد الأخلاق .

ومن أولى أسباب الفساد « تدهور الأسرة » وكفى .

خامسا : إن الإسلام قد وجه طاقة المرأة كما وجه الرجل إلى العمل البناء المثمر وجنبهما معا لذلة الهوى وضيعة الانحراف ، وألزم المرأة كما ألزم الرجل أداء الواجبات في صلاة وصيام وزكاة وحج وأمر بمعروف ونهي عن المنكر وطاعة الله ورسوله ، وهي واجبات تتصل بشئون المجتمع وتقوم على دعم ألفته ومودته :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [سورة التوبة : ٧١] .

ألم تعارض عمر في تحديد المهر امرأة فأمسك عما رأى وأمضى ما رأت ، لأن الحق معها وقال قولته المشهورة : « أخطأ عمر وأصابت المرأة » ؟

ومن حق المرأة أن تتاجر وأن تربح وتملك وأن تبيع وأن ترهن وأن تتصدق وأن تختار لنفسها زوجا بلا إثم أو إكراه .

الميدان فسيح .

يطلبها بناءة عاملة ، ولكن الإسلام فقط يرباً أن تعود للمذلة وأن تساق للعبودية باسم الحرية أو التحرر .

يأبى أن يراها نهبا لكل طامع تغتصبها النظرات ويعبث بها التطلع المنحرف .

يأبى أن يراها غير معدة لأمومة الطهر والخلق ، لأنه يأبى أن يرى مجتمعا تضيع فيه القيم وتسفك فيه الأعراض .

يأبى أن يرى أمة يعصف بها ريح الإثم وتقتلها سموم الرذيلة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الممتحنة : ١٢] .

إن المسئولية في الإسلام تخص الفرد ذكرا كان أو أنثى كما تخص الجماعة : الكل راع ومسئول عن رعيته .

مسئول عن رعاية الأمانة الغالية التي قال الله عنها : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ﴾ [سورة الأحزاب : ٧٢] .

إنها أمانة الحياة الطاهرة بمقوماتها النظيفة ، وتلك يلتقي عندها كل ما شرع الله للإنسانية من خير وما ساق لها من هدى .

وبعد مرة أخرى : فإن كل ما ذكرنا من شئون الأسرة أو تكافل المجتمع ، له ضوابطه ودوافعه وقانونه ، ضوابطه التي تصونه وتحرسه ، ودوافعه التي تجعل أمره فطريا لا تكلف فيه ، وقانونه الذي يستند إلى تقدير المخلوق لأنه فطري ، ورعاية الخالق لأنه إلهي رباني ، وكل ذلك ينزع إلى تحقيق الوحدة الإنسانية والأمن العالمي ، ينزع إلى تعارف الجماعة البشرية وتعاونها ، في بر يثير الحب والألفة ، وعدل يصون الحق والواجب ، ورحمة تشمل العباد جميعا :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] .

* * *

(٣) الإسلام والعلم

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [سورة العلق : ١ - ٥]

لا نعرف دينا كرم العلم ودعا إليه مثل ما فعل الإسلام ، وكتابه الكريم يبدأ نزوله بهذه الآيات :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [سورة العلق : ١ - ٥] .

قراءة . كتابة . تعلُّم .

وكفاك أن تعلم أن الإسلام طلب الإيمان بالله لا عن طريق التقليد والمحاكاة بل عن طريق النظر والتأمل :

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [سورة يونس : ١٠١] .

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِى الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١] .

وإذا كانت أولى عقائده تطلب عن طريق التأمل والنظر لا عن طريق التقليد والمحاكاة كان ذلك عنوانا لحرية الفكر ونزاهة التقدير وسماحة التقبل :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [سورة الكهف : ٢٩] .

كما أنه إغراء للإنسان بالبحث والتنقيب ، إذ لم يأت الإقناع في الرسالة العالمية عن طريق معجزة زمنية يختص بها مَنْ رآها أو عاش في زمنها ، أو عن طريق سلوك شخص يتأثر به مَنْ رآه أو عاش في عصره ، وإنما جاء في الرسالة الخاتمة عن طريق التأمل في صفحة الكون الباقية وأسراره لتظفر الإنسانية مع سمو الروح بحضارة المادة ، وتجمع بالتأمل بين الاعتقاد الذي يصون النفس عن التردي في مهاوي الشرك ، والانتفاع الذي يحوط النفس بسياج من الرعاية والحفظ ، فتجعل من التأمل بابًا لتزكية النفس ، وتربية الروح ، ومنفعة الجسد ، وتعاون الجماعة والتوصل إلى معرفة الخالق بتتبع آثاره في خلقه .

وهذا أمر تتضافر عليه الأجيال المتتابعة ، ويرث بعضها معارف بعض ، وكأنها تلتقي جميعها في موكب واحد ، لا ينفصل فيه سابق عن لاحق ، فلا ينتهي عملها في الكون ولا ينتهي ما في الكون من عجب !

ليس سبيل الدخول في الإسلام معجزة مادية مؤقتة ، بل سبيل الدخول معجزة فكرية خالدة تجعل من عمل الفكر المتصل دعمًا لشرائعه وإقرارا لعقائده ، ويقينا بآدابه وأخلاقه ، وتلك آية بقائه ودلالة عظمته ، وبرهان كماله ، وصلاحيته لكل زمان ومكان .

ومن هذا ندرك أن حضارة الإسلام « حضارة روح وجسد » ، وأن العلم يخدمهما معًا ، ولا يختص بأحدهما دون الآخر ، لأن هذا الدين دين الفطرة ، والفطرة في مظهرها روح فاعلة في مادة منفعلة .

والإنسان في تكوينه روح وجسد ، ورعاية أحد الجانبين منافاة للفطرة ، وتعطيل لجهود الإنسانية وانحراف بغايتها .

الإنسان روح وجسد ، والإنصاف يقتضي مراعاة جانبيه .

والحياة مادة وروح ، والإنصاف يقتضي الإقرار بهما معا على حقيقتهما في التأثير والتأثر .

والعلم الذي يرعى أحد الجانبين دون الآخر يقيم معركة صاخبة في ذات الإنسان أولا ، لا تلبث أن تتحرك منه إلى خارجه في أنانية جشعة وأثرة مفزعة .

وهذا ما انتهت إليه حضارة المادة حين تحيزت واستجابت لغرائزه وشهواته فلم تلبث تلك الحضارة أن انتكست على نفسها ، فحطمت أو كادت تحطم ما صنعت وتدمر ما أقامت .

وهي تسوق الإنسان في ميدان المنافسة بلا خلق أو ضمير ، يستحوذ قوت أمة ولا يقنع بالمزيد ، ويلتهم كالنار قوت شعب فلا يمتلئ ويقول : هل من مزيد ؟

الحضارة المتكاملة هي التي تحوط الإنسان من جانبيه وترعى روحه وجسده وتجعل السلطة لأولاهما بالبقاء وأقدرهما على إيجاد الألفة والمحبة والرحمة مع العدل في إعطاء كل ذي حق حقه .

وتلك حضارة الإسلام . تصون النفس أولًا من غوائل الهوى ، وتعصم الفكر من الغرور ، وتقيم العدل في داخل النفس ، ليتحقق أمره في الخارج ، وتجعل من العلم وسيلة للمنفعة المشتركة والود المتصل ، كما هو وسيلة للإقرار بالخالق والبر بالمخلوق .

ومن عجب أن يدعي أصحاب الحضارة المادية أن الإسلام قد عوق أهله أن ينهضوا أو يتابعوا النهضة !

وقد أغراهم بهذا ما عليه حال المسلمين من تأخر وانحطاط ، فاتخذوا من واقع المسلمين دليلا يصمون به الإسلام نفسه ، والإسلام من دعواهم ومن حال أهله بريء !

نحن لا نغالي إذا قلنا : أن ما بين الماديين من حضارة إن هو إلا وليد التعاليم الإسلامية التي أعتقت العقل وأفسحت أمامه المجال ، وفكت أسره بوحدانية ربه ، فأقامت في الدنيا أسس الحضارة الكاملة لبني البشر .

قلت : إن الإسلام يطلب الإيمان بالله عن طريق التأمل والفكر وإقامة الدليل العقلي واستعمال القياس الصحيح ، ليصل من ذلك كله إلى أن للكون ربا صانعا عالما مبدعا حكيما .

وهو يذكرنا بالآيات المنبثة في الكون والتي تعود علينا بالمنفعة إن نحن أحسنا التأمل في أمرها ومعرفة قانونها وربط أسبابها بمسبباتها .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٩٠] .

﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [سورة الأعراف : ١٨٥] .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ [سورة الروم : ٢٢] .

كل هذا يحتاج إلى عمل الفكر وجودة التأمل .

وفي الاستدلال على التوحيد تجد الإسلام أيضا يتبع هذه الطريقة :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٩١] .

أرأيت أن الإسلام في أخص عقائده يعتمد على الدليل العقلي والفكر الإنساني ؟

وحتى الإيمان بالرسول لم يأت عن طريق معجزة تُسْكِت العقل وتُسْلِب النفس إرادتها وتجعلها تستسلم خاضعة لقوة التأثير من خارجها لا من قوة الإقناع والإقتناع من داخلها .

إن معجزة محمد ﷺ الباقية هي القرآن وهو كتاب العقل والوجدان ، كتاب الكون في فطرته السمحة وحقائقه الخالدة .

يقول الإمام محمد عبده عن معجزة القرآن في كتابه : « العلم بين الإسلام والنصرانية » :

« معجزة القرآن جامعة من القول والعلم وكل منهما ما يتناوله العقل بالفهم ، فهو معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها وأطلقت له حق النظر في أنحائها ، ونشر ما انطوى في أثنائها ، وله منها حظه الذي لا ينقضي فهو معجزة أعجزت كل طوق أن يأتي بمثلها ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها .

أما معجزة موت حي بلا سبب معروف للموت أو حياة ميت ، أو إخراج شيطان من جسم أو شفاء علة من بدن فذلك مما ينقطع عنه العقل ويجمد له الفهم ، وإنما يأتي بها الله على يد رسله لإسكات أقوام غلبهم الوهم ، ولم يضيء عقولهم نور العلم » .

يمكن القول بعد ذلك : أن الإسلام قد وضع للإنسانية أسس حضارة مجيدة تنزع إلى الماضي ، فتعترف بجهد السابقين وتمضي إلى المستقبل وهي تحمل عبرة الماضي تصون بها جهاد اللاحقين .

الحضارة ليست عمل جيل من الأجيال ، بل هي عمل الإنسانية من لدن آدم إلى يوم الدين .

والإنسانية ليس لها من جهد إلا أن تكشف عن حقائق الكون لتصون بذلك كرامة الإنسان وحريته وإيمانه وخلقه .

فالإسلام هنا يتميز بأمرين :

الأول : اعترافه بجهد السابقين والدفاع عن رسالتهم وعدّها أصلا في الإيمان برسالته ، وتلك وحدها دعامة في باب العلم يعتدل بها أولًا شأن النفس ، ويستقيم معها تقبل الحقائق ، ويتوحد بها أمر الإنسانية من بدايتها إلى نهايتها وهي تتوارث معارفها ، فتسري في وجدانها صلات الرحم من كل جانب . وما أبر صلة العلم وأنت تأخذ عن السابق جهده ، لتستعين به وتبني عليه لتتركه لمن وراءك ، وهكذا دواليك حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

الآخر : أن الحقائق التي تضمنها كتابه ينضبط بها السلوك الإنساني ، فيمضي في خطى ثابتة في البناء والكشف فلا يدمر ما يعمر ، ولا يسوق الفناء إلى ما ورث أو شيّد من بناء . فحضارة الإسلام إذن تتميز :

بأن تجعل من عمل الفكر وطلب العلم والتأمل في الكون والإفادة بما فيه عبادة يتقرب بها إلى الله .

وذاك وحده هو الذي يصون الإنسانية من الانتكاس ويحفظها من التردي ، وهي تسعى في حراسة الضمير وحماية الحق ، وهذا ما تفقده حضارة المادة :

فهي لا تعترف للسابقين بعمل وإن اعترفت فما أنصفت .

وهي تؤمن بالمادة ونتائجها فحسب !

ومن عجب أن يكون هذا النتاج العملي من عمل الروح المدركة المبصرة الواعية التي لو فارقت الجسد ما صنع شيئا ولا أغنى في القضية بشيء .

ثم ينكر البلهاء عمل الروح في الكون ، ويؤمنون بالمادة وحدها في كل شيء ، مع أن المادة في حضارتهم مسخرة بقوة الإدراك وعمل الفكر اللذين هما من خصائص الروح ، فكيف نؤمن بالأثر وننسى المؤثر ؟ بل كيف نقنع بالمادة ولا نؤمن بالروح وهي صاحبة الأثر في الإنسان نفسه ؟

الحق أن اعتراف الماديين بالمادة فحسب يجعلنا نقطع بأنهم يتنكرون لجهد السابقين لأن ما ورثناه من حضارة لم يكن عمل جسد بلا روح أو روح بلا جسد بل هو عمل الروح بإدراكاتها وتأثيرها ، وعمل الإنسان المنفعل بإدراكه وعقائده في الكون القائم بنظامه وسننه ، ولا يستقيم الأمر أبدا لحضارة تنكر ما منحته عناية الله خلقه وهي ترسل الرسل وتبعث الأنبياء ، ولا يغني في القضية اعتراف قاصر أو منحرف ، كما لا تغني التفرقة بين الداعين إلى الله ، لأن ذاك يدعو إلى الفرقة والتنابذ والاختلاف في مناصرة هذا ومحاربة ذاك .

واعتراف الإسلام بالوحدة المتكاملة للداعين إلى الله وهم جميعًا يأخذون من مشكاة واحدة ، وللمدعوين وهم مخلوقون لخالق واحد ، مخاطبون برسالة واحدة منحدرون عن أصل واحد ، يجعل البر يسري في السلوك الإنساني والخير يفيض بين الناس .

وتلك معان لا يستقيم أمر العلم إلا بها ولا يبقى للحضارة أثر إلا بقيامها وتحققها .

فقضية الاعتراف بالخالق والإيمان برسله بلا تفرقة . أمر ضروري لقيام حضارة متكاملة ينعم الإنسان فيها بخصائصه ، ويحيا متآلفا متعاونا مع غيره وذاك ما تفقده حضارة المادة وهي تنكر عمل السماء فتتنكر لخلق الله في الأرض .

والنتائج التي تنبني على هذه الحضارة المبتورة المشوهة ، يمكن تصورها في ظل

الواقع الذي تحيا الإنسانية فيه ، وهي تفقد أمنها وطمأنينتها ، وتحيا في فزع دائم وخطر مستمر .

وماذا بعد أن يفقد الإنسان خصائصه ؟

وماذا بعد أن يُسْلَب أمنه وطمأنينته ؟

الحضارة في ظل هذا الانحراف تسير – إن صح هذا التعبير – في حراسة الهوى الكذوب والقوة الغشوم والأنانية الجشعة والأهواء المفرقة ، وليس بعد الواقع القائم دليل يرتجى أو بيان يرتقب .

لكن حضارة الإسلام كما قلنا ، متكاملة في أصلها .

إذ هي اعتراف بمادة وروح ، بقوة مؤثرة ومادة متأثرة .

ويترتب على هذا الاعتراف صيانة النتائج العقلية وتسخيرها في مصلحة الناس فكلما تقدمت الإنسانية في باب الكشف ازداد إيمانها برب الكون وتواضعها لجلاله وبرها بخلقه ، ولنا أن نتساءل : إذا كانت حضارة الإسلام بهذه المثابة .

وكانت تعاليمه داعية للعلم آمرة به جاعلة أخص عقائده عن طريق عمل الفكر والتأمل .

فما بالنا نرى المسلمين اليوم على جهالة وتأخر ، والإسلام بأيديهم والقرآن يتردد على ألسنتهم ؟ ونرى غيرهم من الناس وليس بيدهم إسلام ولا قرآن يملكون ناصية الأمر ويسيطرون على شعوب الأرض ويغزون أجواز الفضاء ؟

ولكي نعالج هذه القضية في نزاهة وإنصاف نود أن نقف عند أمور نتبين بها وجه الحقيقة في هذا الأمر :

أولها : النظر في تعاليم الإسلام في حد ذاته .

ثانيها : الحضارة التي صنعها يوم أن تمسك المسلمون به ، وأخذوا أنفسهم بتعاليمه .

ثالثها : أسباب جهل المسلمين وتأخرهم .

رابعها : النظر إلى الحضارة الحديثة ومعرفة أسبابها ونتائجها .

وأخيرا هل للدين هنا أو هناك دخل في نهضة أو تأخر ؟

ونود أن نقف من هذه الأمور كلها موقف الإنصاف والتجرد ، لنرى الحقيقة كما هي والله المستعان :

أما عن تعاليم الإسلام فيكفي بعد ما قدمت : أن نسوق بعض النصوص وما أكثرها .

لتكون موطن التأمل لمن يريد ، وإشارة لمن وراءها لمن يطلب المزيد .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الأَخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة العنكبوت : ٢٠] .

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [سورة طه : ١١٤] .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٩] .

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ [سورة فاطر : ٢٨] .

﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٦٩] .

﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٤٣] .

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾

[سورة المجادلة : ١١] .

« طلب العلم فريضة على كل مسلم » .

« لا ينبغي لجاهل أن يسكت على جهله ولا لعالم أن يسكت على علمه » .

« إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب » .

« لغدوة في طلب العلم أحب إلى الله من مائة غدوة في طلب غيره من الخير ولا يخرج أحد في طلب العلم إلا وملك موكل به يبشره بالجنة » .

« الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » .

« اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » .

« لا بارك الله لي في يوم لا أزداد فيه علما » .

« من استوى يوماه فهو مغبون ، ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون ، ومن كان يومه خيرا من أمسه فهو المؤمن » .

تلك نصوص من آيات القرآن الكريم ، ومن أقوال ثبتت عن رسول الله ﷺ أو شاعت بين المسلمين تكشف عن مدى عناية الإسلام بالعلم وحفاوته به ودعوته إليه مع جعله عبادة يتقرب بها إلى الله .

وسنرى من واقع التطبيق العملي أن المسلمين لم يفهموا عن العلم أنه علوم الشريعة والدين فحسب بل عرفوه بمجالاته المختلفة وأبوابه المتنوعة .

وإذا أردت أن ترى ما احتواه الكتاب الكريم وهو يسترعي النظر في الكون ويحض على التأمل فيه ويدعو إلى العلم ويرفع من شأنه . وأن تسطر ما حوته السنة أيضا وما جرى على ألسنة العلماء من تقدير للعلم والإخلاص له والحرص عليه وجدت نفسك أمام بحر زاخر ، وكفاك أن تعلم أن الله قد جعل مرتبة العلماء بعد الله وملائكته : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِالْقِسْطِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨] .

وأن تدرك أن سورة الرحمن ذكرت أن أول ما مَنَّ الله به على عباده بعد الخلق هو العلم :

﴿ خَلَقَ الْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [سورة الرحمن : ٣ ، ٤] .

إذ هو كما قلنا : سبيل خشيته والتعرف على أسراره في خلقه .

كما أنه الطريق لأخذ الزينة والمتعة في الدنيا وسبيل الراحة والاستقرار في الآخرة .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ الَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَٰتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِىَ

لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٣٢] .

وعى المسلمون الأولون دينهم وأدركوا مقاصد كتابهم فأخذوا أنفسهم به ، واستجابوا لأمره فتأملوا في ملكوت السموات والأرض ، وفي سير الأمم وتاريخها ، فنشأت بهم أكرم حضارة إنسانية ، قامت على أساس أن العلم عبادة يتقرب بها إلى الله وتلك توحي بالإخلاص والتجرد والمثابرة والصبر .

ونظرة إلى تاريخ الإسلام في نشأته تعطينا فكرة كاملة عن صدق ما نقول .

نشأ محمد ﷺ في بيئة تتغنى بعصبيتها وتنحصر بفكرها وسلوكها فيما تمليه عليها ضرورة حياتها .

وضرورة البيئة آن ذاك تكاد تتمثل في مرعى لشاتها وبعيرها ، وتجارة إلى الشام أو اليمن في صيفها وشتائها .

وقد يقع التنافس على الضرورات فتقع الحروب والمشاحنات ، ويدور الفكر مع تلك الضرورات يصف أمرها وينحصر في دائرتها ، كما يسجل الشعر ما يقع في محيط تلك البيئة من وصف لشئون تلك الحياة ، وما يتبع ذلك من فخر ورثاء ، أو مدح وهجاء .

وتكاد العبادة تنحصر عند هؤلاء في الوقوف عند أصنام تصنع وتعبد أو أوثان ترجى وتطلب .

ولا تسل عن أثر للإنسان أي أثر إذا اتجه بفكره وقلبه نحو حجر .

وليست الدول من حول هذه البيئة بأكرم منها في شيء ، اللهم إلا في نظم حياتها وظروف معيشتها ، وتلك قد أودى بها تنكر الإنسان لحقيقته وتسفله بشهواته ، وعبادته لهواه وانحرافه في تدينه .

بعث محمد ﷺ في البيئة الأولى فهتف بندائه الفطري الصادق : « لا إله إلا الله » ، وطلب الإيمان به عن طريق التأمل والفكر في النفس أولا : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [سورة الذاريات : ٢١] .

وفي الكون آخرا : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾

[سورة يونس : ١٠١] .

فليعمل الفكر ولينطلق فقد اتسع مجاله وفك أساره .

ولقد حررت الكلمة (حين رددت) عبيدا كانوا في الأسر ، وطيبت نفوسا آلمتها الحيرة وشغلها التطلع ، استجابت للنداء وطابت نفسها به ، فتعرضت لبلاء أفادها بالتمحيص وخلصها لحمل أمانة الله ، كما أفاد عدوها في معرفة خصائص هذا الدين عن طريق تجربة القائمين به .

وليس هذا مجال تفصيل البلاء والحديث عنه ، وإنما عبرتنا منه أنه كان تجربة للفريقين المتبع والمعارض ، إذ به عرف عمل الدين في نفوس البشر ، فكانت تلك هي التجربة الأولى لعظمة هذا الدين وما يصنعه في نفوس القائمين به ، وما هي إلا سنوات من الابتلاء أعقبتها هجرة تبعها نضال في ميدان الجهاد ظهر فيه كل فريق بخصائصه الذاتية ومقوماته الحقيقية ، ظهرت معه أمة متميزة بإيمانها وسلوكها .

ولم تكن معجزة هذه الأمة إلا معجزة علم .

ولم يكن باب الدخول إلى هذا الدين إلا باب معرفة وتحرر وصدق .

فلقد بدأ نزول القرآن الكريم على محمد ﷺ ، وهو أمي لا يعرف قراءة ولا كتابة ، وتلك آية الصدق ودلالة الحق .

فاتبعه من اتبعه ممن راعه أول الأمر سمو القرآن فيما يدعو إليه .

فأخذ المسلمون أنفسهم من بداية الأمر يحفظون آيات التنزيل ويسطرون آياته وينشرونها بين الناس وكلما مدهم الوحي اشتد تطلعهم إلى المعرفة وشغفهم بالعلم .

وهم يسمعون من نبيهم ويرون ، فيعون ويحفظون وينقلون .

ولم يعرف التاريخ عن قوم من أتباع نبي سجلوا عنه كل شيء حتى حركات جسمه وانفعالاته في أخص مواقفه مثل ما فعل أتباع محمد ﷺ وفي السنة ترى العجب من دقة التسجيل والنزاهة في النقل ، كما ترى العجب أيضا من الإحصاء الكامل والحيطة الشاملة ، حتى ورثت الإنسانية على يد هؤلاء تراثًا لا ينقضي عجب

المتأمل فيه ، ولا ينحرف رشد المتأدب عليه .

كل هذا في تآلف وتعاون وإخاء وحب . يطلبون العلم لوجه الله وينشرونه تقربا إلى الله وهم يقرأون في كتابهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٥٩] .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٧] .

قلت : إن اضطهادًا وقع في مكة موطن الدعوة الأول ، أعقبته هجرة بعد تمحيص للمؤمنين ، تبعها جهاد كان طلائعه هداة إلى الله يبلغون رسالته ويمدون يد السلم أولا ولا يبدأون غيرهم بالحرب .

وبدأ الإسلام مع الهجرة ينساب ، ومع الجهاد ينطلق وسلوك القوم في السلم والحرب وأخلاقهم تعبر عن عظمة هذا الدين وما فعله بنفوس أصحابه ، انساب الإسلام برجاله الذين حملوا معهم وحي الله وآياته .

وفي المدينة امتدت أخوتهم ، وانصهرت في بوتقة الإيمان روابطهم .

وها هم أولاء الأنصار – في أخوة وإيثار – يلتقون معهم على هذا الدين فيأخذون أنفسهم به ويتنافسون في ود وحب على التزود بتعاليمه ، ويشدون العزم إلى الله فتزداد ثقتهم بدينه « ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين » .

وفي المدينة تحول المسجد وهو يجمع شمل المسلمين إلى معهد للعلم – وتلك طبيعته – تتدارس فيه أحكام هذا الدين ، وتتلى آياته والآذان صاغية والقلوب واعية والهمم بارة راشدة ، والنفوس بحب الله متحابة متآلفة ، وظل المسلمون يتقبلون الوحي فيزداد به عملهم وتعظم رابطتهم ، ويقوى إيثارهم .

والوحي يمدهم بهذا الذخر الخالد إلى أن اكتمل الدين ، واكتملت رسالته وودع النبي دارهم تلك ، وقد وضع في أيديهم وقلوبهم أمانة الحق وهدية السماء للأرض كي تبلغ للعالمين .

زودوهم بالرحمة المهداة للإنسانية جميعًا .

وعكف المسلمون من بعده على كتاب ربهم ينفذون أحكامه ويرددون آياته والإسلام ينساب إلى الأرض الظامئة من حولهم فتسعد بالري ، وتأنس بالحياة ، ينساب الإسلام في سهول العراق وفي أودية الشام .

فيلتقي مع أقوام لهم معارفهم وديانتهم وتقاليدهم ، يلتقي معهم فيمتزج بنفوسهم في سهولة ويسر : ﴿ فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [سورة الروم : ٣٠] .

نعم يلتقي أهل الديار المفتوحة مع الإسلام الوافد ، فتروعهم سماحته وتأسرهم فطرته ويرون من أتباعه – وهم الغالبون – تواضعا يأسر النفوس وأمانة تؤمن الناس ، وسلوكا ينضبط بقانون وهم يتصرفون في كل شئونهم باسم الله رب العالمين ، ولا يكاد الإسلام يشرق على أرض حتى ترى طابعه وطبيعته تسري في كل شيء ، ولنتأمل أثر ذلك فيما نحن بصدده – « العلم » .

خالط المسلمون أهل فارس وسوريا والعراق بعد توحدهم في موطن دعوتهم ، ودخلوا مصر وامتدوا إلى ما وراءها من بلاد المغرب ، وانطلق الإسلام يخترق مضيق جبل طارق إلى أسبانيا ومنها أطلت المعرفة على أوربا التي تتغنى الآن بحاضرها ، وتنسى ماضيها ، أو تتنكر لفضل الإسلام فيما أمدها به ، وما أخذت عنه .

اتسعت الفتوحات الإسلامية ، وامتد ظل الإسلام في أمصار مختلفة وديار متباعدة ، وانتشر الصحابة والتابعون يُعَلِّمون الناس دينهم ، وينشرون رسالتهم في تسامح بار لم تعهده الشعوب من قبل ، فأقبل الناس يدخلون في دين الله أفواجا .

وما أن اتسع مدى الإسلام وأخذت الجيوش الإسلامية تتقدم إلى أفريقية ، ومنها إلى الأندلس وفي الشرق وراء السند وسمرقند ، حتى أخذت العقلية الإسلامية تترجم إلى العربية معارف السابقين من علم وطب وفلسفة ، ولم تكن العقلية الإسلامية لتتقبل هذه المعارف دون أن تبدي فيها رأيها بالنقد أو التفنيد أو الإنشاء والتقييد . بل سرعان ما كانت هذه المعارف تأخذ طابعها الإسلامي الفذ وشخصيتها الواضحة المستقلة التي تستبين معها عظمة الإسلام وحسن توجيهه وصدق غايته وإخلاص أهله .

« إذا وجب أن يذكر لكل واحد قسطه من العمل . لا يسع المنصف أن ينكر أن قسط العرب منه كان أعظم من قسط غيرهم ، فلم يكونوا واسطة نقلت إلى الشعوب الجاهلة في أفريقية وآسيا وأوربا اللاتينية معارف الشرق الأدنى والأقصى ، وصناعاته واختراعاته . بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التي كانوا يلتقطونها من كل مكان ، ومن مجموع هذه المواد المختلفة التي صبت فتمازجت تمازجا متجانسا أبدعوا مدنية حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم ، وهي ذات وحدة خاصة وصفات فائقة » [١] .

وبفضلهم نشأت في ديار الإسلام من أسبانيا إلى الهند حركة عقلية عظيمة أتت بأينع الثمرات ، وبفضل المدارس في قرطبة عرف الغرب النصراني نفسه فلسفة أرسطو « إن المدنية الأوربية » بل المدنية الغربية كلها مدينة للمسلمين بميراث حكمة الأقدمين .

وإن فتوحات العرب في إمبراطورية الإسلام من القرن السابع إلى الخامس عشر لتعد إحدى عجائب التاريخ ، ومن المدهش أن يصبح العرب – وكانوا أول أمرهم على الفطرة – عنصرا فاتحا صاروا به سادة نصف العالم في مائة عام ، ومن أشد العجب حماستهم العظيمة ، وسرعتهم البالغة في تحصيل العلوم ، وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم ، حتى وصلوا إلى مستوى عال في مائة سنة . في حين نرى الجرمانيين لما فتحوا الإمبراطورية الرومانية قضوا ألف عام قبل أن يقضوا على التوحش وينهضوا لإحياء العلوم [٢] .

ويستطيع المتتبع لآثار المسلمين في شتى أنواع المعرفة والحضارة والعلم أن يقف على جهود ظافرة وأن يبصر دعائم حضارة مادية ومعنوية شامخة تفي لدنيا الناس بالأمن والطمأنينة والسمو والرخاء ، وتحملهم إلى آخرتهم على ضوء أعمالهم من خير

---

(١) « الإسلام والحضارة العربية » للأستاذ محمد كرد علي (ص ٢١٩) .

(٢) الإسلام والحضارة العربية : ص ١٧٤ .

إلى نعماء ، ومن شر إلى بؤس وشقاء ، وتلك أقوم الطرق لصلاح الأولى بالاستعداد للآخرة ، وقيام الآخرة باسمة ناعمة بحسن السعي في الأولى وجميل القصد فيها .

وبهذا يتم الترابط ويزول الانفصال في خط السير للإنسان ، كما يزول الإبهام والغموض الذي يسيطر على بعض النفوس فيعزلها عن مراحلها المقبلة ، ويقيمها على مرحلة محدودة تبلى فيها وتبتلى من أجلها ، ويرى فيها من التباين في الحظوظ والتفاوت في الأجل والعطاء ما تنتفي معه حكمة الخلق ، إذا لم يتم للإنسان بعد الموت لقاء ، وبعد الدنيا آخرة تفي بنعيم أو شقاء .

ومن مميزات الحضارة الإسلامية أن كتابها باق يشد العزم كلما اتجهت النفوس إليه ، ويحمي الضمائر فلا تحيد عن الحق ولا تميل عن الصدق ، ويوجه النظر للتأمل الدائم في السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، ويقيم بين بني البشر في سعيهم وتأملهم ، وحلهم وترحالهم صلة الرحم وبر التعاون ، وهو يذكرهم بأنهم أخوة لأب واحد : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [سورة النساء : ١] ومنتهون إلى مصير واحد : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة يس : ٨٣] فيحقق مع السعي طمأنينة الأمن ، ويعصم الفكر برشد الإيمان ، ويقيم مع التفاوت في الحظوظ أدب اليقين ، ومع العدو والصديق استقامة العدل ورعاية الحق ، كما يقيم بين الأفراد والجماعات والأمم وشائج الحب والتعاون والرحمة ، ويجعل من المؤمنين بمبادئه الإنسانية السامية قوة أمن تحمي المثل أن تضيع فيضيع معها الإنسان ، وجنود حراسة يبطشون بالباطل ويحتمون بالحق ، ويبتغون في أمرهم كله رضاء الله .

تصدر إليهم الأوامر باسم الله وهم مكلفون بتنفيذها ما لم تخالف أمره أو نهيه .

والحلال عندهم بَيِّن والحرام بَيِّن ، وما اشتبه فهم منزهون عنه لا يحومون حوله ، ولا يقتربون منه ، وتلك قوة أمن ذاتية تقوم مع الإسلام بشكل طبيعي . مؤمنة مؤمنة . عادلة معتدلة . قاضية بالحق عادلة . ميزانها : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [سورة النحل : ٩٠] ، ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ ﴾ [سورة النساء : ١٣٥] .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾

[سورة المائدة : ٨] .

قانونها مع العدو والصديق ، ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

[سورة البقرة : ١٩٠] .

والحضارة الإنسانية في صورتها الكاملة ما لم تنبع من قلب الإنسان وضميره ، ومن نزاهته وعدله ، بل من صلته بربه وخشيته من خالقه ، فلا يمكن إلا أن تكون عونا للشهوة الذاتية والهوى المفرق .

هب إنسانا يرى الدنيا حظه خلق لها ولم يخلق لغيرها فهو ينتقل بعدها إلى مصير مجهول في نظره ، صورته المادية فناء ، وحقيقته المعنوية لا يراها بعين البقاء .

هذا الإنسان هل يمكن إلا أن يكون حريصا على إحراز أكبر حظ ممكن من الدنيا ؟

تحكمه غايته ، وتأسره شهوته .

إن الإنسان العظيم تعظم غايته ، وغايته هي التي تتحكم في سلوكه وسعيه : فإذا كانت الغاية موقوتة كان الإنسان معها عاملا لوقته غافلا عن غده .

فالإنسان الذي يرى الدنيا غايته لابد أن تتحكم الدنيا بشهواتها وماديتها في سلوكه فلا يرى من أمره إلا التنافس عليها والتقاتل من أجلها ، وحينئذ تعمل النفس بقواها وإدراكاتها لهذه الغاية وتخضع لمطالبها . وفي ذلك خسران أي خسران للروابط الإنسانية والتعارف والتعاون ، إذ تنشأ مع هذه الغاية الأنانية الفردية ، والهوى المفرق ، فينعدم التكافل وتذوب الرحمة .

قد يقال : إن بعض النظم المادية التي لا يرى أصحابها غير الدنيا غاية لهم تبر بأهلها ، وتقيم الروابط بينهم ، بل وتتقدم في مضمار الحضارة والاكتشاف .

أليس هذا بكاف في أن الدنيا لو جعلت وحدها غاية لأدى هذا إلى تحسين أمرها ورعاية شأنها والاستفادة مما فيها ؟

نقول : إن الإنسان روح وجسد ورعاية أحد الجانبين على حساب الآخر

إنكار للواقع ومنافاة للفطرة والمواهب الإنسانية بما أودع الله فيها من قوى ظاهرة وخفية .

وكذلك الكون بما أودع الله فيه من آيات ، لم تخلق كلها لخدمة البطن والمعدة وتأسيس البنيان الجسدي فحسب ، وإنما البنيان الجسدي آلة تظهر فيها الروح بعملها في المادة .

جميل أن يعمل الناس بجد في الحياة وأن يتعرفوا – في دأب وصبر – كيف بدأ الخلق وهم في مراحل السير والكشف عن المجهول يرون من دقة النظام وإحكام الخلق والتدبير آيات وآيات ولقد قلنا مرارا أن أية حضارة تستهدف أول ما تستهدف راحة الإنسان وسعادته فهل أوفت تلك الحضارة التي جعلت الدنيا غاية لها براحة الإنسان بأن يحيا غير قلق أو مضطرب أو خائف من يومه ، متوجس من غده ، هل أوفت بذلك ؟

وهل سُخِّرت المادة لراحة الإنسان وأمنه وسلامه أو سُخِّرت لشقائه وإزعاجه وحرمانه ؟

قد يقال : أنها تفي لأهلها بذلك ، وتضطر الآخرين للخضوع لهم والسير في ركابهم .

نقول : إنها تهدد الإنسان من حيث كونه إنسانا ، وما يصدق على الفرد يصدق على غيره ، والحياة دول : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٠] وليس شقاء أصحاب الحضارة المادية بها أقل من شقاء غيرهم .

وما نراه اليوم من تسابق مسعور على إحراز القوة وأدوات الفتك أكبر دليل على أن حضارة الإنسان المادية انتكست عليه ، وباتت تهدده وتسخره ، وتستغل مواهبه وتلح عليه أن يتسابق ، وأن يسخر ما تحت يده لحماية نفسه من غيره ، أو بالأحرى لحماية نفسه من نفسه .

فما طلبناه خدمة للإنسان أصبح سببا في شقائه .

قد يقال : إن السبب هو الإنسان نفسه وليس حضارة المادة بل هي في

خدمته وراحته إن سخرها لذلك .

نسلم بهذا ونقول : وما الذي دفع الإنسان لأن يسخر ما به راحته إلى شقائه وعذابه وتهديد أمنه وسلامه ؟

لاشك أن انحراف الغاية هو الذي أودى به .

لقد توهم أنه خُلِق للدنيا فحسب وهي محدودة .

ألا يحظى منها بأكبر نصيب وبأي سبب ومن أي طريق ؟

إن الإسلام العظيم وقد وجه نظر الإنسان إلى الكون ودعاه للتأمل والانتفاع بما فيه قد طالب بالعمل الدائب والسعي المستمر لغاية باقية خالدة .

نعم العمل الدائب بلا انقطاع حتى لو قامت القيامة وتلهى الناس بأهوالها وشغلوا بأنفسهم عن أي شيء . « طلب إليهم أن من بيده غرسا فليغرسه ولا يشغله شيء عن شيء » الإسلام العظيم لا ينكر على الإنسان أن يسكن القمر ، وأن يصل إلى أعلى ما يتصور ، وما لا يتصور من حضارة يحيا معها ، متمتعا بنعم الله آمنا في سعيه ، مطمئنا ليومه وغده ، متأهبا لساعة حساب ويوم جزاء ، وهو بهذا يتيح للصفات الإنسانية الحقة أن تأخذ سبيلها إلى واقع الحياة ، فتمنحها الأمن والألفة والتعاون والحب ، وتؤهل الإنسان للمستقبل الذي لو قيل على رأي الجاحدين أنه موضع شك ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [سورة الجاثية : ٢٤] . لكان من باب الحيطة أن يستعد الإنسان ، وهذا لا يعود عليه إلا بنفع ظاهر في داره التي يرغب فيها ويحرص عليها .

وذلك شأن الإنسان اليقظ الذي لا يلهيه شيء عن شيء ولا يشغله أمر عن أمر . فإذا كانت حياة الناس في الدنيا يتوقف أمنها وسلامها على الصفات الإنسانية من خير وبر ، وصدق وعدل ، وتعاون وألفة ، ومحبة ورحمة . كان الإسلام في حضارته واقعيا وفطريا وصادقا في خدمة البشرية ورعايتها .

إذ لم يقل : إن الإنسان روح فقط أو جسد فقط ، بل هو روح وجسد .

ولم يقل : خلق للدنيا فحسب أو للآخرة فحسب . بل خلق ليعمل في الأولى

مختبَرا وممتحَنا ثم ينتقل إلى الثانية مجزيا مخلدا .

ولم يقل : باب الوصول إلى الجنة والنعيم فيها رهبنة أو عزلة أو انصراف عن متع الحياة وملذاتها . بل قال : باب الكرامة فيها العمل الصالح والسعي النظيف والتأمل المثمر واليقين الباحث المتأمل .

باب الكرامة في الآخرة رعاية الإنسان من جميع جوانبه وحفظ حقوقه مع ألفة بارة وتعاون صادق ، وعفة تثير الحب وإيثار يشيع الرحمة ، ومعرفة تطرق باب الكون فتتعرف العظمة ودقة الصنع ، وتعود بما ظفرت على الإنسان ، لتنمي من مثله وتزيد من فضائله ، وتثير فيه دواعي الخير ، وهو يرى أن الكون بما اشتمل عليه متسع لجهود الناس أولهم وآخرهم ، وأن كل سر فيه من ورائه أسرار : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] والدنيا وقد قطعت من الزمن شوطا بعيدا ما زالت على جهالة بالكثير والكثير جدا من أمر كوكبها ، وما يشتمل عليه وما يحيط به .

فما بالك بما هو خارج عن هذه الدائرة من مخلوقات لا يحدها الحصر ، ومن نجوم وكواكب لا يحصيها العد .

ما زال الإنسان ابن أرضه وأسير وطنه ، ويوم أن يخرج من دائرة الأسر سيدرك أن غروره بنفسه وقد ظفر من الكون بشيء قد فوت عليه معرفة ما وراء هذا الشيء .

وسيدرك أن الخلق كله متسم بقداسة الصنع وحكمة التدبير فيوقن أن شيئًا كهذا لا يمكن أن يكون محض مصادفة أو عمل طبيعة .

وهو يرى منطق التدبير وآية الإحكام ودقة الصنع وعظمة التماسك وإعجاز الحركة وحركة الإعجاز في الكواكب ذات الأحجام الضخمة والخصائص المتنوعة مع قيام قانون يربط بينها وانتظام سلوكها في سعيها وعملها .

نعم يرى في الكون هذا وأكثر منه فينقلب البصر خاسئا وهو حسير .

ويدرك أن أمر هذا الكون عظيم وخطير ، وأن أمره هو بالنسبة إليه يسير وحقير .

الإسلام العظيم يقول : إن الإنسان روح وجسد وأن الدنيا ستعقبها آخرة ، وأن الموت بعده بعث ، والبعث بعده حساب وجزاء . ومن هنا يحدد الإسلام غاية الإنسان .

لو قيل لرجل الأمس : سنسافر إلى القمر عما قريب لقال : خرافة .

وضحك ملء فيه سخرية واستهزاء .

كما قيل للقوم : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ١٥ ، ١٦] فقالوا مستهزئين : ﴿ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۞ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [سورة ق : ٢ ، ٣] .

ولو قلت لمنكر البعث هذا : إنك ستسافر في رحلة إلى القمر ثم تعود . لقال : من يضمن لي السلامة في الذهاب والعود وعلي أي شيء أسير أعَلَى حمار أم بعير ؟

ثم رمى من قال له : صعدت ثم عدت . بالكذب والجنون والخلط والمجون . لكننا نحن اليوم ندرك أن وسيلة السفر ليست حمارًا أو بعيرا بل هي وسيلة من خلق آخر .

فإذا قال الإسلام : أن وسيلة الإيمان بالله البحث والتأمل والتفكر كان باب الدخول إليه هو التعرف على الكون والانتفاع بما فيه ، ثم الوصول منه إلى أن وراء السر أسرار ووراء الخلق حكمة وبعد الموت حياة وبعد الحياة بقاء مقرُون بنعيم أو شقاء . ولم تكن هذه مبهمات مع ما نرى في الكون من عجب وآيات ، وليس أسلوب المنكر لأمر البعث وهو يراه بعيدا .

إلا كأمر المتصور بالأمس استحالة السفر إلى القمر ، ونحن نراه قريبًا لأن أداة الوصول في نظره بغل أو حمار .

ونحن نرى اليوم أن أداة الوصول إلى القمر سفينة استعملت فيها الحكمة والملاءمة والدراسة والعلم والتجربة والأناة في فتح مغاليق الكون .

ولم نأت على الكون بخلق جديد بل جربنا استعمال ما فيه فعلمنا أن « الرصد

المغلق » له مفاتيح منبثة في الكون تطلب بالمعرفة واستعمال الفكر في أناة وصبر ، وأن كل باب يفتح فيه كنوز ومن ورائه أبواب .

إن أمر ما خفي لا يدرك بالإنكار والجحود ، وإنما يطلب بالسعي إليه والتعرف بوسائله ، فما أغرب أن يقول محمد ﷺ : « بالأمس سافرت إلى الملأ الأعلى ثم عدت » .

وما أقرب أن يصدق اليوم قوله ، ونحن نأخذ بأسباب السفر البعيد إلى غير كوكبنا ونرى أن ذلك شيء يسير . وقد كان بالأمس في نظر المتأمل القاصر عسيرا غير يسير .

ما أُنكِرَ بالأمس أُقِرَّ اليوم وهو واقع . وما ينكر من أمر البعث سيقر غدا ويرى المنكر جزاءه من عذاب واقع ما له من دافع .

وهذا منطق القرآن في استرعاء الأنظار إلى بداية الخلق والوصول منه إلى اليقين بالبعث : ﴿ مَن يُحْيِ العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة يس : ٧٨ ، ٧٩] .

وتعالوا بنا إلى العلم ونتائجه إذا لم يخدم قضية الإنسان من جميع جوانبه ويرعاه في خصائصه المادية وصفاته المعنوية ، ويرعاه في يومه وغده ويؤمنه في دنياه وآخرته .

فما قيمة العلم إذن وما فائدته ؟

ونحن ندرك أن خدمة طرف من الإنسان دون طرف والعناية بمرحلة دون مرحلة إخلال بالإنسان وتمزيق لشأنه وتنقيص لكائن حي موصوف بالإحساس والإدراك .

العلم في نظر الإسلام له رسالة وغاية .

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [سورة الأنعام : ١٢٢] ، ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٩] ، ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٤٣]

وغايته السمو بالإنسان كإنسان وإبراز خصائصه الذاتية على أوسع مدى ليظفر بنعم الله في أكمل صورة وينعم باليقين مدعما بسلطان الدليل .

والإنسان في نظر الإسلام من لحظة خلقه يمر بمراحل ليست الدنيا إلا إحدى هذه المراحل وتنشئة الإنسان في بطن أمه وإكمال خلقه بداية مرحلة ثم نزوله إلى قبره نهاية تلك المرحلة وبداية مرحلة أخرى .

وتلك عقيدة ليست مبهمة كما قلنا مرارا ، بل هي بينة متسقة مع الكون وحكمته وهي أيضا هادفة تصحح سلوك الإنسان في الدنيا وتؤهله لنعيم الله في الآخرة .

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٦٤] .

قلت : إنها عقيدة ليست مبهمة بل هي هادفة تدخل في سلوك الإنسان وعمله بالضبط والتهذيب وتقيم له من نفسه في سره وعلنه ألزم وأصدق رقيب .

وهي هادفة أيضًا لأنها تنفي العبث عن الخالق وتحدد الحكمة من الخلق .

وهي هادفة لأنها تفي بميزان الحق وإقامة العدل . فلا يبقى في الناس مظلوم وظالم ما دام خط السير ممتدا وما دام بعد الدنيا حساب وجزاء ما منه بد .

فلا يذهب الناس صرعى حسرة وألم يكفرون بالمصادفة التعسة التي أوجدتهم ولم تنصفهم وتركتهم ذئاب غاب يحيون معتدين بالظفر والناب .

إن هذه العقيدة تقول في صراحة ووضوح .

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ۝ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ المُنتَهَىٰ ﴾ [سورة النجم : ٣٩ - ٤٢] .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

[سورة الزلزلة : ٧ ، ٨] .

﴿ وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٤٧] .

﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [سورة الكهف : ٤٩] .

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ ﴾ [سورة النور : ٢٥] .

ويقول رسول الله ﷺ : « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله كائنا ما كان » .

عقيدة هادفة تمنح أكرم حرية للإنسان إذ تجعله يقرر أمر نفسه بنفسه وينال ما يرغب بسعيه وعمله وتلك مرتبة من السمو لا تدانيها مرتبة .

لأن الإنسان معها يظفر بإنسانيته وينعم بخصائصه ، والجميع مع هذا في نظر الله سواء يعلم صادقهم وكاذبهم : ﴿ أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ القِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة فصلت : ٤٠] .

والعلم في حقيقته يخدم هذه العقيدة ويدعم أمر اليقين بها .

أليس العلم نورا وكشفا ؟ وعلى الضوء والنور يمكن للإنسان أن يرى الشيء على طبيعته وفطرته أليس الجهل ظلاما وحيرة ؟ وهل يمكن تمييز الأشياء في الظلمة ومعرفة خصائصها وإقامة دليل عليها ؟

العلم يخدم قضية الإيمان مع قيامه براحة الإنسان .

والإيمان يخدم قضية السلوك مع وفائه برضاء الرحمن .

وإذا انعدم الإيمان وانحرف السلوك تحول نور العلم إلى نار وضياؤه إلى فتك ودمار ، وتحولت غايته من سمو بالإنسان إلى تسفل به ، ومن بر بالخلق إلى عبث بالمخلوق .

وما أظن أننا بهذا ننتقص العلم قدره ونحن نطلبه من المهد إلى اللحد ، وإنما نرجو أن يقوم مع سلطان العلم عدل اليقين ، وأن يستقيم على ضوئه أدب السلوك ، وأن تتحطم من خلفه مخبآت الهوى ودوافع الشهوة ، وأن تشيد من ورائه دوافع الحرص على الإنسان وكرامته ، وأن تدعم لقيامه حصون اليقين التي تحوط النفس من

الغرور وتحميها من التسلط والطيش ، وأن يكون العلم خادما للإنسان كله ، فلا ينفرد بخدمة جسده واستجابة غرائزه ، وينصرف عن تقويم روحه ورعاية صفاته وأخلاقه .

وهو « أي العلم » إنما ينمو بمواهب الإنسان وإدراكاته التي هي من خصائص روحه .

وهنا يبدو التماسك في القضية من جميع جوانبها .

كل يشيد الآخر ويبينه .

فالإنسان يعمل في حقل العلم ، مدفوعا بغريزة حب الاستطلاع ولذة المعرفة .

والعلم أيضا بنتائجه يدعم كرامة الإنسان ويصون حرمته .

وما أخال الذين ينشدون العلم لغير ذلك إلا قوما تلهو بنور المشكاة فتحولت في أيديهم من نور إلى نار ، ومن ضوء مرشد إلى ظلام محير .

تاه الناس معه في أودية الهوى ، وتخبط بعضهم في بعض وتقطعت صلات الرحم وبات الإنسان صريع تهديد مدمر وأسير حيرة مربكة .

وثارت الغريزة « غريزة حب البقاء » تطلب القوت وتنشد الراحة فعز الأول وذهبت الثانية .

وقام التنافس المسعور على العزيز فتحولت الراحة إلى شحناء أوقدتها ضراوة الضرورة الملحة والحاجة الملحفة .

فأين السعادة وأين الرخاء ؟

ما ينفق على الاستعداد للحرب أضعاف أضعاف ما ينفق لإشاعة الحُب وتوفير الحَبّ .

ولقد ذكرت سابقا أن صمام الأمن كله في هذه الآية من سورة « العلق » :

﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ [سورة العلق : ٨] .

وقد جاءت بعد الحديث عن العلم والقراءة والتعليم وبعد الحديث عن طغيان الإنسان وتسلطه إذا امتلأ واستغنى .

جاءت علاجا لأمره ورعاية لتسلطه وبغيه .

ولابد لهذه الآية أن تأخذ سبيلها إلى النفوس بآدابها وأسبابها واليقين بها والشعور بتبعاتها .

لابد من الاعتراف الصادق بأن بعد الدار دارا ووراء السعي المشكور أو الضال جنة أو نارا .

إن الإسلام قد طلب الإيمان بالله واليقين بدعوته عن طريق التأمل والنظر والبحث في الكون والاستفادة بما فيه .

والعلم بنتائجه يدعو إلى اليقين ويهدي إلى الإيمان وما أجمل أن يكون الباعث على العلم شعورا دينيا يخشع لقدرة الخالق في صنعه فيمضي بسلوك طهور بين خلقه .

ولنسمع إلى شهادة العلماء أنفسهم فيما أورده لنا الأستاذ الدكتور السيد علي السيد . رئيس مجلس الدولة في محاضرة له ألقاها بقاعة المحاضرات بالأزهر في مساء الثلاثاء ٢١ من أبريل سنة ١٩٥٩ م .

قال سيادته : بنور العقل والعلم وقف سقراط على عتبة التوحيد . إذ يقول : « إن كل جزء من أجزاء هذا الكون يتجه نحو غايته ، وتلك الغاية تتجه إلى غاية أعلى منها حتى يتم الوصول إلى نهاية مفردة وحيدة ، وليس من الممكن أن يحمل على المصادفة » وكان سقراط رجلا عالما يستعمل عقله في أوسع نطاق ، حتى في الشك ليصل إلى الحق ، ومع ذلك كان يصغي بصوت غير صوت العقل أسماه الإشارة الإلهية ففسر الحياة تفسيرا دينيا ، وقال : إنها ليست النهاية ، وفسر الموت وقال : إنه دفن للجسد وحده أما الروح فلها الخلود . وآمن بربوبية قادرة تدعو الناس إلى معرفة الحق وفعل الخير .

وانظر إلى الدكتور كرونين ، الذي بدأ ملحدا ثم اهتدى بالعلم .

إذ يقول : « إذا تأملنا هذا الكون وأسراره وعجائبه ، ونظامه ودقته وضخامته وروعته لابد أن نفكر في الله خالقه : من الذي يتطلع إلى السماء في ليلة صيف صافية . ويرى النجوم اللانهائية تتألق بعيدا ثم لا يؤمن بأن هذا الكون كله لا يمكن أن يكون محض المصادفة العمياء » ؟

ثم قال سيادته : وانظر إلى « لاباس » العالم الفلكي إذ يقول : « إن القدرة التي شكلت الأجرام السماوية وحددت كثافتها وأقطارها ومداراتها بنظام مستمر إلى الأبد لا يمكن أن تنسب إلى المصادفة » .

وانظر إلى « أرثر كومبتون » أحد حائزي جائزة نوبل في الفيزيقيا للكشوف الذرية إذ يقول :

« إني في معملي لا أعني إثبات حقيقة الحياة بعد الموت ، ولكني أصادف كل يوم قوى عاقلة ، تجعلني أحس إزاءها بأنه يجب عليّ أن أركع احتراما لها » .

وانظر إلى العالم « ادبختون » إذ يقول : « إن من وراء هذا الكون عقلا مدبرا حكيما هو العقل الأعظم ، وروحا ساميا هو الروح الأعظم ، هو الله سبحانه وتعالى » .

وانظر إلى آينشتين ، أعلم علماء الأرض في الكون وظواهره إذ يقول : « إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها ، تلك التي تستثيرها النفس عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني ، إن الذي لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته له حي حي كميت ، إنه خفاء لا تستطيع أن تشق حجبه ، وظلام لا تستطيع أن تطلع فجره ، ومع هذا فتدرك أن وراءه شيئًا هو الحكمة أحكم ما تكون وتحس أن وراءه شيئًا هو الجمال أجمل ما يكون ، وهي حكمة وهو جمال ، لا تستطيع أن تدركهما عقولنا القاصرة ، إلا في صور لهما بدائية وأولية » .

وهذا الإدراك للحكمة ، وهذا الإحساس بالجمال في روعته ، هو جوهر التعبد عند الخلائق وإذ يقول : « إن الشعور الديني الذي يستشعره الباحث في الكون هو أقوى حافز على البحث العلمي وأنبل حافز » .

وإذ يقول : « إن ديني هو إعجابي في تواضع بتلك الروح السامية التي لا حد لها ، تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي لا تستطيع إدراكها عقولنا الضعيفة العاجزة ، وهو إيماني العاطفي العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للإفهام ، إن هذا الإيمان يؤلف عندي معنى الله » .

قال : وانظر إلى « السير جيمس جينز » العالم الإنجليزي الشهير وهو يبين كيف انحسرت موجة الإلحاد المادي التي طغت في القرن الماضي فيقول : « أما الآن فالآراء متفقة إلى حد كبير في الجانب الطبيعي من العلم ، يكاد يقرب من الإجماع على أن نهر المعرفة بدأ يتجه نحو حقيقة غير مادية وغير آلية . وقد بدأ الكون يلوح أكبر شبها بفكرة عظيمة منه بآلة عظيمة ، ولم يعد العقل بعد دخيلا ألقت به المصادفة في عالم المادة ، بل بدأ يجول بخاطرنا أن من واجبنا أن نحييه ونعده خالق العالم المسيطر عليه ، ولسنا نقصد بهذا العقل بطبيعة الحال عقولنا الفردية ، بل نعني ذلك العقل الكلي الذي فيه على شكل فكر . تلك الذرات التي نشأت منها عقولنا ، وتلك المعرفة الجديدة تضطرنا إلى أن نعدل عن رأينا السابق .

ونحن واجدون في الكون دلائل على وجود قوة مدبرة مسيطرة بينها وبين عقولنا الفردية شيء مشترك » .

ثم قال سيادته : وانظر إلى الدكتور أحمد زكي في كتابه : « مع الله في السماء » إذ يقول :

« العالِم أكبر عابد ؛ لأن العلم هو سبيل لمعرفة الله ، وهو السبيل الأول والأقوم ، وهو آخر سبيل يجوز أن ترتفع إليه وبه . وأن المعرفة في ذاتها عبادة لأن الباحث في العلم إذا استهدف في علمه الكشف ، ولو بعض كشف في جوانب الألوهية فهو أكبر عابد وأكرم قائم وراكع وساجد ، وأن القارئ للعلم يريد به استكناه حقيقة هذا القائم الأعظم على الكون والقائم فيه ؛ فهو يعبد الله على أسلوب هو في صفوف العبادات فوق الأساليب ؛ لأن العقل فيه يتحرك نحو الله عن علم ويمتلئ به قلبه عن معرفة ويمتزج به قلبا وعقلا ، وجامعهما النور .. » .

ويقول : « إن العلم الحديث ولد منذ ثلاثة قرون ، والأضواء التي صبها على نواحي هذا الوجود كانت أضواء شديدة ما كشف بها لأعيننا وبالأخص لأفهامنا فيما لا تراه العيون الشيء الكثير ، واستعان الإنسان بكثير مما كشفه العلم في مطعمه ، وفي ملبسه ، وفي زرعه وصناعته وتجارته ، وفي ريفه ، وفي حضره ، وفي عمله ، وفي فراغه من عمله ، ووضع العلم مدنية عارمة يتضاءل إلى جانبها ما مضى وما عرفناه من مدنيات ، ولكنها مدنية مادية ، وما أحرانا – بإيمان العالم – أن نجعلها مدنية روحية ، ذلك الإيمان الذي يدرك ما في الكون من تنظيم وتنسيق ، ومن وراء ذلك عقل منظم منسق ، مدبر ، وندرك أن هذا النظام ، وأن هذا النسق فيه ، يجري على أسلوب واحد مهما اختلفت المواضع من هذا الكون .

فنسلم أن العقل المنظم المنسق المدبر في هذا الكون واحد ، هو الله الأحد الفرد الصمد . ثم قال سيادته :

انظر إلى أقوال هؤلاء العلماء . من آمن منهم بعد الإلحاد . ومن زاده العلم إيمانا فوق إيمان ، ثم تدبر قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

[سورة فصلت : ٥٣] .

﴿ وَقُلِ الحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

[سورة النمل : ٩٣] .

﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

[سورة الأنبياء : ٣٧] .

العلم يدعو إلى اليقين ويدعم قضية الإيمان .

ولكن ناسا يقولون : إن الدين قيد ولابد للنهضة من التخلص من القيد والتحرر من الرق .

ونبادر فنقول : إن الذين يريدون أن يرفعوا القيد الذي يحكم الهوى ويحدد الرغبة هم الذين يضعون القيد بالاستذلال للهوى والخضوع للرغبة .

إن وضع القيد الذي يبطش بالشر في مكمنه هو في حقيقته انطلاق بالإنسان في ميدان فسيح وكون مطلق .

وترك الإنسان يتشهى كما يحب وينفذ كل ما يرغب في الحقيقة وضع للإنسان في أضيق مجال ، وهو ينحصر مع الشهوة ويستذل بالرغبة .

فالذين يضيقون بما قرره الدين من بيان الحلال والحرام والجنة والنار ثم يقولون : إن الدين أسر وقيد إنما يطلبون الإنسان حيوانا يتبول حيث شاء ، وينهض كما يريد ، ويضرب برجله من حوله دون رقيب أو حسيب !

إن الإنسان إنسان يعظم حين يتحكم في غرائزه فلا تأسره رغبة أو تسترقه شهوة .

وما يقال عن الكبت أو القيد إنما هو سبيل الرفعة وسبب الظفر أو النصر : مقاتل في ميدان إذا لم يكبت في نفسه غريزة حب البقاء جبن وجر على نفسه وأمته الخزي والخذلان .

ومثله كل صاحب حاجة لابد أن يحكم لها الإرادة ، وبجرد العزيمة ، ويكبت في نفسه ما يعارض غايته أو ينحرف بقصده وإلا فأي فرق بين إنسان وحيوان ؟

وهناك أقوام يرون أن التمسك بالماضي جمود وقيد وأي ماض يعنون ؟

إن كان الماضي ماضي الدين الثابت المستقر المرتبط بخالق حي دائم فالدين ليس ماضيا بل هو قائم متجدد آخذ في أعماق الماضي باسق في سماء المستقبل ويكاد الغرور الأبله يطل من رءوس القوم وهم يلقون بتلك الكلمات الطائشة : دعونا من الماضي ، التمسك بالدين رجوع إلى الماضي وذاك قيد وجمود !

ما عمرهم بين الماضي والمستقبل وهم أفراد في جيل يرى من كون الله ما يرى ثم يرحل ، وسيبقى الدين بحقائقه الخالدة وارتباطه بخالقه قائما في الكون منبثا في أرجائه ؟

اللهم إنه الغرور الأبله أن يتمطى إنسان فيتوهم أن رأسه في السماء وأن يتمدد فيظن أنه قد أحاط بالكون من كل جهاته وألم به من جميع جوانبه ! وصدق

الله العظيم : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [سورة الحج : ٤٦] .

أي ماض يريدون ؟

وما ورثته الإنسانية من علم وحضارة إن هو إلا وليد الماضي بجهده وكده .

وما فعله إنسان اليوم لم يكن وليد لحظته أو ابن ساعته بل هو جهد الإنسان من يوم أن وجد يتوارثه الأبناء عن الآباء في سلسلة متصلة الحلقات متتابعة الأجيال .

إن قيل : نقطع صلاتنا بالماضي كان معناه في منطق الفكر ألا تمس أيدينا إلا ما صنعته اليوم وألا تمشي أرجلنا إلا على أرض أُنشئت لنا ولم يستعملها غيرنا ، وألا ينتفع بشمس انتفعت بها أجيال مضت في قرون خلت !

نحن بالماضي وعلى الماضي قائمون .

إن الماضي الذي يجب أن ننكره وأن نقطع صلتنا به هو ماضي الجحود والجاهلية المفرقة ، ماضي الهوى الكذوب ، ماضي كل تجربة أودت بالإنسان وانحرفت به عن غايته .

أما الماضي الذي استقر معنا استقرار الشمس في مدارها واستقرار الأرض في قرارها فلا يمكن التنكر له أو الانسلاخ عنه اللهم إلا في منطق الغرور الأبله والطفولة المسترجلة .

ليس كل ماضي يهمل وليس كل حاضر يقبل

بل للماضي أخطاؤه وللحاضر أيضًا أخطاؤه ، والإنسانية بارتباطها بالماضي تفيد من التجربة ، ومن واجبها في الحاضر أن تمحص ما ورثت وأن تهتدي بما جربت .

ولا بأس أن نقول : إن فلانا من ألف قرن قال ما دام قوله ينفع في الحاضر الذي نعيش فيه ، وإنكار قول الحق لأنه ماض إنما هو إفساد في الأرض بغير الحق .

وقضية العلم وهو يسبح بنتائجه في الفضاء ويكشف بحقائقه عن خصائص الأشياء قضية تنصف الماضي ؛ إذ هي تتدرج كالطفل في أحضان الزمن ، فإن هي شبت أو شابت – وما شبت ولن تشيب – فليس من الواقع في شيء أن تنكر أن

شيبها وشبابها قد سبقا بمراحل لولاها ما وصلت للشباب أو القوة والانطلاق اللهم إلا أن قيل : أن رجلا قويا منطلقا قد نزل من بطن أمه ، ولم يتدرج في نموه كما يتدرج الأحياء !

العلم هو ميراث الإنسانية كلها من آدمها الأول وقد علم الأسماء كلها ، وهبط بحوائه ينجب الأولاد ثم الحفدة فيرث هذا عن ذاك ويورث من بعده ، وهكذا دواليك حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

فالانقطاع عن الماضي – أي ماض – غرور وسفه واختلاس لجهود البشرية ونسبتها زورا إلى جيل حاضر .

نحن متصلون بالماضي في كل جوانبنا ومن جميع جهاتنا .

فما يقال عن الانقطاع عن الحق الثابت لأنه ماض أو متصل بالدين . يقال عن الاحتجاب عن الشمس لأنها ماض وأنارت للأقدمين .

ألسنا نحن أبناء الماضي ؟ ألسنا أبناء آبائنا وأجدادنا وهم من الماضي ؟

الحكمة ضالة المؤمن وهو أحق بها أنى وجدها .

والإنصاف طبيعة الحر الكريم ، والدين الإسلامي العظيم يعلمنا أن نتقبل دائما كل طيب ونمتنع عن كل خبيث مهما كان مصدر هذا أو ذاك .

وإذن لابد أن يكون لدينا ميزان لما نتقبله أو نرفضه : ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ ﴾ [سورة الأحزاب : ٤] وتلك أولى الصفات التي يجب أن يتصف بها العالم وأن يوطن كل إنسان نفسه عليها .

نعود إلى العلم فنقول : إن نظرة الإسلام إليه تتميز بأنها نظرة إلى الإنسان أولا ، تشييد له من كل جوانبه ، وأخذ بيده إلى ساحة الحياة وسعة الكون ، ليشهد من آيات ربه ، ويعي أمر خالقه .

وهي نظرة تضع صمام الأمن دائما في كل شيء ، وتجعل الطريق ممهدا للسير الآمن ، والسعي المطمئن .

فالعلم في الإسلام إنساني النزعة ، فطري المأخذ ، لا ينحرف عن القصد ، ولا يكفر بالإنسان ولا يتنكر للماضي .

والذين يتهكمون بالدين كلما رأوا تقدم العلم في الحضارة المادية إنما هم أحد رجلين :

إما جاهل بالدين ، لا يدرك من أمره إلا أن أوربا في حضارتها القائمة انخلعت عن الدين فظفرت بالدنيا ، وخرجت على الكنيسة فنعمت بالحياة فحكم على الدين كله حكم أوربا على دينها ، وحسب أن باب التقدم هو الباب الذي ولجته أوربا ، فراح ينال من الدين كله ، ويدعو للتخلص منه ، ليظفر بالدنيا وينعم بالحياة !

وإما عالم بشأنه حاقد عليه ، يعلم أن اليقظة التي تنبعث باسمه ، والحضارة التي تقوم على ضوء تعاليمه هي التي تحمل في خصائصها حقيقة الحياة وطبيعة الحركة المعمرة وهو قد ورث هذا الحقد ولم يتجرد بعد لقبول الحق ، فراح يرمي هذا الدين بكل قبيح وينشر بين بعض أهله — الغافلين — أننا تركنا الدين فتقدمنا ، فدعوا دينكم لتصلوا إلى ما وصلنا إليه وتفوزوا بما ظفرنا به .

وانخدع بعض الناس فنادوا بما نادى به الطامع الحاقد ، وراعهم أنه في مجد وحضارة ، ودنيا غاصة بالمتع ، وهكذا تعاون الجهل والعمى ، مع الطمع والحقد على دين الله . وظن أولئك أن الدين كله دين وأن الواحد كالثلاثة والتوراة والإنجيل كالقرآن ، نعم إنها كتب ثلاثة ، أسماؤها من عند الله وحقيقتها القائمة الآن في التوراة والإنجيل زور وبهتان من عند القوم وأكاذيب ملفقة من شهواتهم ، أقيمت مقام الأصل الصادق نسبت إلى الدين وحملت الاسم الصادق (التوراة والإنجيل) كما يكتب التاجر الغاش الكذوب على تجارته « تجارة الصدق والأمانة » ، فينخدع بالكلمة أناس يُخدَعون بالألفاظ ويركنون إلى بريق الكلمة .

أما القرآن فكلماته لم تبدل ، وحقيقته تلتقي مع حقائق الوجود ، وسماحة الفطرة .

القرآن يحمل في طياته دلالة صدقه ، ويحفظ بين دفتيه آيات إعجازه وسموه .

والقرآن الكريم يحرص على النظر في الكون والتأمل فيه ، ولا يجعل لرجال الدين

سلطانا يبيعون به صكوك الغفران أو جنة الرضوان ، ولم يأت نبيه ليحمل عن أتباعه الخطايا والذنوب ، وإنما جاء وهو يقرر عن نفسه ويقرر القرآن عنه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [سورة الكهف : ١١٠] .

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

[سورة الأعراف : ١٨٨] .

« يا فاطمة بنت محمد ، اعملي لا أغني عنك من الله شيئا » .

دين يسوي بين الناس جميعا ويجعل التفاضل بينهم بالتقوى والعمل الصالح ، دين رحمة وسلام ، دين حق وعدل ، دين أخوة إنسانية بارة ، ودعوة عالمية عادلة : « إن أباكم واحد وإن ربكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب » .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٠٧] .

ثم هو بعد ذلك ، دين الفكر الحر والإرادة المتجردة ، والمعرفة الراشدة ، والعلم الهادف . دين الحياة بكل ما في الكلمة من معنى ، لا رهبنة ولا عزلة ، ولا شعوذة ، ولا صكوك غفران !

أي شيء فيه يمكن أن يحول بين الإنسان ومتع الحياة الطيبة حتى يقال : دعوه لتظفروا بالحياة ، وكل شيء فيه داع إلى الأخذ بأسباب الحياة آمر ببذل الاستطاعة والجهد في تحصيل أسباب الرفعة والمكانة العالية في الدنيا والآخرة ؟

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٣٢] .

و« اليد العليا خير من اليد السفلى » .

أي شيء فيه يوهن العزم أو يضعف الإرادة حتى يقال : دعوه لتظفروا بالحياة ، وكل شيء فيه يقوي العزم ويجرد الإرادة ولا يدع سبيلا لِهَمٍّ يقتل النفس أو بلاء يعوق السعي ، أو مصيبة تطوي الفؤاد في حسرتها .

بل يجعل من التوكل على الله أملا باسما لا ينقطع ورجاء واسعا لا يضيق !

﴿ يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٨٧] .

توكل على الله لا تواكل ، ينبض بالحركة والسعي والتحسس وعدم اليأس ؛ أي شيء فيه يدعو للرضا بحياة الجهل والفقر والمرض حتى يقال : دعوه لتظفروا بالحياة ؟

وهو دين بني على النظافة ، وشيد على الطهر ، وأسس على المعرفة والعلم ، معجزته الباقية معجزة علم ومعرفة ، ورسالته رسالة عمل وسلوك ، وطريقه السعي في سبيل الخير لطلب حياة أفضل ، ونبيه يستعيذ من الفقر كما يستعيذ من الكفر !

أي شيء فيه يدعو أتباعه أن يكونوا ذيلا لقافلة ، أو كمًّا مهملا في الحياة لا يقام له وزن أو غثاء كغثاء السيل حتى يقال : دعوه لتظفروا بالحياة .

وهو الذي لا يرضى لأمته إلا أن تكون خير أمة أُخرجت للناس ، ولا يرضى لأتباعه أن يكونوا أبدا دون غيرهم منعة وقوة وحضارة وعلما ؟

هو لا يرضاهم إلا أن يكونوا سادة موجهين **وعلماء** مرشدين ، وقادة متبوعين لا تابعين وأغنياء متصدقين ، ويتوعدهم بجهنم **إن** جاءوا إلى الله مستذلين أو مستضعفين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [سورة النساء : ٩٧] .

واعجبا للذين فتنوا بنهضة العلم فظنوا أن الإسلام لا يمكنهم من الوصول إليها ، فحاربوه وما دروا أنه واضع أساسها وباعث نهضتها ، وأنه لا يقنع منها بالقدر

الذي فتنوا به ، بل يحرض على المزيد الذي لا يعرف له حد وعلى السمو الذي لا يحد .

واعجبا للذين انصرفوا عن الإسلام لأنه دين ، والدين هجره قوم فظفروا بالحياة وما دروا أن الإسلام هو دين الحياة يحتضنها بحقائقها الباقية ، ونواميسها الخالدة ، وتاريخها في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، غير أنه يجنب الإنسان الزلل ولا يرضى إلا أن تكون الحضارة سببا في سعادته ، لا في شقائه !

ولسنا متعصبين فيما ذكرنا ، بل على الدارس المنصف أن يتتبع القرآن الكريم في توجيهه ونصحه وإرشاده وحديثه عن العلم وتذكيره بنعم الله بصورة تدعو إلى النظر والتأمل في شأنها ، وأن يبصر أمره وهو يدعو إلى الإنصاف والعدل والبر واتباع الحق .

وعليه أن يتجرد من كل مؤثر وأن يكون رائده الحق ، والحق فقط .

وأن يكون مثله كمثل المخبار الحر النزيه الذي يسجل الحقائق كما هي ، دون تزيد أو نقصان ، ليدرك معنا أنه دين الحياة بصدق ، ويوقن كما أيقنا أنه هدية السماء إلى الأرض بحق ، وليعتقد كما اعتقدنا أن حضارته هي التي تسوق الأمن والسلام للإنسانية الظامئة إليهما ، والتي باتت من جراء تنكرها للحق وانصرافها عنه في فزع دائم ، وتوتر مستمر ، وكأنها خلقت لتجمع من أرض الله ما تصنع به جريمة الفتك بالأحياء ، وإشاعة الخراب في الأرض !

وإننا ندعو إلى دراسة هذا الدين كما تدرس النظريات العلمية التي تستوجب من الدارس نزاهة في الحكم ، كما نطلب أن يجرب اليوم في السلوك العملي كما جرب بالأمس ليقف الناس على النتائج بأنفسهم ، فإن أبى الناس إلا أن يحاربوه لأنه دين – والدين تركه قوم فظفروا بالحياة في زعمهم – فليعلم هؤلاء أن عملهم هذا اصطدام مع نواميس الكون وحقائق الوجود ، والعبرة مضت فيمن جحد أو حاد : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

[سورة آل عمران : ١٣٧] .

ومصداقا لما قدمنا من عدم التسوية بين دين ودين يمكننا أن نقيم الدليل على

صدق ما نقول وأن ننظر إلى المسيحية في أصلها لنقابل ذلك بالإسلام ونرى النتائج بالنسبة لكل منهما في الواقع والحياة .

قد يدعي القوم أن طبيعة الدين الإسلامي تأبى التسامح مع العلم ، وطبيعة الدين المسيحي تيسر لأهله التسامح مع العلم .

وقد يدفعهم إلى هذا الادعاء صرف الأنظار عن الإسلام ، ونسبة النهضة لدينهم – الذي انسلخوا عنه فنهضوا – ترضية للكنيسة وإعلانًا للولاء لها على صورة من الصور ، ناسين أو متناسين تاريخ الكنيسة مع العلم ، وما فعلته محاكم التفتيش التي أنشئت لمحاربة العلم والفلسفة ، بطلب الراهب « توركاندا » .

ولكي ننصف الأمر نود أن نتساءل أولا : أيهما أسبق إلى واقع الحياة المسيحية أم الإسلام ؟

إن المسيحية كانت قد قطعت أكثر من ستة قرون في الوقت الذي بدأ الإسلام ينتشر ويمتد ، فماذا وجد الإسلام ؟

إن وقائع التاريخ تفيد بلا مراء أنه وجد اضطرابا بين المسيحيين ، وحروبا طاحنة ، وظلاما وهمجية ، بل وجد انتكاسا على الدين نفسه وتشويها لحقائقه وتبديلا لأصوله وكذبا على رسوله ، وكانت حرية الفكر لدى القوم ضربا من الكفر وخروجا على تعاليم المسيح !

ويمكننا أن نرى الأمر بوضوح إذا تعرفنا أولا طبيعة المسيحية كما هي عند القوم في الأناجيل المعروفة لديهم الآن ، وتأملناها أيضا في واقع الحياة .

إن المسيحية اعتمدت أولا على خوارق العادات ، فليس للمسيح عليه السلام [1] دليل على صدق رسالته إلا ما كان يصنع من خوارق العادة ، ولا يخفى أن خارق العادة هو الأمر الذي يصدر مخالفا لشرائع الكون ونواميسه .

ثم إن الإيمان في المسيحية ولو كان مثل حبة خردل كاف في خرق نواميس

---

(١) « الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية » للإمام محمد عبده .

الكون كما قال في الإصحاح السابع عشر من متى ١٠ : « فالحق أقول لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل : انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم » .

ولاشك أن صاحب هذا الاعتقاد بهذا الأصل لا يحتاج إلى البحث في الأسباب والمسببات . لأن اعتقاده في الشيء أن يكون ، وإرادته لأن يكون كافيان في حصوله ، فهو غني عن العلم ، والعلم عدو لما يعتقد ، فما أصعب احتماله إذا جاء يزاحمه في سلطانه !

أين مجال العقل هنا ومجال البحث أو النظر ، وطريق الإقناع هنا معجزة خارقة للعادة تقنع من رآها بقوة التأثير من الخارج لا بقوة الإقناع والدليل من داخل النفس ؟

وإذا كانت المسيحية في أصل عقيدتها كما هي عند القوم تزهد في الدنيا وتدعو للبعد عنها . فكيف تتأتى النهضة وكيف تقوم الحضارة على يد قوم ينفرون من الدنيا كما ينفر السليم من الأجرب ؟

ولنتأمل حال الرهبان أنفسهم من قول الأستاذ « أبو الحسن الندوي » في كتابه : (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) تحت عنوان : « عجائب الرهبان » .

ظل تعذيب الجسم مثلا كاملا في الدين والأخلاق إلى قرنين ، وروى المؤرخون عن ذلك عجائب ، فحدثوا عن الراهب مكاريوس أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرض جسمه العاري ذباب سام ، وكان يحمل دائما نحو قنطار من حديد ، وكان صاحبه الراهب يوسيبيس يحمل نحو قنطارين من حديد ، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزح .

وقد عبد الراهب يوحنا ثلاث سنين قائما على رجل واحدة ، ولم ينم ولم يقعد طول هذه المدة فإذا تعب جدًّا أسند ظهره إلى صخرة !

وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائما ، وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع ، والآبار النازحة والمقابر ، ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش ، وكانوا يعدون طهارة

الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون من غسل الأعضاء ، وأزهد الناس عندهم وأنقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس !

يقول الراهب اتهيتس : إن الراهب أنتوني لم يقترف إثم غسل الرجلين طوال عمره ، وكان الراهب ابراهام لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة .

وقد قال الراهب الإسكندري بعد زمن متلهفا : واأسفاه ! لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراما ! فإذا بنا الآن ندخل الحمامات !

وكان الرهبان يجولون في البلاد ويختطفون الأطفال ويهربونهم إلى الصحراء والأديار ، وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربونهم تربية رهبانية والحكومة لا تملك من الأمر شيئا ، والجمهور والدهماء يريدونهم على ذلك ويمتدحون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمهم ، وعرف كبار من الرهبان ومشاهير في التاريخ النصراني بالمهارة في التهريب حتى روى أن الأمهات كن يسترن أولادهن في البيوت إذا رأين الراهب امبروز ، وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئا ، انتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس .

هل يمكن أن يتم على يد هؤلاء نهضة لدنيا أو صلاح لدين ؟

أين هذا من الإسلام ، الذي يطلب الإيمان عن طريق الإقناع والدليل ، وينشده بالتأمل والنظر في الكون ؟ ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٩١] . ومعجزته الباقية القرآن معجزة علم ومعرفة ، وهو كتاب مفتوح كصفحة الكون تتداوله الأجيال ، وتراه الأمم ، ويعتوره الفكر ، فلا ينقطع مده ، ولا ينتهي أثره ؟

وتلك من الخصائص التي تجعل الدعوة الإسلامية دعوة عالمية إذ الإعجاز باق لا يختص بزمان دون زمان أو مكان دون مكان !

ثم إن المسيحية تعطي رجل الدين في الكنيسة السلطة في الحكم على أعمال الناس ، فإذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص : إنه ليس بمسيحي صار كذلك ، فليس المعتقد حُرًّا في الاعتقاد ، بل إيمانه على شفتي رجل الدين في الكنيسة ، وليس يقينا

يستمده من قلبه ، وهذا أمر إن ناقضه المسيحيون اليوم أو تجردوا عنه فقد ظلت الكنيسة عليه خمسة عشر قرنا .

أين هذا من الإسلام الذي يجعل الناس جميعا أمام الله سواء ؟ نبيه يقرر عن نفسه : ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [سورة الكهف : ١١٠] ويقرر القرآن عنه : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [سورة الغاشية : ٢٢] ، وليس في الإسلام رجل دين يملك الحكم على قلوب الناس واعتقادهم ، بل إن كل فرد مسئول عن عمله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [سورة النجم : ٣٩] ، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [سورة الإسراء : ١٥] . ولكل فرد أن يدخل هذا الدين بمحض اختياره بلا إكراه أو استكراه : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٦] ، ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

[سورة الكهف : ٢٩] .

والمسيحية أيضا تدعو أتباعها إلى التجرد عن الدنيا ، بالانقطاع إلى الملكوت ، وكفاك أن تقرأ هذا في الإصحاح التاسع عشر – ٢٣ : « الحق أقول لكم أنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السموات » – ٢٤ : « وأقول لكم أيضا إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله » . وفي الإصحاح العاشر – ٩ : « لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم » . ١٠ : « ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا » !

ومن مظاهر الانخلاع عن الدنيا في المسيحية حثها على الرهبنة وترك الزواج !

فماذا يكون حظ صاحب الاعتقاد بمثل هذا من النظر في أي علم ، والعلم لا دخل له في شئون الحياة ، والدنيا قد حرمت عليه ؟

أين هذا من الإسلام الذي يقرر : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

[سورة الأعراف : ٣٢] .

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾

[سورة القصص : ٧٧] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٢] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [سورة المؤمنون : ٥١] . « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا » .

ثم إن المسيحية تعتقد أن الكتاب المقدس أساس كل علم ، وكذلك تقاليد الكنيسة وعلى الناس اتباع أمرهما مهما خالفا العقل أو ناقضا شاهد الحس .

أين هذا من القرآن الذي يسترعي النظر إلى الكون ويعلي من قدر العلم ويحث على التأمل ويقرر أصولا عامة لا تصطدم بحقائق العلم ومنطق الفكر ، ثم يطلب النظر في كل شيء حتى في تعاليمه نفسها وفي ذلك إعلاء لكرامة الإنسان أي إعلاء وتقديس لحريته واستثارة لمواهبه واستنهاض لعزيمته ؟

والمسيحية أيضا بمذاهبها المختلفة تؤمن أن الإيمان منحة ولا دخل للعقل فيه : قال القديس أنسيلم :

« يجب أن تعتقد أولا ما يعرض على قلبك بدون نظر ، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت » !

شتان بين هذا وبين الإسلام الذي يطلب الإيمان أولا ، عن طريق النظر والتأمل والفكر .

وبهذا الأصل في المسيحية لا يمكن الفرد إلا أن يكون ملزما باعتقاد ما يفرض عليه وأن يدير عقله في الحدود التي رسمها هذا الاعتقاد فإذا اصطدم مع بدهيات العقل سلم به ولم يحاول أن يتخلص منه وإلا خرج على الدين .

أين هذا من الإسلام الذي يجعل العقل حكما في قضاياه ، مدعما لفرائضه ، مؤيدا لشرائعه وهو يطلب الإيمان عن طريقه : « وما يعقلها إلا العالمون » ؟ [1] .

ثم لنتأمل سماحة المسيحية وهي تقول كما جاء في الإصحاح العاشر من إنجيل متى – ٣٤ : « لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض . ما جئت لألقي سلاما

---

(١) مرجع البحث : « الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية » .

بل سيفا » – ٣٥ « فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها » – ٣٦ « وأعداء الإنسان أهل بيته » !

وهذه الروح السارية في قوله : « ما جئت لألقي سلاما » قد لازمت القوم وتحكمت في أعمالهم حتى فيما بينهم وهم ينظرون إلى من خالفهم نظرة عداء تتطلب منهم دائما وفي كل حال رفع السيف وإراقة الدماء !

أين هذا من الإسلام الذي يقرر بالنسبة لمخالفيه ؟

﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة الممتحنة : ٨] .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

[سورة المائدة : ٨] .

نتيجة لهذه التعاليم وتلك الأصول في المسيحية فيما نحن بصدده ، رأينا الكنيسة تضيق أشد الضيق بأي تفكير خارج عن تقاليدها مخالف لما تعارفت عليه ، ورأيناها ترى السلامة في ترك التفكير والأخذ بالتسليم ، وتقرر عند القوم قاعدة « الجهالة أم التقوى » ، « والعلم عدو الدين » .

كل شيء يرجع فيه إلى الكنيسة . حتى قيل : ظهرت ذات الذنب التي تنسب إلى هالي في سنة ١٦٨٢ م ، فاضطربت بظهورها أوربا ، ولجأت إلى البابا تستجير به ، فأجارهم وطردها من الجو ، فولت في الفضاء مذعورة ولم تعد إلا بعد خمس وسبعين سنة .

إزاء ما قدمنا ونتيجة له نجد أن العلم لا يكاد يذكر في ديار المسيحية إلا حين استقر الإسلام في الأندلس وامتد ضوؤه إلى أوربا ، حينئذ فقط بدأ النزاع بين سلطة الكنيسة ومعتقداتها وبين العلم الوافد من أرض الإسلام .

ولقد كان لاحتكاك الأوربيين بالمسلمين في الحروب الصليبية من جانب وقيام الإسلام في نابولي وصقلية والأندلس من جانب آخر الأثر البالغ في التعرف على الإسلام وأهله .

فقد رجع الغزاة من الصليبيين إلى بلادهم يحملون أخبارا عن المسلمين تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رجال الكنيسة ، وكانت الأندلس فردوسا بجزار القفر المجدب من بلاد أوربا ، وكان اليهود والنصارى مع مخالفتهم للمسلمين يتلاقون في تلك البلاد الإسلامية في ظلال الأمن والتسامح والحرية ، وكانوا يجدون من حسن المعاملة وحرية الدرس ونشر العلم ما جعلهم يتعلقون بالنهضة الإسلامية ويتمنونها في بلادهم .

ولكن أنى لهم والكنيسة بتقاليدها ورجالها تأبى عليهم أن يستعملوا فكرهم إلا في حدود ما رسمته الكنيسة وما يأمر به رجالها ؟

ثم انتشرت صناعة الورق على يد المسلمين ووجدت المطبعة وسهل انتقال المعرفة وانتشار العلم وانساب إلى أوربا شيء من العلم والمعرفة التي تزخر بها ديار الإسلام ، وبدأ الفكر الأوربي يردد عجائب ما يرى وما يسمع من مجد المسلمين وحضارتهم .

عندئذ فزعت الكنيسة ، وأخذت تحارب – بحرقة وحقد – كل جديد يظهر على ألسنة الناس مما يخالف الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة .

قال دي رومنيس : إن قوس قزح ليست قوسا حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد ، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء ، فجلب إلى أوربا وحبس حتى مات !

ولم يكتف بهذا بل حوكمت جثته وألقيت في النار ، ومن عجب أن يقال في علة الحكم عليه : « أنه أراد الصلح بين كنيسة روما وانجلترا » .

يا له من تسامح يأبى الود والتفاهم بين أهل دين واحد فما بالك بغيرهم ؟

نعم فزعت الكنيسة وأخذت تعد لكل شيء عدته ، فأنشأت المراقبة على المطبوعات ، فعلى كل مؤلف أن يعرض مؤلفه أو ما يريد طبعه على القسيس أو المجلس الذي عين للمراقبة ، وأنشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة الوافدين من أرض الإسلام واللذين يخشى أن يشيع أمرهما في أرض القوم وديارهم !

ولقد قامت المحكمة بأعمالها حق القيام ففي مدة ١٨ سنة من سنة ١٤٨١ م إلى سنة ١٤٩٩ م حكمت على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصا بأن يحرقوا

وهم أحياء فحرقوا ! وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير ، فشهر بهم وشنقوا ، وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثة وعشرين شخصا بعقوبات مختلفة فنفذت ، ثم أحرقت كل توراة بالعبرية !

والوسيلة في المحاكمة أن يسجن الشخص ثم يعذب فيعترف فيقدم للمحاكمة وينفذ الحكم !

ولقد قرر مجمع « لاتران » سنة ١٥٠٢ م أن يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد ! واشتدت محكمة التفتيش في طلب أولئك المجرمين من طلاب العلم والبحث عنهم في المدن : في البيوت ، في السراديب ، في الأنفاق ، في المخازن ، في المطابخ ، في المغارات ، في الغابات ، في أي مكان !

قرر مجمع « لاتران » أن تكون وسائل الاطلاع على أفكار الناس بالاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكي أمام القسيس في الكنيسة : « أي الاعتراف بالذنوب طلبا لغفرانها » . فكانت البنت أو الولد يحضر أمام القسيس فيسأله عن عقيدة أبيه أو أخيه أو أهله ، فإذا ما اشتبه في كلامه استدعى المسئول عنه واقتيد للسجن والتعذيب ثم المحاكمة والتنفيذ !

واستطاعت المحكمة المقدسة « محكمة التفتيش » أن تثير الرعب في أهل أوربا جميعا ، وكفانا أن نعلم أن هذه المحكمة من يوم نشأتها سنة ١٤٨١ م إلى سنة ١٨٠٨ م حكمت على ثلاثمائة وأربعين ألف نسمة منهم مائتا ألف أحرقوا بالنار أحياء !

ولما كان ابن رشد أستاذا مسلما ، وكان اليهود مهتمين بتلقي فلسفته ونشر أفكاره – صب أيضا غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين ، وصدر مرسوم ضد اليهود في ٣٠ من مارس سنة ١٤٩٢ م بأن كل يهودي لم يقبل المعمودية في أية سن وعلى أية حال يترك بلاد أسبانيا قبل شهر يوليو ، ومن يرجع إلى البلاد يعاقب بالقتل ، واستلزم هذا خروج اليهود تاركين أموالهم فارين بأرواحهم التي ما سلمت لهم هي أيضا في السفر البعيد ونفاد القوت والزاد !

وفي فبراير سنة ١٤٩٢ م نشر الأمر بطرد أعداء الله المغاربة « المسلمين » من أشبيلية وما حولها ، ومن لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد أسبانيا قبل شهر أبريل !

وتعجب حين ترى « برونو » يحرق بالنار حيا بعد حبس طويل سنة ١٦٠٠ م لأنه قال بقول الصوفية في وحدة الوجود ! وقال : إن هذا العالم يحتوي على عوالم كثيرة .

وأعجب من هذا حين ظهر القول بكروية الأرض بين المسلمين ، فقد أحدث ذلك اضطرابا شديدا في عالم النصرانية .

ولقد قضت الكنيسة على كريستوف كولمبس في سفره إلى المحيط الأطلانطيقي لعله يكشف أرضا جديدة بأن عمله هذا مخالف لأصول الدين ! حكم بهذا مجتمع سلامونك ولم يفده أو ينقذه إلا معاونة بعض الملوك برغم الكنيسة التي عرضت أمره على أقوال الآباء ورسائل الرسل والأناجيل والنبوات والزبور والأسفار الخمسة !

قال كريستوف كولمبس : إن الذي أوحى إليه بهذا القصد النبيل إنما هي كتب ابن رشد .

« السلطة للقسوس والطاعة للعامة » وكل رأي لا يصدر عن هذه السلطة التي تربط وتحل في الأرض والسماء فهو باطل يجب مقاومته بشتى الوسائل .

ومن المضحكات أن رجال الكنيسة ثارت ثائرتهم عندما نقلت امرأة تسمى ماري مونتاجو سنة ١٧٢١ م إلى أوربا إدخال الحقن تحت الجلد بمادة المرض ، وقد اكتشفت هذه الطريقة الطبية عن المسلمين .

وفي الآستانة : عارض رجال الكنيسة وقامت قيامة القسوس ، وكذلك عندما اكتشفت طريقة تطعيم الجدري .

والكتب وما أكثرها نالت حظها هي الأخرى من الإعدام والحرق حتى قيل :

إن الكردينال اكسمنيس أحرق في غرناطة ثمانية آلاف كتاب بخط القلم !

أين سماحة المسيحية التي مكنت لأهلها أن يقيموا نهضة أو يتقبلوا علما ؟

خير ما يقال عن الدينين المسيحي والإسلامي :

« ترك النصارى دينهم فتقدموا ، وترك المسلمون دينهم فتأخروا » !

نعم ترك المسلمون دينهم فتأخروا لأن دينهم هو دين العقل والمنطق والحجة وكتابه الكريم في منهجه الفذ قد جعل العقل حكما واتخاذ الدليل والبرهان أساسا لإدراك الحقائق وتقبل المعرفة حتى في الإيمان بالله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٢] وفي مجادلة الخصم يطلب البرهان والدليل : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١١١] .

والقرآن الكريم حافل بالآيات التي تدعو إلى التأمل والنظر وتحرض على استعمال الحواس والعقل .

وقد سفه القرآن الكريم التقليد والإذعان : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

[سورة البقرة : ١٧٠] .

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾

[سورة الأعراف : ١٧٩] .

وما أجمل أن تسمع القرآن الكريم في محاجة الخصم يقول : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

[سورة الأنعام : ١٤٨] .

﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ [سورة النجم : ٢٨] .

ولذا كانت معجزة القرآن عامة لا يختص بها عصر دون عصر ولا قوم دون قوم، بل الإعجاز قائم مع الزمن ، لأن ما احتواه من المباديء السامية ، والمثل العليا وما اشتمل عليه من أصول كلية ، يصلح بها أمر الناس ، وما احتواه من آيات كونية وما تحدث به عن النعم بصورة تدعو إلى التأمل والفكر مع الإفادة والنفع . كل ذلك

يجعله كتاب الكون وكتاب الحياة وكتاب الإنسانية كلها في خط سيرها الممتد حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

والقرآن كما تعلم قد أفاض في الحديث عن العلم حتى ذكرت كلمة العلم ومشتقاتها في القرآن ٧٧٨ مرة هذا عدا الألفاظ التي تدعو للتفكير والتدبر والتذكر والنظر .

لذا لا نغالي إذا قلنا : إن حرية الفكر وحرية البحث وإعلاء صرح العلم في هذاالدين مقدسة قداسة الدين نفسه .

ولذا نقرر مطمئنين أن القرآن والقرآن فقط هو الذي فك أسار العقل ، وأخرج الناس من ظلمات الضلالة والأوهام ، ومن حماقات الجهل والشرك ، وبدأ العقل على يد الإسلام يؤدي وظيفته على أوسع نطاق بعد أن كبل قرونا بالتقاليد والأوهام ، وبدأت الدنيا ترى رجالا يرفعون باسم الدين منارة العلم ، وينشرون أسباب النهضة الكاملة ، في جميع نواحي الحياة ، ولم يفهم المسلمون من مدلول العلم ما يتصل بالشريعة فحسب ، بل أدركوا منه أنه كل معرفة يتوصل بها إلى خير الدنيا ، وسعادة الآخرة .

وما أجمل أن نقف قليلا عند الآية من سورة « فاطر » التي تتحدث عن السماء والثمار والجبال والناس والدواب والأنعام ثم تقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [سورة فاطر : ٢٧ ، ٢٨] .

ما أجمل التعميم أولا في كلمة العلماء وما أجمل أن يأتي قبل الكلمة حديث عن أمور كثيرة تستوجب النظر كما تتطلب العلم والمعرفة لإدراك خصائصها ومعرفة أسبابها وطرق الانتفاع بها !

لم يفهم المسلمون قط عن العلم أنه ما يتصل بشئون دينهم فحسب وإسلامهم لا يفرق بين دين ودنيا ، بل فهموه عاما شاملا ، لذا وجد من المسلمين آلاف من فطاحل العلماء في شتى العلوم العقلية من الرياضيات والطبيعيات وما وراء الطبيعة .

فإذا قررنا بعد ذلك أن الإسلام هو الذي منح المسلمين بل أتاح للإنسانية كلها أن تتعرف على حقائق الكون عن طريق التجربة والملاحظة والتتبع والاستقراء والموازنة والترتيب ثم الاستنباط فإنما نقرر الحقيقة التي يشفع لها البرهان ، ويصدقها الواقع التاريخي ويقطع بها قيام القرآن بين أيدينا شاهدا ومرشدا وهاديا .

وعلى ضوء ما عرفناه عن الإسلام وما سقناه عن المسيحية نود أن نتعرف على النتائج في الواقع العملي للحياة .

وسنرى مصداق ما قلنا : من أن ديار المسيحية لم يتح لها أن ترى النور وأن تخرج من حماقة الجهل ، وعسف الكنيسة ، إلا حين احتكت بأمم الإسلام خلال الحروب الصليبية ، وعن طريق المعاهد التي أقامها المسلمون في الأندلس ونابولي وصقلية .

نتيجة للتعاليم الإسلامية التي تحدثنا عنها انطلق المسلمون في رحاب الأرض – وهم مرتبطون بوحي السماء – يبنون أكرم حضارة إنسانية عرفها التاريخ ، ويشيدون أبرز نهضة فتحت أمام الإنسانية أفاقا بعيدة في دراسة الكون والإفادة بما فيه .

يقول الأستاذ الإمام « محمد عبده » :

« المسلمون مسوقون بعامل من دينهم إلى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ، ولا يرضيهم ذلك ما دون الغاية ، ولا يتوافر شيء من وسائل ذلك إلا بالعلم – فهم مدفوعون أشد دفع إلى طلبه وتلمسه في كل مكان ، وتلقيه من أية شفة وأي لسان ، فإذا لاقاهم العالم في أي سبيل أو عثروا به في أي جيل ، أو ظهر لهم من أي قبيل ، هشوا له وبشوا ، وشدوا به أواصرهم وعقدوا عليه خناصرهم ، ولا يبالون ما تكون عقيدته إذا نفعتهم حكمته « والحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » .

ألم يأتهم عن ربهم : ﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٦٩] ألم يسمعوا في وصفهم : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [سورة الزمر : ١٨] .

ذلك شأن المسلم من العلم إذا كان مسلما حقًّا ، وذلك ما تدعوه إليه طبيعة دينه .

نعم كان من نتائج تعاليم الإسلام أن جالت عقول المسلمين في الكون تبحث وتنقب ، وتبني النتائج على التجربة والملاحظة ، وهم يتقبلون العلم ويطلبونه من أي إنسان ، وعلى أي إنسان : « لا يبالون ما تكون عقيدته إذا نفعتهم حكمته » .

عمرو بن العاص يفتح مصر فيسمع عن « يوحنا النحوي » ، وهو رجل مسيحي من اليعقوبيين ، يسمع عن فلسفته وعلمه ومنطقه ، فيقربه منه ويكرمه حتى قال بعض الفلاسفة الغربيين :

إن المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ، ويوحنا النحوي ، ترينا مبلغ ما يسمو إليه العقل العربي من الأفكار الحرة ، والرأي العالي ، بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل في التوحيد المحمدي أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع .

والمأمون يجعل من شروط الصلح بينه وبين ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكتبات الآستانة فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس في الرياضة السماوية ، فأمر المأمون في الحال بترجمته وسموه بالمجسطي .

وتبعًا لتلك النهضة عنيت ديار الإسلام بدار الكتب حتى كان في القاهرة وحدها في أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مائة ألف مجلد ، منها ستة آلاف في الطب والفلك .

وفي أسبانيا مكتبة الخلفاء بلغ ما فيها ستمائة ألف مجلد وكان فهرسها أربعة وأربعين مجلدًا ، وكان في أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة [١] .

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ، والإسلام والنصرانية .

وانظر إلى مكتبات الأفراد بجوار المكتبات العامة فهي تدل على مدى ما ظفرت به هذه الأمة من تقدير للعلم ووفاء بحقه .

يقال : « إن سلطان بخارى دعا طبيبًا أندلسيًّا ليزوره : فأجابه أن ذلك لا يمكنه لأن كتبه تحتاج إلى أربعمائة جمل لتحملها وهو لا يستغني عنها كلها » وكانت الكتب تتداول بلا أدنى مراقبة .

وكان التنافس بين الأمراء والوزراء في إعلاء مقام العلم والعلماء وبسط اليد والإنفاق ومساعدة الفقراء على طلبه دعامة يشيد بها مجده ويخلد بها ذكره ، وكانت الأقاليم تنافس بعضها بعضًا ، وكانت المدارس تقام على أدق نظام وأكمله حتى أن نظام الامتحان بصورة جادة هادفة كانت تظفر به مدارس المسلمين ، وجميع المدارس الإسلامية أخذت نظام الامتحان من مدرسة الطب في القاهرة ، وكان أشد الأنظمة وأدقها ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته إلا على شريطة أن يكون ذلك بعد شهادة بأنه فاز في الامتحان على شدته ، وكانت جامعة قرطبة في أيام الحكم الثاني أعظم جامعات الأرض تقرأ فيها العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والكيماوية .

وأول مدرسة طبية أنشئت في قارة أوربا على هذا النظام المحكم هي التي أنشأها العرب في « سالين » من بلاد إيطاليا ، وأول مرصد فلكي في أوربا هو الذي أقامه العرب في أشبيلية من بلاد أسبانيا .

يقول الفيلسوف جوستاف لوبون : « إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حركة الفكر مع استقامة الدين » .

ولنتأمل الآن نهضة العرب في بعض شئون الحياة المختلفة لنرى بحق أنهم واضعو أسس الحضارة العلمية الحديثة :

١ - الفلك ومعرفة حجم الأرض :

قال بيكوروين : نشأ توسع علم الفلك من توسع الرياضيين في الحساب ، لأنهم اخترعوا أساس حساب المثلثات ، وحققوا طول محيط الأرض ، بما كان لهم من أدوات ، وحققوا طول البحر الأبيض المتوسط الذي قدره بطليموس بـ ١٢ درجة

فأرجعوه إلى ٥٤ أولا ثم إلى ٤٢ أي الصحيح من مقداره تقريبًا .

وجمع المأمون بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التي نسبت إليه وصوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه ، وبره وبحره وعامره وغامره ، ومساكن الأمم والمدن إلى غير ذلك ، وأقاموا المراصد الفلكية في بغداد والرقة ودمشق والقاهرة وسمرقند وقرطبة وفارس .

وعملوا جداول فلكية مدققة .

ولهم أعمال فلكية جليلة في أبحاث سمت الشمس ، ومعادلة الليل والنهار ، والبقع الشمسية ، واصطنعوا الآلات الفلكية كالاصطرلاب ونحوه ، واختص علماء الفلك منهم باختراع الآلات لقياس الوقت بالساعات المتنوعة ، وكانوا السابقين إلى استعمال الساعة الرقاصة .

ولقد عرف العرب حجم الأرض بقياس درجة سطحها ، وعينوا الكسوف والخسوف ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة ، وقدروا طول السنة ، وأدركوا الاعتدالين وقالوا بكروية الأرض ، وقد وصف علماء الجغرافيا منهم الأصقاع البعيدة التي كانت تختلف إليها القوافل .

يقول أحد الفلاسفة : « لا أدري كيف أعطانا الإسلام في مدة قرنين عددًا من الفلكيين يطول سرد أفراده ، وأن الكنيسة تسلطت على العالم المسيحي أحد عشر قرنا في أوربا ولم تمنحنا فلكيًا واحدًا » [(١)] .

٢ – الكيمياء الحديثة والانتفاع بالمعادن :

نهض العرب في فارس والأندلس وصقلية وإفريقية لاستثمار المعادن وأخذوا يستخرجونها من مناجمها ويحسنون تطريقها والانتفاع بها ، واستخرج الأندلسيون وأخذوا من مناجمهم الزئبق والتوتيا والحديد والرصاص والفضة والذهب ، وأخرج الصقليون جميع ما حوت جزيرتهم من معادن ومنها الفضة والذهب ، واستثمر العرب

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ، والإسلام والنصرانية .

المناجم التي صارت مِلكًا لهم في بلادهم في الشرق والغرب ، واستخرجوا الحديد في خراسان والرصاص في كرمان ، والقار والنفط وطينة الأواني الصينية ورخام طوريس والكبريت .

وهم الذين أنشأوا علم الكيمياء وكشفوا بعض أجزائها المبهمة كحامض الكبريتيك وحامض الفضة والنتريك ، وهم الذين استخدموا هذا العلم في المعالجات الطبية فكانوا أول من نشر تركيب الأدوية والمستحضرات المعدنية . ولقد كشف كيماويوهم وأطباؤهم خواص النشادر وحامض الآزوت والكبريت والمياه المعدنية وأدخلوا كذلك في تركيب أدويتهم مواد من نبات بلادهم كالكافور والراوند والسنامكي وعرفوا حامض الكبريت واستخرجوه من الزاج بالتقطير وعرفوا ماء الفضة وطرق إذابة الذهب ، وملح النشادر وحجر الكي ، والسليماني .

ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم .

٣ – الطيران :

سبق العرب الأوربيين إلى الطيران وقد حاوله عباس بن فرناس حكيم الأندلس والذي نسب إليه أنه أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة ، وأول من فك الموسيقى ، ووضع الآلة المعروفة بالمثقال ليعرف بها الأوقات .

٤ – الطب والجراثيم والأدوية والمستحضرات :

كان العرب في الأندلس يعرفون الجراثيم ، وكانت وقايتهم من الأمراض تكاد تشبه وقاية أهل العصور الحديثة ، وكانوا أول من نشر تركيب الأدوية والمستحضرات من النباتات والمعادن ، وسبقوا إلى معرفة مرض النوم وسموه النوام ، وشرحوا أعراضه ، واستعملوا الماء البارد في الحمى الدائمة ، وحاول جراحوهم تفتيت حصاة المثانة وقدح العين واستخرجوا منها العدس الشفاف ، ويظهر أنهم عرفوا البنج ومعظم المستحضرات والأدوية المستعملة ، كالأشربة والدهون ، والمراهم ، والسنامكي ، والراوند ، واستلزمت أصول تداويهم أن يعمدوا إلى استعمال الفتائل ، وإلى الحجامة في أمراض الصرع ، وكانوا أول من نشر تركيب الأدوية ، والمستحضرات المعدنية ،

واستخرجوا من كتب الطب اليوناني التجريبي ، وهو طب العقاقير والحبوب .

٥ – الطباعة وصناعة الورق :

سبق العرب أيضًا إلى معرفة الطباعة ، وقد ألف أبو بكر القدسي الأندلسي كتابًا في الخواص وصنعة الأمدة وآلة الطبع ، وكان عبد الرحمن بن بدر من وزراء الناصر ، ومن أهل المائة الرابعة ، ينفرد بالولايات ، فيكتب السجلات في داره ، ثم يبعثها للطبع فتطبع وتخرج إليه فتبعث إلى العمال ، وينفذون على يديه أي أن الأندلسيين عرفوا الطبع قبل مخترعه المشهور جوتنبرغ الألماني بأربعمائة سنة .

والعرب هم الذين أدخلوا إلى أوربا الورق المصنوع من القطن والورق الرخيص الثمن ، وكان الناس يكتبون على البردي على غلوه ، وكانت معامل شاطبة في أسبانيا تصدر الورق إلى أوربا الغربية على حين كانت أوربا الشرقية تبتاع ورقها من بلاد الشرق الأدنى ، يشهد بذلك اسم الورق الدمشقي (شارتا دا ماسينا) وصنع الورق من الحرير في سنة ٦٥٠ هـ في سمرقند وبخارى ، ثم استبدل يوسف بن عمرو سنة ٧٠٦ هـ بالحرير القطن ، قال جوتيه : إن العرب علمونا صنع الكتاب وعمل البارود وإبرة السفينة فعلينا أن نفكر في احتمال قيام نهضتنا ومداها لو لم تكن من ورائها هذه المخلفات التي وصلتنا من المدنية العربية .

٦ – الميكانيكيات :

العرب هم الذين قرروا في الميكانيكيات نواميس سقراط عن الأجسام ، وكان لهم رأي جلي من جهة طبيعة الجاذبية ، ورأي سديد في القوات الميكانيكية ، واصطنعوا في نقل الموائع وموازنتها الجداول الأولى للجاذبية النوعية وكتبوا مقالات في عوم الأجسام وغرقها [1] ، وأصلحوا في علم البصريات خطأ اليونان بكون الشعاع يصدر من العين ويمس المرئي فيظهره ، فقالوا : إن الشعاع يمر من المرئي للعين ، وفهموا مساس انعكاس النور أو انكساره وكشفوا عن طريق الشعاع المنحرف في الهواء .

---

(١) « الإسلام والحضارة العربية » ، للأستاذ محمد كرد علي .

٧ – النبات والزراعة :

أظهر العرب بمهارتهم مزايا فواكه الفرس وأزهار إقليم مازندران وقد أغنوا العلم ولا سيما علم النبات بمسائل جديدة كثيرة .

وذكر ويليام ديلكوكس من أعاظم مهندسي الري في هذا العصر أن عمل الخلفاء في ري العراق في الأيام الماضية يشبه أعمال الري في مصر ، والولايات المتحدة الأمريكية ، واستراليا في هذا العصر .

إن العرب استعملوا جميع أنواع الزراعة ، التي وجدوها في مملكتهم ، وحملوا كثيرًا من النباتات إلى صقلية وأسبانيا وربوها في أوربا فأحسنوا تربيتها ، وذلك مثل الأرز والزعفران والقنب والمشمش والبرتقال والنخل ، والبطيخ الأصفر والعنب والعطر والورد الأزرق والأصفر والياسمين بل والقطن والقصب .

ولقد جرى أمراء العرب على أصول الأرض بفتح الترع فحفروا الآبار ، ووضعوا المصطلحات لتوزيع المياه ، ونقلوا إلى أسبانيا أسلوب النواعير لرفع المياه والسواقي التي توزعها ، وأن سهول « بلنسية » التي جاءت كأنها حديقة واحدة هي من بقايا عمل العرب وعنايتهم بالسقيا .

ونظم العرب ديوان المياه ، الذي كان يرجع إليه في وسائل الري .

٨ – العلوم الرياضية والهندسية :

قال درابر : « من عادة العرب أن يراقبوا ويمتحنوا ، وقد حسبوا الهندسة والعلوم والرياضة وسائط للقياس » .

ومما تجدر ملاحظته أنهم لم يستندوا فيما كتبوه في الميكانيكيات ، والسوائل ، والبصريات على مجرد النظر ، بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما لديهم من الآلات ، وذلك ما هيأ لهم سبيل ابتداع الكيمياء وقادهم لاختراع أدوات التصفية « والتبخير » ورفع الأثقال .

ودعاهم إلى استعمال الربع والاصطرلاب على الهيئة ، واستخدام الموازنة في الكيمياء مما خصوا به دون سواهم ، وهيأ لهم صنع جداول للجاذبية النوعية وعلم

الهيئة على نحو ما صنع مثلها في بغداد والأندلس وسمرقند ، ففتح لهم باب تحسين عظيم في قضايا الهندسة وحساب المثلثات واختراع الجبر واستعمال الأرقام في الحساب ، وكان هذا كله من نتائج استعمالهم طريقة الاستدلال والامتحان .

ولم يقرروا في علم الهيئة اللوائح فقط ، بل رسموا خرائط النجوم المنظورة في فلكهم أيضًا .

وقد توصل العرب إلى إثبات تناسب جيوب الأضلاع لجيوب الزوايا المقابلة لها في المثلث ، ووضعوا هذه القاعدة أساسًا للطريقة التي سموها الشكل المغني في حل المثلثات الكروية .

وللعرب في باب الهندسة الإبداع الذي أقرهم عليه كل عارف ، ولم ينازعهم فيه منازع ، تجلى في هندستهم وحبهم للزخرف .

واخترعوا القوس المقنطر ورسم البيكارين ، وجعل تفننهم في هندسة القباب والسقوف والمعرشات من الأشجار والأزهار كجوامعهم وقصورهم بهجة لا يبلى على الدهر جديدها ، ودلت كل الدلالة على إيغالهم في حب النقوش والزينة .

وبحق « كانت أبنيتهم ومصانعهم ثيابا من ثياب السرق تفنن حائكها في رقشها ونقشها » كما قال أحد العارفين من الإفرنج .

وقد أخذت أوربا من العرب تفاصيل في الزينة ، ووجدت على بعض البيع في فرنسا ، صور حروف عربية منحوتة في الحجر ، وأكاليل على بعض الحصون ، تشبه الطراز العربي ، وكثير من كنائس فرنسا تأثر بالهندسة العربية ، ولاسيما في المدن التي كانت لها علاقات كثيرة مع الشرق .

وقد جلب الصليبيون من الشرق أصولا هندسية منها بيت المؤذن في المنارات والمشربيات والمراصد في الأبراج ، والزغاليل والأبراج الناتئة ، والأفاريز ذات الدرابزين .

واستخدمت فرنسا كثيرًا من مهندسي الأجانب ، وكان فيهم العرب حتى أن كنيسة « نوتردام دي باري » المشهورة في عاصمة فرنسا عمل فيها مهندسون من العرب .

أما تأثير العرب في هندسة أسبانيا فظاهر ظهور الشمس ولا ينكره إلا أعمى أو مكابر .

٩ – التجارة :

أحرز العرب قصب السبق دون غيرهم في مضمار التجارة ، ورقوا صناعة البحرية ، ووضعوا قوانين الملاحة ، واقتبسوا من الصينيين استعمال إبرة السفينة وضبطوا التجارة بفن « مسك الدفاتر » ضبطًا جيدًا وشرحوا الكفالة وأنشأوا المصارف للفقراء ، ووضعوا السفاتج « الكمبيالات المألوفة » وردود التمسك « البروتستو » وبعثوا الحركة في مصارف الغرب الحديثة ، وحيث نزلوا يمهدون السبل ويعمرون المرافق ، ويصلحون الفنادق والرباطات ، ويرتبون سير القوافل ، وكانت المدن الإسلامية من الأوساط التجارية الكبرى .

ولقد كشف العرب بلادًا بغير أقدامهم لم توطأ ورسموا المصورات للغربيين وحببوا إليهم التنقل والترحال .

وكانوا يرحلون إلى الهند يبتاعون مصنوعات الأمم الصناعية ليحملوها إلى الشعوب البربرية في أوربا وينقلوها في البر والبحر .

واستلزم هذا نبوغهم في هندسة الموانى .

وصف القدسي ميناء عكا التي بناها أبو بكر البناء المهندس لابن طولون ، والطرق التي استعملها في هندستها لتدخل إليها المراكب آمنة حتى عد هذا الميناء من العجائب .

١٠ – الصناعات المختلفة :

اشتهرت في القرون الوسطى الأواني الزجاجية والمصابيح الملونة العربية التي انتقلت من الشام إلى معامل البندقية ونسجت على منوالها ، وكذلك تعلم البنادقة صنع المرايا وكانت تصنع في صور ، ومن البندقية انتقلت إلى أوربا ، ونقل من الشام والعراق إلى الأندلس صنع السيوف الدمشقية والأقمشة .

ومنها الدمشقي نسبة إلى دمشق ، والموسليني نسبة إلى الموصل وهو

الشفوف ، ثم عرفت هذه الأصناف في بلاد الغرب ، كما انتقلت إلى بلاد الغرب أيضًا ثياب الحرير المزركشة بالفضة والذهب ، والشاش الموصلي ، والشفوف والحبر المخمل والورق والسكر وعمل الحلويات والمشروبات .

١١ - الحرب والفروسية :

أخذ الإفرنج أصول الفرسان من العرب يوم كانوا يقيمون السباقات في كل مضمار من بلاد البحر المتوسط . كما أخذوا عادة الفروسية التي ليس لها ما يعوقها من ثقل ومتاع .

واقتبس الغربيون في الحروب الصليبية من العرب أصول نسف حصون المدن ، وما كان في معسكراتهم من يعرف معالجتها ، فاضطروا إلى أن يأخذوا من الشرق رجالا متخصصين في عملها ، وقد أخذوا يوم حصار صور سنة ١١٢٤ هـ رجلا أرمنيا من أنطاكية ليعلمهم صنعها ، وأخذ الصليبيون أيضًا عن العرب طريقة استعمال النار اليونانية - أي الصواريخ - وهي من أفظع ما يكون إحراقًا إذا اندلع لهيبها ، عنوا بذلك عناية خاصة منذ أدخل صناع دمشق تحسينًا كبيرًا سهل استعمال هذه النيران فاستعملها صلاح الدين في حصار عكا سنة ١١٩٠ هـ وقال : وكانت دمشق في الذروة العليا من حيث صناعتها ، تصنع فيها دروع تقي وقع السهام وكانت تصنع في دمشق أيضًا خوذ ، ذات حافات كاملة ، وسيوف جميلة محلاة معمولة بالفولاذ .

ولقد تعلم الصليبيون من العرب في الحروب الصليبية التخفف من الأثقال ، وعرفوا أن الفارس الذي يخف محمله أقرب إلى السلامة من المثقل ، وتعلموا من العرب أيضًا المرونة في الفروسية والاحتياط لما فيه سلامة المحارب .

وأن انتصار العرب في القرون الوسطى قام على قوة في الجندية لاشك في تفوقها ، وأن الإفرنج نقلوا عن العرب عادة استعمال الدروع ، في وقعة بواتيه بين العرب وشارل مارتيل .

والغالب أن استعمال حمام الزاجل ، في المفاوضات البعيدة ، أخذها الإفرنج عن العرب في الحروب الصليبية .

هذه لمحة خاطفة عن نهضة المسلمين في شتى نواحي الحياة ، إذا نحن قابلناها بما كانت عليه أوربا ألفينا أن القياس بين موت وحياة وبين ظلام ونور ، ووجدنا أنه في الوقت الذي كانت الدولة الإسلامية تنعم فيه بأسباب الحياة الكاملة ، كانت أوربا مدثرة في أكفان الموتى وعفن القبور !

وتلك شهادة القوم أنفسهم فيما نقله لنا الأستاذ محمد كرد علي في كتابه : « الإسلام والحضارة العربية » تحت عنوان : (حالة الغرب في شباب الإسلام) .

« في القرون التي كان العرب فيها ينعمون بلذائذ العقل والعمل ، ويأخذون من مسرات الحياة الفاضلة أوفر نصيب ، ويهاب سطوتهم البادي والحاضر في كل قطر دخلوه أو لم يدخلوه ، ويؤلفون كتبًا منطوية على علم كثير وأدب غزير ، وتعرف لهم وثبات ظاهرة وحكومات ناهضة ، في هذه القرون كان الغربيون متوحشين جاهلين لا يعرفون الترف ، ولا يتذوقون عيش الرفاهية ، لا أمن ولا إدارة ولا ملوك يعرفون واجبهم في إقامة العدل وتوطيد الأمن ، وهم في كل أحوالهم إلى حياة البوادي أقرب منهم إلى حياة المدن والحضارة وإلى أمد ليس ببعيد لم يعرف ملوكهم ، فضلا عن سوقتهم ، المراحيض ولا الحمامات وكانوا يبصقون على الطنافس والمقاعد حتى في قصور العظماء !

كانت انجلترا الانجلو سكسونية ، في القرن السابع الميلادي إلى ما بعد العاشر ، فقيرة في أرضها ، منقطعة الصلة بغيرها سمجة وحشية ، تبني البيوت بحجر غير نحيت ، وتشيدها من تراب مدقوق ، وتجعلها في منخفض من الأرض مساكن ضيقة المنافذ غير محكمة الإغلاق ، اصطبلات وحظائر لا نوافذ لها ، ولم يكن الناس أحسن سكنًا وأمنًا من الحيوانات . يعيش رئيس القبيلة في كوخه مع أسرته وخدمه ومن اتصل به يجتمعون في قاعة كبيرة ، في وسطها كانون ينبعث دخانه من ثقب فتح في السقف فتحة غليظة ، ويأكلون كلهم على خوان واحد ، يجلس السيد وقرينته في أحد أطراف المائدة ، ولم تكن الشوكات معروفة .

وللأقداح حروف من أسفلها ، فكان على كل مدعو أن يمسك بيده قدحه ،

أو يفرغه فيه دفعة واحدة ، وينتقل السيد إلى غرفته في السماء بعد أن يتناولوا الطعام ويعربدوا على الشراب . ثم ترفع المنضدة والصقالات ، وينام جميع المجتمعين في تلك القاعة على الأرض أو على دكان ، واضعًا كل فرد سلاحه فوق رأسه . لأن اللصوص كانوا من الجرأة ، بحيث يجب على الناس أن يقفوا لهم بالمرصاد ، في كل حين لئلا يؤخذوا على غرة !

وكانت أوربا في ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة ، متأخرة في زراعتها تنبعث من المستنقعات الكثيرة في أرباض المدن روائح قتالة تجتاح الناس وتحصدهم .

وكانت البيوت في باريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ، ولم يكن فيها نوافذ ولا غرف منسقة ، وكانت البسط مجهولة عندهم . لا بساط لهم غير القش ينشرونه على الأرض ، ولم يكونوا يعرفون النظافة ، وكانوا يلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم ، فتتصاعد منها روائح مزعجة .

وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال وكثيرًا ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات الداجنة ، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش ، فوقه كيس من الصوف ، يحمل مخدة أو وسادة ، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح . .قال درابر :

« وكان من أثر ذلك أن عمت الجهالة أوربا ، وساورتها الأوهام ، فانحصر التداوي في زيارة الأماكن المقدسة ومات الطب وحييت أحابيل الدجالين ، وكلما دهم البلاد وباء ، فزع رجال الدين إلى الصلاة وأغفلوا أمر النظافة ، فكانت الأوبئة تفتك بهم فتكًا ذريعًا ، وقد زارت الأوبئة أوربا مرارًا فاجتاحت الملايين من أهلها في أيام قليلة » .

ثم يقول سيادته في موضع آخر عن أوربا الشرقية :

« أما حال أوربا الشرقية فكانت إلى الهمجية المطلقة أقرب ، بل إن تاريخ روسيا لم يكن بدأ في القرن التاسع للمسيح ، وكانت الأصقاع الواسعة مسرحًا لبعض قبائل الصقالبة ، يتسلط الشر عليها ويسومونها سوء العذاب ، بل دامت أيام الجهالة في روسيا إلى ما بعد ذاك العهد بقرون .

ولقد شبت فيها نار حرب أهلية لخلاف وقع في معرفة عدد الأصابع التي يجب استعمالها في عمل إشارة الصليب ؛ ولم تخلص روسيا في الحقيقة من كابوس الجهل المطبق إلا في القرن الثامن عشر على عهد مصلحها بطرس الأكبر .

هكذا كانت أوربا تحت سلطة الكنيسة وتعاليمها وإمرة البابواتُ الذين يتصرفون فيها كما يشاءون ، ويتصرفون في الأرواح ، والأشباح كما يحبون » .

استمع بعد ذلك إلى شهادة القوم أيضًا ، ينقلها إلينا الأستاذ النابه محمد كرد علي في كتابه السابق الذكر :

لا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذي أثره العرب في الغرب إلا إذا تصور حالة أوربا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة ، وإذا رجعنا إلى القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، يوم كانت المدنية الإسلامية في أسبانيا زاهرة باهرة ، نرى أن المراكز الوحيدة في عامة ديار الغرب كانت عبارة عن مجموعة أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين ، يفاخرون بأنهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون ، وكانت الطبقة العليا المستنيرة في النصرانية عبارة عن رهبان فقراء جهلة يقضون الوقت بالتكسب في ديرهم بنسخ كتب القدماء ، ليبتاعوا ورق البردي اللازم لنسخ كتب العبادة .

وطال عهد الجهالة في أوربا وعم تأثيره حتى لم تعد تشعر بتوحشها ، ولم يبد فيها بعض الميل للعلم إلا في القرن الحادي عشر ، وبعبارة أصح في القرن الثاني عشر .

ولما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلا بالحاجة إلى نفض الجهل الثقيل الذي كان الناس ينوءون تحته طرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه ، لأنهم وحدهم سادة العلم في ذاك العهد ، ولم يدخل العلم أوربا في الحروب الصليبية كما هو الشائع ، بل دخل الأندلس وصقلية وإيطاليا ، وفي سنة ١١٣٠ هـ أنشئت مدرسة للترجمة في طليطلة برعاية ريموند رئيس الأساقفة وأخذت تترجم إلى اللاتينية أشهر مؤلفات العرب وعظم نجاح هذه الترجمات وعرف الغرب عالمًا جديدًا .

ولم تفتر الحركة في هذه السبيل خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر ، ونقلت إلى اللاتينية كتب الرازي وأبي القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم ..

كما نقلت إليها كتب اليونان أمثال جالينوس وابقراط وأرسطو وإقليدس

وأرخميدس وبطليموس ، وهي الكتب التي كان المسلمون قد نقلوها إلى لسانهم .

يمكنك بعد هذا وبعد ما تقدم ، أن تحكم : هل كان للدين دخل في الحضارة أو لا ؟ ويمكنك أيضًا أن تفرق بين دِين ودين ، بين دين صنعته أهواء البشر ونسبته إلى الله كذبًا وزورًا ، وبين دين يحمل في طياته شهادة قاطعة بأنه دين الله رب العالمينُ ، وقد رأيت من واقع الحياة مدى تأثير هذا أو ذاك ، كما رأيت من أين جاءت الحضارة ؟ وعلى يد من حملت ؟ وهل كانت نهضة القوم نتيجة لتعاليم دينهم أو لتأثرهم بحضارة الإسلام ؟

ثم رأيت أن الإسلام بحقائقه الخالدة هو صاحب الفضل على الإنسانية كلها إذ فتح أمامها آفاق المعرفة وهداها إلى أسباب اليقين .

وهو صاحب الفضل في إيجاد نهضة شاملة في جميع نواحي الحياة ، وهو بعد ذلك دين الإنسانية الذي يعصمها من الزلل ويحفظها من التردي في مهاوي القطيعة والأثرة والهوى الكذوب ، ويجعلها دائمًا تنظر إلى أعلى وتمتد بأعمالها الصالحة إلى المستقبل آمنة مطمئنة وهو دين موسى وعيسى وإبراهيم ومحمد . كرمهم جميعًا وأشاد بفضلهم جميعًا وطلب إليهم ولأتباعهم أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه .

وهو وحده الذي يملك الرحمة والسلام للعالمين لأنه دين الله رب العالمين .

وبعد فلست في حاجة إلى أن أنوه بجهد المسلمين في علومهم الخاصة بشريعتهم في جميع النواحي ، فذاك وحده بحر زاخر لم تعرف الدنيا له مثيلا فشريعتهم هذه هي التي تولت تخرجهم سادة وقادة وعلماء للإنسانية كلها ، أمناء صادقين ، متحابين متعاونين ، مخلصين للحق عادلين .

وهي التي تتولى دائمًا هذه الرسالة للعالمين كلما اقترب الناس منها وأخذوا أنفسهم بأدبها ، لذا كان اهتمامهم بها وتنافسهم على دراستها في أصولها وفروعها أمرًا يلتقي عليه خاصتهم وعامتهم وتزخر به مدنهم وقراهم .

وقد عرفت أيضًا أن خلود الإسلام بمعجزته ليست في بقاء الأحرف والسطور فحسب ، بل في الآيات التي نوه بها وطلب الإيمان عن طريقها والتأمل في شأنها ،

فهي أيضًا آيات باقية ما بقي الإنسان .

تقبل الأجيال ثم ترحل والأرض هي الأرض والسماء هي السماء .

فإذا جاء القرآن ليقول : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ [سورة يس : ٣٣] فالأرض قائمة لا تنتهي بوفاة نبي ولا بموت رسول .

وإذا قال : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ [سورة يس : ٣٧] . فالليل والنهار قائمان ما بقيت الحياة وما وفد الأحياء .

وإذا قال : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ المَشْحُونِ ﴾ [سورة يس : ٤١] . فالبحر الزاخر قائم يحمل الوافدين وهو يلقي بعبرته وزخره إلى الأولين والآخرين .

أليست هذه وحدها دلالة على أن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ؛ وأن هذا الدين دين الله رب العالمين ؟

بقي بعد ذلك أن نتساءل إذا كان الدين الإسلامي بهذه المثابة ، فلم تأخر أهله وظمئت دياره وأجدبت أرضه ؟

لِمَ لا نرى أثرًا للإسلام بين أهله وهم يحملونه وهم أولى الناس بأن ينتفعوا بما فيه وبخاصة أنه يمنحهم حياة كاملة وحضارة متكاملة ؟

وهل يمكن أهل دين آخر أو ملة أخرى أن يتجهوا إلى الإسلام أو يؤمنوا بحقيقته وهم يرون بعض أهله على أسوأ حال من الجهالة والتأخر وفساد الدنيا والدين ؟

قد يقال : على الناس أن يدرسوا الإسلام ليدركوا حقيقته من حيث هو بدون نظر إلى أتباعه ولكن الناس معذورون ، إذا لم يدرسوا ويتقبلوا هذا الدين ؛ فإنما يغريهم بالدراسة ويدفعهم إلى التطلع والبحث ما يرونه من أسباب التقدم والرفعة ، وإذا أمكن لفرد أو أفراد أن يتجردوا للدراسة فهل يمكن ذلك جميع الناس ؟

ونحن نقول : أن الإسلام دين الحياة ، أي دين واقع عملي لا دين فلسفة نظرية مجردة فأين واقعه بين أهله ؟ بل أين تأثيره في سلوك أبنائه ؟

الحق أنها فتنة !

ولقد قلت : أن الظلم ظلمان : ظلم الإسلام بين أبنائه إذ لم يحملوه بل حملوا عليه ، وظلم من الناس إذ ظنوه ممثلا في خلق المنتسبين إليه فانصرفوا عنه .

والحق أيضًا : أن الحملة على الإسلام مقصودة ، وأن وجود تناقض بين حقيقة الإسلام وواقع المسلمين أمر دبر بليل ، وما الحملات الصليبية التي تعرضت لها ديار الإسلام – وما زالت – بأنواعها المختلفة إلا وليدة المؤامرات والأحقاد المتوارثة .

والحق أيضًا أن هذه المؤامرات وتلك الحملات قد أدت أغراضها ، واستطاعت أن تقيم التناقض فعلا بين حقيقة الإسلام وواقع أهله ، ثم وقفت في العالمين تنادي :

يا لبؤس المسلمين بإسلامهم ! هم في فاقة وعوز في حاجة إلى عون ومساعدة فلنمدهم بما يطلبون ، أو بالأحرى فلنجهز على كل ما بقي من أمرهم باسم الدواء والعلاج والمعونة والمساعدة والشفقة والرحمة !

ولنرقب عن كثب عمل الإسلام فيهم فلا نترك أمرًا يقام باسمه ، أو نبتًا ينبت في أرضه أو ثمرًا يطيب في حقله ، وبيد أبنائه يتم المراد ، وعلى يد أتباعه يقع المقصود !

نعم وقع التناقض فعلا بين حقيقة الإسلام وواقع المسلمين ونجحت المحاولات في إذابة المسلمين وصرفهم عن دينهم كما نجحت المؤامرات في صرف الأنظار عنه وتحويلها إلى بريق المدنيات الناشئة التي أخذت عن الإسلام خصائصه في حرية الفكر وأسس التأمل والبحث وفتن البلهاء بما في ديار القوم من حضارة مادية وغنى مادي ، وعادوا يحقرون دينهم – وهم مخدوعون – إذ ظنوا أن الدين يحول بينهم وبين أرفع حضارة ينشدها البشر !

تأملوا ما هم عليه من سوء حال وما عليه غيرهم من تقدم وحضارة ، فراعهم البون الشاسع والفرق البعيد ، فراحوا يقلدون غيرهم ويتمثلونه في قوله وفعله .

وذاك قصد أصيل للحملة المدبرة والمؤامرة المسمومة بأن يأخذ المسلمون عنه وأن ينشئوا على التقدير لحضارته والاعتراف بفضله وأن يناسوا أن ما بيد الغير نوره من

ديارهم وأساسه من حضارتهم التي عمرت في الأرض قرونًا .

ولا بأس عند القوم أن يزوّر التاريخ وأن يفهم المسلمون أن دينهم لا يفي بنهضة أو أن الحضارة التي قامت باسمه منقولة عن غيره ، فما تم في ديار الإسلام من نهضة واسعة في كل ميدان إن هو إلا جهد السابقين نقله المسلمون وأفادوا بما فيه !

وما كان المسلمون في أوج عظمتهم إلا قنطرة عبرت عليها معارف السابقين ، وليس لدينهم فضل ولا لإسلامهم منة ، ولا لكتابهم في حضارة الإنسانية من أثر !

لذا نحن معذورون إذ قلنا للإنسانية كلها ، والمسلمون معها : ادرسوا هذا الدين ولا تتأملوه اليوم في سلوك المنتسبين إليه ، فإن واقعهم ينسب إلى الإسلام زورًا ، وقد حيل بينه وبينهم من أمد بعيد .

لا تظلموا هذا الدين ولا تجحدوا فضله فإنه فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وهو الحقيقة الباقية التي تصحح أوضاع الحياة وتفي للناس بما هم في أمس الحاجة إليه من أمن النفس وطمأنينة القلب وسمو الفكر ورخاء العيش واستقامة السعي ، كما تفي للناس بالتعاون في إيثار والمسالمة مع القدرة في أدب وحب ، والمتعة في غير تسلط أو بغي ، والطمأنينة في غير دعة أو سكون ، وحب الحق وتجريد النفس له ، واتباع الصدق والتعارف عليه ، وإقامة العدل دون تمييز أو تفرقة ، وطلب العلم في تواضع وصبر ، وبذله في غير مَنٍّ أو أذى .

ادرسوا هذا الدين العظيم ، وادرسوا أسباب الجهل بين أهله والانحطاط بينهم فلن تجدوا سببًا يمت إليه .

ادرسوا تروا أن التنكر لهذا الدين خسران للإنسانية كلها وتعريض أمنها وسلامها للخطر .

إن الخسارة ليست خسارة المسلمين وحدهم ، وإنما هي خسارة الإنسانية التي تطلب اليوم لدائها علاجًا ، ولخوفها أمنًا ولحربها سلمًا ، وهي اليوم تملك أسباب الخراب والدمار ، فلا عليها إلا أن تملك أسباب الأخوة والأمن والحب والتعاون والرحمة وستجد ذلك كاملا في دينها وإسلامها فلن يفي بأمن العالمين ، إلا دين من رب

العالمين : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩] .

وكل ما يمكن أن يقال في هذا المجال : أن نتائج العلم الباهرة يمكن أن تضع في يد الإنسانية أساس الاعتراف بقوة مدبرة ، ترعى الكون ، وتصونه ، وتمسك أمره وتحكم حركته .

ولقد أراح نفسي كثيرًا هذا التساؤل الفطري من لسان رجل الفضاء الثاني يوم الجمعة ١١ من أغسطس سنة ١٩٦١ م بقاعة جامعة موسكو في مؤتمره الصحفي ، وقد نقلته جريدة الأهرام في عددها الصادر في ١٩٦١/٨/١٢ م . قالت الجريدة بالحرف الوحد ، وهي تنقل حديث تيتوف عن مشاهدته في الرحلة قال : « ولو سئلت عن منظر الأرض لقلت على الفور : إنني كنت أستطيع أن أميز الأنهار والجبال والحقول المزروعة وهذه التي تم حصدها ، وفي بعض الأحيان كان يظهر أفق الأرض من خلال فتحة السفينة وهو منظر ممتع حقًا .

وكذلك كان من المثير فعلا أن أميز السحب من الثلوج التي تكسو قمم الجبال بالظل الذي تصنعه السحب على الأرض ، ولكن أروع من هذا كله منظر الأرض وهي معلقة في الفضاء ، إنه منظر لا يستطيع الإنسان أن ينساه أو يضيع من خياله !

لقد شهدت الأرض في هذه اللحظات قريبة من الصورة التي نشهدها مرسومة في الخرائط ، وهي عبارة عن كرة أرضية ، وهي معلقة في الفضاء وليس هناك من يحملها كل ما حولها فراغ ، فراغ ، فراغ !

لقد أصبت بالذهول مدة لحظات وسألت نفسي في دهشة :

« ترى ما الذي يبقيها هكذا معلقة هناك ؟ لقد كانت تبدو وكأنها معلقة فوق رأسي أنا » .

إنه تساؤل فطري : « ترى ما الذي يبقيها معلقة هناك ؟ » .

أجاب كتاب الكون الفطري :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ [سورة فاطر : ٤١] .

الله يمسك السموات والأرض أن تزولا وإلا فليجيبونا من الذي يبقي الأرض هكذا معلقة في الفضاء ؟

قلتُ : إن العلم بنتائجه الباهرة يمكن أن يضع في يد الإنسانية الواعية أساس الاعتراف بقوة مدبرة .

وأقول : إن هذا الاعتراف هو وحده سبيل العدل والإنصاف بل هو طريق الأمن والطمأنينة والسلام : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [سورة الحج : ٣١] .

لقد انكشف للإنسان أنه على أرض تتحرك وتسبح في فضاء ، ومثلها وأعظم منها عشرات وعشرات – مما لا يحصر أو يعد – من الكواكب الدوارة والنجوم السابحة : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [سورة يس : ٤٠] .

﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النمل : ٦١] .

﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سورة النمل : ٦٤] .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ * وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [سورة الروم : ٢٥ – ٢٧] .

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

[سورة الذاريات : ٢٠ ، ٢١] .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ ٱئْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [سورة الأحقاف : ٤] .

قلت : إن العلم يخدم قضية الإيمان مع وفائه برضا الرحمن ، وكلما تقدمت الإنسانية في باب الكشف كلما زاد اليقين بأن الكون له مدبر حكيم .

إن السفينة وهي تسبح في الفضاء قامت من أجلها بحوث وتجارب ووقف من ورائها علماء يرصدون سيرها ويرقبون أمرها ويحددون هدفها في صعودها وهبوطها .

وهي سفينة لم تتسع إلا لفرد واحد أو أفراد . فكيف بأرض تتسع لما ترى وتدور في الفضاء بلا توقف أو عطب ؟

أفلا يقوم على أمرها إله عظيم ، مدبر حكيم ، خالق كل شيء وهو على كل شيء قدير ؟

إن قيام الإيمان مع العلم لابد منه لتوافر الأمن وتحقق السلام ، ولا أمن بلا إيمان ولا سلام بلا إسلام .

وسترى الإنسانية أن الإسلام لا يقنع بهذا الجهد فقط ، بل يطلب المزيد من الكشف ، ويستنهض الهمم لكي تتابع السير بلا توقف والعمل بلا انتكاس .

وإذا كنا على عتبة الفضاء نطرق أبواب الكون ونفتق الطوق الأرضي فلنعلم مقدمًا أن بداية الإسلام كانت معراجًا إلى أفق أعلى .

فلنتابع السير في تواضع فإننا في أول الطريق : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة الإسراء : ٨٥] .

* * *

(٤) الإسلام والعلاقات الدولية

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

[سورة الحجرات : ١٣]

الإسلام دين عالمي ، يبرهن كل شيء فيه على صدق هذه الحقيقة ، كما تبرهن نظرته لمخالفيه على أصالة الاتجاه إلى تحقيق أخوة إنسانية عامة ينعم الناس بها على اختلاف عقائدهم وتباين مذاهبهم ، فهو لا يُكْرِه أحدًا على عقيدته ولا يحمله على اتباع مذهبه ، يعرض فكرته في سماحة ويسر :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [سورة الكهف : ٢٩] .

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ ﴾ [سورة آل عمران : ٢٠] .

لم يقل : (فإن تولوا فقاتلهم) .

وإنما قال : فإن تولوا فقد أديت واجبك وبلغت رسالة الله : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [سورة ق : ٤٥] .

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٦] . وكيف يتم الإكراه في دين يعد هذه الدار دار ابتلاء واختبار : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [سورة الملك : ٢] .

وبديهي أن الإكراه لا تستبين معه نتيجة ولا يصح مع قيامه حكم : ولذا فقد أسقط الإسلام إيمان المكره من حسابه ولم يقم له وزنًا ، وهذا فرعون حين أدركه

الغرق : ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ٩٠] ، فلا يقبل منه في هذا الموطن !

﴿ ءَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة يونس : ٩١] .

لا قيمة لإيمان يقع نتيجة قسر أو إكراه ، كما أنه لا قيمة لكفر يعلَن نتيجة ضغط والقلب مطمئن بالإيمان :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [سورة غافر : ٨٤ ، ٨٥] ، ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ [سورة النحل : ١٠٦] .

ما ذلك إلا لأن الإسلام حقيقة لا يصح مع قيامها ضغط أو إكراه ، لأن طبيعته تأبى وتتنافى معه .

وواقع الأمر في التطبيق العملي لا يعطي أي دليل للحاقدين عليه والذين يرمونه بأنه دين قتال وحرب .

إن الفئة التي دخلت الإسلام في بدء الدعوة وظلت طيلة الفترة المكية تلقى ألوانًا من العذاب وصنوفًا من البلاء لم يرهبها سيف محمد ﷺ على الدخول في هذا الدين ، بل أرهبتها قريش ببلائها الواقع وعذابها المتسلط ، وهي تملك أسباب القوة والغلبة فلم تفلح أمام الإيمان المسالم ولم تستطع أن تعود بإنسان واحد إلى الكفر بعد الإيمان !

وما كان محمد ﷺ في هذه الفترة يملك حماية نفسه فضلا عن حماية أتباعه ، وهو الذي آوى إلى ظل شجرة لبني ربيعة – بعد أن نالت منه قريش وأغرت به سفهاءها يرمونه بالطوب والحجارة – يشكو إلى الله ضعف قوته وقلة حيلته وهوانه على الناس . ثم يخاطب ربه معلنًا تمسكه بالحق وإصراره على الصدق : « إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أُبالي » !

وهو الذي هاجر ومعه أصحابه بعد أن أجمعت قريش على قتله ونالت منه ومن أصحابه فتركوا دورهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله !

فهل يمكن أي إنسان يحترم عقله أن يعزو انتشار هذا الدين إلى ضغط أو إكراه ؟

إن الإكراه وقع للصد عنه ولم يقع للدخول فيه !

وإن الذين آمنوا به آثروه على أنفسهم ولم تصرفهم عنه ألوان العذاب وصنوف البلاء :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِالعِبَادِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٠٧] .

إن لهذا الدين سلطانه على القلوب يغزوها حيث لا دولة ولا سلطان ويطوعها للخير وهي ترى حياتها فيه فتحوطه بكل غال وتفتديه .

وقضيته تعرض على الفكر والقلب ليقطع فيها بالقبول أو الرفض : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [سورة الكهف : ٢٩] ، ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٦] ، ﴿ ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [سورة النحل : ١٢٥] .

سبيله سبيل الحجة والإقناع ولم يدخل في وسائل الإقناع أي لون من المعجزات المادية التي تبدو إرادة الإنسان معها وكأنها منقادة ومرغمة على الخضوع .

لم تكن معجزة الإسلام إلا معجزة علم وفكر ، معجزة كتاب : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [سورة فصلت : ٤٢] .

إن الإسلام ، دين الرحمة والسلام ، ألا تراه يقول : ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ ﴾ [سورة الممتحنة : ٨] .

ثم ألا تراه حين يرغم على القتال يوجه قوله لأتباعه : ﴿ وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ [سورة البقرة : ١٩٠] .

ولا تعتدوا على من ؟ على مقاتليه فما بالك مع غيرهم ؟

هذه ساحته يأوي إليها المشرك مستجيرًا خائفًا فيؤمنه ولا يستغل نقطة الضعف فيفرض عليه أن يقبل هذا الدين أو يدخل فيه :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [سورة التوبة : ٦] .

وها هو ذا يتقدم إلى الميدان الذي أرغم عليه فيحرص على صيانة الدماء . لا يبدأ بسفك دم بل يمد في بر يد السلم :

بعث رسول الله ﷺ عليًّا رضي الله عنه ، فقال له : « امض ولا تلتفت » .

فقال : يا رسول الله كيف أصنع بهم ؟

قال : إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك ! فإن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ، فإن قتلوا منكم قتيلا فلا تقاتلنهم حتى تريهم إياه ثم تقول لهم : هل لكم أن تقولوا لا إله إلا الله ؟

فإن قالوا : نعم . فقل لهم : هل لكم أن تُصَلُّوا ؟

فإن قالوا : نعم . فقل لهم : هل لكم أن تخرجوا من أموالكم الصدقة ؟

فإن قالوا : نعم . فلا تبغ منهم غير ذلك ، والله لأن يهدي الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت .

أرأيت الحرص على السلم وإشاعة الرحمة مع قيام العداوة والمبادأة من العدو بالقتل ؟

ثم تأمل كيف يقنع الإسلام بالكلمة في ساحة الوغى وميدان الحرب ؟

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [سورة النساء : ٩٤] .

إن الإسلام لا يدع سببا لإقامة المودة بين البشر إلا سلكه ، ولا يترك بابًا من أبواب الخير إلا سار فيه ، يمد يد السلم لمن سالمه ويبذل النصح لمن خاصمه :

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأنفال : ٦١ ، ٦٢] .

إنه دين السلام والرحمة .

أليست تحية المؤمن عند كل لقاء أو فراق : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ؟

أليست هذه التحية هي ختام صلاته دائمًا يلقي بها عن يمين وشمال ويستقبل الدنيا وقد زودته الصلاة بأسباب السلام والرحمة ؟

إن القرآن نزل في ليلة وصفت بأنها سلام : ﴿ سَلَامٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ [سورة القدر : ٥] .

والدار التي يعمل المؤمن ليظفر بها هي دار السلام : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٢٧] .

والتحية التي تتردد فيها يرددها المؤمنون فيما بينهم والملائكة كلما دخلوا عليهم . سلام : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ [سورة الأحزاب : ٤٤] ، ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [سورة الرعد : ٢٣ ، ٢٤] .

بل إنك تسمع من بين أسماء الله التي ذكرت في كتابه : « السلام » :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الحشر : ٢٣] .

ألا وإن عقيدة الإسلام وفرائضه تقيم في النفس دعائم السلام ليستقر أمره في الخارج وتفسح مجال الرحمة في القلب ليتحقق برها بين الناس في السلوك والسعي ورسالة محمد ﷺ كلها رحمة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٠٧] ، « إنما أنا رحمة مهداة » .

رحمة عامة شاملة لا تخص بني آدم فحسب بل تشمل الحيوان وكل ذي كبد : لمستمع إلى عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه يقول : كنا مع رسول الله ﷺ

في سفر ، فرأينا حمامة معها فرخان لها فأخذناهما ، فجاءت حمامة تعرش فلما جاء رسول الله ﷺ قال : « مَنْ فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها » !

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا بكلب يلهث الثرى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي ، فسقى الكلب فشكر الله تعالى له فغفر له قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرًا ؟

فقال : « في كل كبد رطبة أجر » [1] .

الإسلام دين السلام والرحمة لا يماري في هذا إلا ضال أو مضل أو جاهل أو حقود .

وهنا نود أن نتساءل : إذا كان الإسلام دين رحمة وسلام فكيف شرع الحرب ؟ وما هذه الفتوح التي اقترفت باسم كبار المجاهدين ؟ أليست هذه أكبر دليل على انتشار الإسلام بالسيف كما يقولون ؟

وقبل أن نجيب نود أن يكون معلومًا أن الحرب لم تشرع في الإسلام وحده بل شرعت في الأديان التي سبقته وعلى صورة يتبين معها بر الإسلام ورحمته بالعالمين .

على أن الحرب في حقيقتها شرعة لابد منها لعلاج الفساد وصيانة الأمن والسلام شرعة أخذت بها جميع الأمم تصون حماها وترد كيد العدو عنها ، بيد أن الإسلام قد انفرد في الحرب بآدابه الخاصة وغايته الواضحة ، فما شرعت الحرب عنده إلا لحق وبحق .

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

أليست الفطرة تنادي برد الاعتداء ؟ أليس من حق المعتدي عليه أن يدافع عن نفسه ؟

هذه شريعة العدل والرحمة : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [سورة الحج : ٣٨ - ٤١] .

تأمل أولى الآيات التي شرع بها الجهاد في الإسلام تجد بيان السبب من ناحية وضرورة الجهاد الذي يؤمن به الناس في دينهم ودنياهم ولولاه لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد « أماكن العبادة ، لا للمسلمين وحدهم بل لهم ولغيرهم ، من ناحية أخرى . ثم تجد بيانًا لما يجب أن يكون عليه حال المجاهد بعد النصر : ﴿ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ .

لا بغي ولا عدوان ، بل شريعة حق وعدل تتفق مع الفطرة السمحة ، وتأمل كلمة « دفع » وهي تفيد الرد ، لا المباداة ، وكأنما تدفع عن نفسك ما هو مقبل من خطر .

الإسلام يعبر عن حالة الدفع هذه « بالجهاد » . فرد العدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال والوطن والدين أمر تقره الفطرة وتقرره الحنيفية السمحة .

وإذا نحن تأملنا تاريخ الإسلام لم نجده قط بدأ غيره بالعدوان أو أقره بأية حال .

وإذا أنت تأملت ما سجلته أسفار التوراة أو صحائف الإنجيل المتداولة في أيدي القوم راعك بر الإسلام وعدله وأدركت بلا ريب أنه بحق دين رب العالمين .

جاء في سفر التثنية في الإصحاح العشرين منه عدد ١٠ : « حين تقرب مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل

الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب الهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب الهك هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًّا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب الهك نصيبًا فلا تبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريمًا كما أمرك الرب الهك » .

أرأيت كيف يكون التدمير والتخريب بل كيف يكون الإهلاك والسبي ؟

وفي إنجيل متى في الإصحاح العاشر عدد ٢٥ :

يقول : « لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض بل سيفًا ، فإنني جئت لأفرق الإنسان ضد ابنه والابن ضد أبيه والكنة ضد حماتها وأعداء الإنسان أهل بيته » .

وإذا نحن تأملنا الواقع العملي في حياة الناس ألفينا أن الإنسانية لم تعرف للحرب قانونها وشريعتها البارة إلا يوم أن أشرقت على الوجود شمس الإسلام ، لم تعرف حرمة العهد ورعاية الميثاق إلا يوم أن عرفت عن الإسلام وفاءه بالعهد وتحريمه للغدر .

فما رأينا في الحرب المعلنة باسمه – وهي لا تكون إلا جهادًا – أنه باغت أحدًا أو قاتل غدرًا أو تمنى لقاء عدو .

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [سورة الأنفال : ٥٨] .

« لا تتمنوا لقاء العدو ، وإذا لقيتموه فاثبتوا » .

ومن وصايا الرسول وهو يرسل جيشًا : « انطلقوا باسم الله وبالله وعلى بركة الله ، ولا تقتلوا شيخًا فانيا ، ولا طفلا ، ولا صغيرًا ، ولا امرأة ، ولا تغلوا وضعوا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » .

وهذه وصية الصديق لأسامة بن زيد وهو يتولى قيادة الجيش .

قال : « لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة

ولا بعيرًا إلا للأكل ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقًا » .

وأي وفاء بالعهد بعد أن ترى رسول الله ﷺ في الحديبية يعقد صلحًا مع قريش – وقد صدته عن الدخول إلى مكة زائرًا معتمرًا – جاء فيه :

« من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه » .

وكان سهيل بن عمرو هو الذي ينوب عن قريش في عقد الصلح ، ولما ينته من كتابته بعد وإذا بابنه أبي جندل يأتي وهو يرسف في القيد – يريد اللحاق بالمسلمين ، وكان من الممكن والعقد لم يوقع بعد أن تستثنى تلك الحالة ، ولكن رسول الله ﷺ أبى – وقد أعطى القوم عهدًا وإن لم يوقعه . أن يقبل أبا جندل .

إنه عهد الحر الكريم . الذي يقول لأبي جندل : « يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا ، وأعطيناهم وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم » .

ولقد فعل مثل ذلك مع أبي عبيد الله بن أسيد حين فر مهاجرًا من عذاب قريش يريد اللحاق بالمسلمين في المدينة ، وأرسلت قريش في طلبه . فقال له رسول الله ﷺ : « يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا ، فانطلق إلى قومك » .

وحزن أبو بصير حزنًا شديدًا والتمس من رسول الله البقاء حتى لا يفتن في دينه فما زاد الرسول على تكرار قوله وأمره بالصبر .

وفي الطريق أفلت أبو بصير من حارسي قريش بعد أن قتل أحدهما وظل في الصحراء يتلهف على لقاء الرسول ويحن لرفقته والمقام معه إلى أن اضطرت قريش تحت ضغط الظروف عليها – وتهديد تجارتها ممن فروا من عذابها ولم يقبلهم الرسول

وفاء بالعهد – أن تطلب من رسول الله ﷺ إلغاء هذا الشرط ، وأن يقبل الرسول كل من يأتيه مسلمًا من قريش وأبو بصير في الصحراء يؤرقه الحنين والشوق يأتيه وهو يجود بأنفاسه الأخيرة كتاب رسول الله ﷺ يطلب إليه الحضور إلى المدينة فيضمه إلى صدره ضمة وداع وحب ، ويدفن الرجل وبين أضلعه تطلع وشوق ليوم اللقاء بسيد الخلق !

أرأيت إلى أي مدى يكون الوفاء بالعهد والحفاوة بالميثاق ؟

تلك أخلاق الإسلام وشريعته :

ولم يعرف التاريخ قط عن المسلمين وهم يصدرون عن تعاليم دينهم أنهم ردوا صلحًا أو نقضوا عهدًا ، لم يعرف عنهم إلا الوفاء بالعهد والنداء بالصدق ، والتواصي بالصبر والمرحمة .

كيف لا ؟ وهذا نداء كتابهم الكريم : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [سورة النحل : ٩١] .

وهم يعلمون في كتابهم أن نقض العهد من صفات الذين سلبت إنسانيتهم وآدميتهم وصاروا أحط مرتبة من الدواب والأنعام :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ [سورة الأنفال : ٥٥ ، ٥٦] .

تأمل رسول الوفاء ونبي الرحمة ماذا يقول : « من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة » . ﷺ .

أرأيت كيف يكون البر والوفاء بالعهد ؟

ماذا يكون عمل هذا الدين الذي يستمسك بالوفاء هكذا إذا فوجيء بنقض العهد أو قوتل بسيف الغدر ؟

أليس منطق الحق وشريعة العدل يدعوان إلى رد الكيد وتأديب الغادر ؟ إن الإسلام لم يرفع سيفه إلا مع من غدر فقط ، ولو ترقب نقض العهد من أحد ،

لا يجوز أن يناله إلا إذا جاهر به ، وهذا توجيه القرآن الكريم لأتباعه : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة التوبة : ٤] .

وإذا كان من عادة المشركين نقض العهد دائمًا – ينقضون عهدهم في كل مرة – فإن الإسلام يأمر أتباعه – مع علمهم بأنهم غادرون – أن يستقيموا لهم على العهد طالما استقاموا ، وهذا توجيه القرآن لهم بعد تبين حقيقة المشركين وطبيعتهم : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

[سورة التوبة : ٧] .

فإذا وقع الغدر ونقض العهد كان المسلمون في حل أن يدافعوا عن أنفسهم ويردوا كيد العدو عنهم : ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة التوبة : ١٢ – ١٥] .

لاشك أن العدالة تقتضي ذلك : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٤] .

إذا أنت سالمت في دعوتك ولم تكره أحدًا على الدخول في عقيدتك . أفليس من حق الداخل في هذا الدين بمحض حريته واختياره أن يحيا آمنا مطمئنًا ؟

ماذا تعمل مع إنسان يصدك عن الري وأنت في حاجة إليه ويصرفك عن المورد مع أن حياة الناس تقوم به وتتوقف عليه ؟

لاشك أنك ستحاول تنحية من يقف في سبيلك وإن أنت قاتلته كان قتالك

مشروعًا يسانده العدل ويؤيده حق الحياة .

ذاك ما أقره الإسلام من أسباب الجهاد :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٧] .

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٣] .

وتأمل : ﴿ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي يرتفع اضطهاد الذين يقبلون على الدين بمحض رغبتهم والتعرض لأمن الناس وحريتهم .

ثم هب أنك وأنت المسالم أردت أن توصل ماءً إلى ظامىء يحتاج إليه ، أفليس منطق الحياة يستوجب ألا يحال بينك وبين من يطلبك لظمئه وينشدك لريه ، وأنت تقدم الماء له أن يشرب وله أن يمتنع ؟ : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [سورة الكهف : ٢٩] .

إذا وقف أناس يحولون بين الناس وبين أسباب الحياة . أفليس من حق هذا الدين وهو دين الحياة أن يؤمن عمل الدعاة المسالمين وأن يقرب الري من الظامئين ؟ ذاك سبب آخر من أسباب الجهاد في هذا الدين .

وليس بعد ما ذكرت : من رد الاعتداء والدفاع عن النفس والمال والأهل والوطن وتأمين حرية الاعتقاد وحماية الدعاة وهم يبلغون رسالة الله وتأديب ناكثي العهد الذي استمرءوا الغدر ، وإغاثة المظلومين والمستضعفين ، ليس بعد ما ذكرنا من هذه الأسباب التي أفاض القرآن في الحديث عنها إلا تحريم الحرب وعدم إباحتها .

إن للقتال في الإسلام غاية ، غايته سبيل الله وهدفه تأمين الحياة للناس ومن هنا كانت فريضة الجهاد في الإسلام فريضة مقدسة .

ولا تعجب حين يقرر الجهاد أن ترى الهمم مشدودة إلى الله تطلب قربه وتنشد رضاه ، لا تبتغي منفعة مادية أو غرضًا زائلا ، وجزاؤها على نيتها : « فمن

كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » (١) .

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [سورة البينة : ٥] . وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال ﷺ : « من قاتل لتكون كملة الله هي العليا فهو في سبيل الله » (٢) .

ومنه يستبين الدافع ، وتتحدد الوجهة والسلوك ويقع جزاء الله :

« لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله كائنا ما كان » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : فلان جريء فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقِيَ في النار .

ورجل تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال : فلان عالم وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء فقد قيل . ثم أمر به فَسُحِب على وجهه حتى أُلقِيَ في النار .

ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن أنفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل . ثم أمر به فَسُحِب

---

(١) البخاري ومسلم ..

(٢) رواه الشيخان .

على وجهه حتى أُلْقِيَ في النار » [١] . « من سمع سمع الله به ومن يراء يراء الله به » [٢] .

قلت : لا تعجب حين يقرر الجهاد ويصبح لا مناص من القيام به أن ترى عزمًا ثابتًا وتجردًا صادقًا وبسالة في الإقبال على الله تعلي كلمته وتطلب رضاه :

يمشون تغضى الأرض منهم رهبة ... وبهم حيال نعيمها أغضاء
حتى إذا فتحت لهم أطرافها ... لم يطغهم ترف ولا نعماء

عن شداد بن الهاد رضي الله عنه : أن رجلا من الأعراب جاء فآمن بالنبي ﷺ ثم قال : أهاجر معك ، فأوصى النبي به بعض أصحابه فكانت غزوة غنم النبي منها شيئًا فقسّم وقسّم له فقال : ما هذا ؟ فقال : قسّمته لك . قال : ما على هذا اتبعتك ، ولكني اتبعتك على أن أرمي إلى هنا – وأشار بيده إلى حلقه بسهم – فأموت فأدخل الجنة ، فقال : إن تصدق الله يصدقك فلبثوا قليلا ثم نهضوا في قتال العدو فأُتِيَ به إلى النبي محمولا قد أصابه سهم حيث أشار فقال النبي ﷺ : أهو هو ؟ قالوا نعم . قال : صدق الله فصدقه ، ثم كفن في جبة النبي ﷺ ، ثم قدمه فصلى عليه ، فكان مما ظهر في صلاته : اللهم إن هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك فَقُتِلَ شهيدًا وأنا شهيد على ذلك .

وعن أنس رضي الله عنه قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع ، فلما كان يوم أُحد وانكشف المسلمون قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين) ، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر ، إني أجد ريحها من دون أحد . قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع . قال أنس : فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة بالرمح أو رمية بالسهم ووجدناه قد قُتِل ، وقد مَثَّل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه ،

---

(١) رواه مسلم .
(٢) البخاري ومسلم .

قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٢٣] .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول :

لما قُتِل عبد الله بن عمرو بن حرام يوم أُحد قال رسول الله ﷺ : « يا جابر ألا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك ؟ قلت : بلى . قال : ما كلم الله أحدًا إلّا من وراء حجاب وكلم أباك كفاحًا فقال : يا عبدي تَمَن عليّ أعطك . قال : يا رب تحييني فأُقْتَل فيك ثانية ! قال : إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون . قال : يا رب فأبلغ مَن ورائي ، فأنزل الله عز وجل الآية :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٩ - ١٧١] » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر ، وجاء المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، قال عمير بن الحمام : بخ بخ . فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك : بخ بخ ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها . قال : فإنك من أهلها . قال : فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي إنها لحياة طويلة ، فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتِل » [1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في

---

(١) رواه مسلم .

سبيل الله »[1] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾

[سورة التوبة : ١١١] .

أرأيت كيف تكون الروح المعنوية الناشئة عن التجرد وصدق الاتجاه إلى الله ؟ ولذا لا تسمع في الجهاد إلا كلمة « سبيل الله » فما كان الجهاد قط لبغي أو تسلط أو عدوان وما كان طلبًا لجاه أو منفعة بل هو دليل التجرد والصدق وإيثار ما عند الله : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٧٤] .

﴿ ٱنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٤١] .

ألست ترى من أسباب الجهاد ونتائجه ومن الروح المعنوية التي تتطلع إلى جنة الله فتشم ريحها وتلقي بثمرات قد يعقن سعيها ، أن الجهاد في الإسلام بار في أسبابه ونتائجه بار في أخلاق أهله وعدالة منهجه :

كم من غزاة للرسول كريمة ... فيها رضى للحق أو إعلاء
كانت لجند الله منها شدة ... في أثرها للعالمين رخاء
ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بها ... فعلى الجهالة والضلال عفاء
دعموا على الحرب السلام وطالما ... حقنت دماء في الزمان دماء

ومع هذه البسالة النادرة والتجرد الصادق ومع النصر المؤزر والفتح المبين ماذا ترى من أخلاق المؤمنين وهم في أجل ساعات النصر والظفر ؟

---

(١) رواه الترمذي .

لن ترى إلا عفوًا صادقًا ، وفرحًا بمن يقبل مسلمًا ، أو مسالمًا لا يعدله فرحهم بالنصر !

تعالوا نمش في ركاب الرسول ساعة لنرى البر في أجل معانيه والعفو في أكرم صوره والرحمة التي تشمل الناس بنعمة الأمن وتحوطهم بأسباب السلام .

تعالوا بنا :

لقد هاجر النبي ﷺ وأغرت قريش أبناءها بجائزة كبيرة لمن يدل عليه أو يأتي به حيًّا أو ميتًا ، وأغرت الجائزة سراقة الذي تبع الرسول وصاحبه حتى وصل إليهما وساخت قوائم فرسه مرارًا ، وطلب الأمان من الرسول ليعود ، طلب كتابًا بذلك حتى لا يؤاخذه إذا علت كلمته وانتصر على قريش !

ماذا كانت النتيجة مع سراقة الذي خرج لا يبغي إلا الفتك بالرسول أو التمكين منه ؟

وماذا كان وفاء الرسول بأمان أعطاه وهو يملك الآن أن يعاقب ويحاسب ؟

لقد فتح الرسول ﷺ مكة وأقبل سراقة يعلن إسلامه فوالله ما سأله الرسول عن شيء فعله حتى مجرد السؤال الذي يخشى منه الزهو بالنصر أو المَنّ عن العباد !

وماذا فعل مع أبي سفيان الذي قاد المشركين في معظم حروبهم ؟ ماذا فعل معه وهذه مكة تدين له وتدخل في رحاب دعوته ؟ ماذا فعل معه وهو قادر ، ولو أنه قتله ما لامه أحد ، ولا عد في نظر الناس إلا منصفًا عادلا ؟

لكن محمدًا ﷺ لم يفعل ذلك بل عفا عنه وأكرمه ونادى في الناس : « مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن » وعفا عن قريش التي أخرجته وبيتت قتله وهي التي كانت تنتظر العقوبة : « يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » !

وهذه زوجة أبي سفيان التي حرضت على قتال رسول الله ومثلت بعمه حمزة رضي الله عنه ولاكت كبده تأتي متنقبة يوم الفتح ، فلا يتعرض لها ولا يسألها ما فعلت ، بل يعفو ويصفح . وترى منه ذلك فلا تتمالك أن تقول : « يا محمد ،

لم يكن أهل خباء أبغض إليّ من أهل خبائك قبل اليوم ! وأنا اليوم ليس أهل خباء أحب إليّ من أهل خبائك » !

بل هذا وحشي قاتل حمزة يختبيء في فتح الطائف ويتلمس مكانًا للهرب وهو يعرف فعلته فيقول له قائل : إنك لن تجد مأمنًا إلا عند محمد ﷺ . فيأتيه خائفًا ويراه الرسول فيتذكر مأساة عمه فتذرف عيناه الشريفتان بالدمع ، وها هو ذا القاتل أمامه لو أراد أن يقتص لفعل ولكان هذا منه حقًا وعدلا ، ولكن أبا الزهراء لا يفعل ويعلن العفو ، ويكتفي بأن يصرفه من أمامه وهو يقول : « إليك عني ، فإني إذا رأيتك تذكرت عمي حمزة وشهادته » . .

ثم هذا عكرمة بن أبي جهل كان من أعداء رسول الله ، دع عنك والده وما صنع :

فتح الرسول مكة فخاف عكرمة على نفسه مما فعل ففر إلى اليمن وكانت زوجته قد أسلمت وعرفت أخلاق الرسول ، فذهبت إلى اليمن تُفَهِّم زوجها وتهديء من روعه ورجعت به إلى مدينة رسول الله ﷺ فماذا فعل الرسول ؟

لما بلغه مقدم عكرمة سارع إليه يرحب به حتى سقط عنه رداؤه ثم قال له وهو فرح مسرور : « مرحبًا بالراكب المهاجر » وتاريخ عكرمة في حربه ضد المسلمين ، وتاريخ والده أيضًا بَيِّن معروف .

والأمثلة على العفو أكثر من أن تحصى وأجَلّ من أن تحاط بكلم .

أبَعد هذا يمكن أن يقال : إن هذا الدين قد انتشر بالسيف !

إنه انتشر بالعدل والصدق وملاءمة الفطرة ولم ينتشر قطُ بالسيف فأين السيف لأناس حاربوه وانهزمت دولته فانتصر هو في نفوس أعدائه وتحولت سيوفهم من حرب عليه إلى مناصرة له ؟ أين السيف إنه انهزم أما الإسلام المجرد فقد انتصر .

انتشر هذا الدين بالرحمة ولم ينتشر بالقهر والغلبة . فما عرف أن الإسلام نزل معركة لم يدع إليها أو خاض حربًا يمكن الاستغناء عنها .

ما عرف عنه قط أنه وقف في ميدان ما معتديًا أو ظالمًا .

وإن أنت تتبعت أسباب كل بعث فيه واستقصيت دوافع كل غزوة له وجدت

أن الدوافع هو الدفع ، دفع العدو ورد كيده .

ولا لوم عليه إن هو استبسل وانتصر في ميدان دعي إليه .

وهو لا يفقد أبدًا حصانة الأخلاق والحرب قائمة ، كما لا يفقد نزاهة العدل ونعمة العفو والحرب ظافرة .

فإن جاء النصر وجب البر وقام العدل ، وإن استعصى بحث كل جندي في نفسه معوقات النصر . فإن تحقق جاء أمر الله يوجه النفوس إلى منهج العمل حتى لا تشغل بأفراح النصر أو تجمد مع زهو الانتصار ، يوجهها إلى أداء رسالة السلم وغاية التمكين :

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ ، وأما أجلها في باب البر الإنساني والسلوك الفردي والجماعي ! ﴿ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ . وما أكرمها في باب التكافل الاجتماعي والرباط الأخوي !

﴿ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنكَرِ ﴾ . وما أجلها فريضة يؤمن بها العدل ويصان الحق وتطيب الحياة .

بل ما أجل أن تقوم في النفس هذه المعرفة الصادقة الموجهة التي تعي قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [سورة الحج : ٤١] .

ولذا انتصر المسلمون مع قلة عَددهم وعُددهم على الكثرة الظافرة بالعدة والعتاد .

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

[سورة البقرة : ٢٤٩] .

وهذا قول عتبة الغلام – وقد رآه مخلد بن الحسين يحضر إلى الميدان وقد أضنته العبادة والسهر – قال عتبة لمخلد :

يا مخلد ، لو أننا نقاتل القوم بمثل إيمانهم لكان من أحمق الحمق أن نخرج إليهم وعددنا قليل وسلاحنا كليل ولكن شتان ما بين إيمان وإيمان !

ويا رب نفس رمقت جلال الله فارحض عنها غرورها فلم تشهد إلا حاجتها إليه وفقرها بين يديه فأمدها بسر من بأسه وأيدها بكوكبة من جنده فإذا هي في الميدان يصول فيها سر الله ويجول فوالله لأن يصبر الكافر لجبل ينقض عليه أهون من أن يصبر لضربة من ضرباتها .

يا مخلد ، إنك لن تنصر الله في معركة حتى تنصره في نفسك بتغليب أمره على هواك وانظر ماذا يغني شحمك ولحمك إن أنت خذلته في الأولى ثم جئت تطلب نصره في الأخرى وهو الذي جعل هذه بتلك وعدًا حقًا وجزاء صدقًا : ﴿ إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [سورة محمد : ٧] .

وهذه وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص حين ولاه إمارة الجيش بالعراق قال له : « لا يغرنك إن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله ، فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن !

وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عند الله بالطاعة ، فانظر الأمر الذي وجدت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه » .

وتدور المعارك التي يتقرر فيها المصير والخليفة يترقب رسولا من قِبَل سعد يخبره بالأمر . وبينما هو خارج المدينة ينتظر إذ رأى رجلا يحث دابته فسأله من أين ؟ فأجابه : من العراق .

قال عمر : ما فعل الله بالمسلمين ؟ قال : هزم الله العدو .

كل ذلك وهو مسرع بدابته والخليفة العادل يجري خلفه حتى دخلا المدينة ، وأدرك الرجل أنه عمر أمير المؤمنين ، فقال : هلا أخبرتني رحمك الله ! قال عمر : لا عليك يا أخي ، هات ما عندك .

وتسلم رسالة سعد وفيها ما يشعرك بسلوك المسلمين في جهادهم ومنهجهم في ميدانهم :

« كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوي النحل ، وهم آساد الناس

لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة » .

أبعد هذا يقال : إن هذا الدين انتصر بقوة السيف ؟ إننا نقطع ومعنا شواهد التاريخ أن المسلمين ما انتصروا إلا بقوة اليقين ، ولا سادوا إلا بصدق الغاية وطهر الوسيلة ، ولا استطاعوا أن يقوضوا عروش الأكاسرة والقياصرة إلا بقوة الحق وعدل السلوك ، وما كانت سيوفهم لتغني عنهم شيئًا إن هم حاربوا القوم بمثل إيمانهم ، أو سلكوا في الناس مسلك الملوك الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة .

إنهم حاربوا ومن ورائهم قوة الدفع ، إيمان ناهض ويقين ثابت ، وأمامهم شرف القصد ، في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، فالإيمان يحوطهم بدوافعه ونتائجه ، يمنح النفس قوة العزم والثبات ، أي يجعل الروح المعنوية في مرتبة لا تدانيها مرتبة :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ١٥] .

فالإيمان بدوافعه ونتائجه هو سر النجاح والنصر : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [سورة غافر : ٥١] .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[سورة العنكبوت : ٦٩] .

وبعد : إذا كان الإسلام بارًّا في جهاده بارًّا في سلمه وحربه فما هذه الجزية التي أوجبها على أهل الذمة وفيها من الذلة والصغار ما يتنافى مع عدله وسماحته ؟

نقول : إن من أبين أسباب البر والرحمة والعدل في معاملة الإسلام لغير المسلمين هذه الجزية التي فهمت على غير وجهها .

إن الإسلام يفي لمن سالمه أو عاهده أو لم يتعرض له بسوء ، ومن الطبيعي أن كل دولة من الدول قد ترغم على الحرب وتساق إليه وهي لهذا تجند من أبنائها قوة تحمي بها نفسها وتذود عن حياضها ، ومن التخفيف وعدم الإحراج لغير المسلمين

الذين يقيمون في الوطن الإسلامي ألا يطالبهم بقتال العدو ، ويقرر ضريبة محدودة ، ضريبة دفاع أو إعفاء من الجندية ، تدفع لحماية الدم وحراسة الوطن الذي ينعمون فيه ويتفيئون ظلاله .

سميت بالجزية ، وهي مشتقة من الجزاء لأنها تدفع نظير شيء .

ومع هذا إن أراد أحد أن ينخرط في سلك الجندية مدافعًا عن الوطن قبل ورفعت عنه الجزية .

وأيضًا إذا عجز المسلمون عن حمايتهم والذود عنهم رفعت الجزية وشواهد التاريخ تسطر أكرم صور البر لمن حددت عليهم الجزية .

ثم ماذا يكون الأمر لو فرض الإسلام على غير المسلمين القتال معه ؟ لابد أن يقال : أن الإسلام يريد أن يحشر مخالفيه في حرب ليتخلص منهم ، ويعرض رقابهم للعدو فينتهي من عدو بعدو ويصون دم أبنائه .

لكن الإسلام لا يقبل هذا اللون من ألوان الغدر الخفي ، كما أنه لا يقبل أن يلقي تبعاته على غير المؤمنين به .

وأنت ترى أن أول قتال مع العدو في بدر حين بدأت المبارزة وهي أول جولة في المعركة أخرج الرسول ثلاثة من أقاربه يضعهم في وجه العدو .

أليس من أبين وجوه الحكمة والرحمة أن يترك لغير المسلمين الذين يعيشون في دولته الخيار في أن يقاتلوا أو يدفعوا ضريبة دفاع نظير حمايتهم وصون دمائهم ، وهم إن رغبوا في القتال سقطت عنهم ، وإن عجز المسلمون عن حمايتهم ردت إليهم ؟

هذا أبو عبيدة بالشام – لما تجمعت الروم لقتاله – أمر أمراءه أن يردوا ما كانوا أخذوه من الجزية ، وقال لأهل البلاد :

« إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وإنكم قد اشترطتم أن تمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك الآن ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم » .

فكان أن قال أهل البلاد لهم : ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم

لم يردوا علينا شيئًا وأخذوا كل شيء لَولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم !

وهذا كتاب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا حين دخل العراق وأوغل فيه :

« هذا كتاب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، إني عاهدتكم على الجزية والمنعة فلك الذمة والمنعة (وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا) كتب سنة اثنتي عشرة في صفر » .

ثم تأمل ما ساقه لنا الطبري من كتاب عتبة بن فرقد أحد عمال عمر بن الخطاب وهذا نصه :

« وهذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها وشعارها وأهل مللها كلهم الأمان على ومن حشر منهم في سنة (أي جند منهم في سنة) وضع عنه جزاء تلك السنة ومن أقام فله مثل من أقام من ذلك » .

وكتاب العهد الذي كتبه سويد بن مقرن أحد قواد عمر أيضًا ، لرزبان وأهل دهيستان وسائر أهل جرجان ونصه :

« هذا كتاب سويد بن مقرن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهيستان وسائر أهل جرجان :

أن لكم الذمة وعلينا المنعة على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حال ، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه (أي جزيته) في معونته عوضًا عن جزائه ، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومالهم وشرائعهم ولا يغير شيء في ذلك .

شهد سواد بن قطبة ، وهند بن عمر ، وسماك بن مخرمة ، وعتبة بن النهاس سنة ١٨ هـ » .

ومن هذا يتبين وجه الحكمة في تقرير الجزاء أو الجزية .

قد يقال : وما هذه الآية إذن التي تقول : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ؟

نقول : أن الآية بسياقها الكامل : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٢٩] .

وهي كما ترى تأمر بمقاتلة طائفة قد ارتكبت ما أوجب القتال معها من نقض عهد أو غدر ، وليس عدم الإيمان الذي ذكر بعد قوله : « قاتلوا » هو الدافع للقتال بل هذه صفات القوم الذين تقدمون على قتالهم .

وأما قوله : « حتى يعطوا الجزية عن يد » فليس هو غاية القتال ، وإنما غايته إخضاع هؤلاء لمنطق المسالمة وعدم الغدر ، وليست الجزية إلا عنوان الخضوع وهي تؤخذ منهم لترد إليهم في صورة من الصور ، وهي ليست بدلا عن الإسلام أو بدلا عن الدماء .

فالإسلام لا يقاتلهم ليدفعوا الجزية : فإذا دفعوها لم يقتلهم ، بل هو يقاتلهم حتى يستسلموا ويتخلوا عن العدوان والبغي ، لكي ينعم الناس بنعمة الأمن وحرية العقيدة .

ومن ثم فليس عدم الإيمان بالله هو سبب القتال وليست الجزية غايته ، بل العدوان والبغي ونقض العهد ومصادرة الحق هي سبب الأمر بالقتال ، والجزية إعلان عن قبول المودة وتقبل الصلح وتقرير المسالمة وقيام التعاون والتعارف .

فإن قيل : وما هذا الرق الذي أباحه الإسلام ، وأنتم تقولون : إنه دين الرحمة والمساواة ؟

فهل من الرحمة في شيء أن يسترق الإنسان ؟ وهل من المساواة أن تقوم الفوارق بين سادة وعبيد ؟

نقول : جاء الإسلام والرق قائم ، والرقيق لا تعرف له حقوق . نعم لا تعرف له حقوق إذ كانت السوائم أكرم حالا ممن استرق من بني الإنسان ، من اعتدى على الرقيق فإنما اعتدى على مال غيره وإن كان المعتدي صاحبه ولو بالقتل فليس لأحد عليه سبيل !

وقد اختلط الأمر على الناس حين رأوا الإسلام يتحدث عن العتق ويوجبه ، فظنوا أن الإسلام يبيح الرق ويفرضه ، مع أن الإسلام لم يذكر الرق قط وإنما ذكر العتق ليحرر الجنس البشري من كل قيد .

جاء الإسلام والرق يكاد يكون أساسًا من أسس الاقتصاد وقاعدة مقررة من قواعد الحرب والقتال ، فماذا يمكن أن يفعل إلا أن يتدرج في إنهاء هذه الحالة ؟

إن المتدرج في إنهائه فيه مصلحة للمالك والمملوك معًا :

المالك أمره بين ، والمملوك ربما لا يتيسر له ابتداء معاش يقتات به ، فاقتضى الأمر أن يكون إنهاء هذه الحالة بالتدرج رعاية للمصلحة وتقديرًا للصالح العام . وقد عالج الإسلام هذه المشكلة بمنتهى الحكمة وحسن التقدير ، فماذا فعل ؟

ضيق موارده وأفسح مصارفه .

ومن الطبيعي أن بحرًا زاخرًا تفتح له المصارف من كل جانب وتغلق موارده بقدر المستطاع لابد أن يصفي وأن ينساب حرًّا في كل واد !

نعم ضيق الإسلام أسباب الرق حتى لم يجعل له من سبيل إلا سبيلًا واحدًا أجازه ولم يوجبه وهو الأسر في الحرب المشروعة العادلة !

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [سورة محمد : ٤] .

وأنت ترى أن الخيار هنا وقع بين المن والفداء بالنسبة للأسرى وهما حالتان من حالات فك الأسر :

الأولى : بلا عوض ، وهو المن وقدم على الفداء تفضيلا لأمره وتحريضًا على فعله .

الحالة الأخرى : بعوض من تبادل الأسرى ، أو دفع المال ، يباشر معه الأسير حريته في السعي والعمل .

وتعجب إذ ترى بعد هذا أن من مصارف الزكاة المشروعة « في الرقاب » أي

المعاونة في فك الأسر وعتق الرقاب !

روى ابن عبد الحكم قال يحيى بن سعيد : بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد فقيرًا يأخذها .

وقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس فاشترينا بها رقابا فأعتقناهم .

بل أوجب الإسلام على المالك أن يعين مملوكه على الحرية ، وأن يعاونه عليها :

﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ ﴾ [سورة النور : ٣٣] . يعني عاونوهم عليه .

وفي صحيح البخاري بعد ذكر الآية المذكورة . قال روح عن ابن جريج قلت : أواجب لعطاء عليّ إذا علمت أن له « أي لمملوكه » مالا أن أكاتبه ؟ قال : ما أراه إلا واجبًا .

نعم ضيق الإسلام في أسباب الرق فلم يجعل منه إلا هذا السبب « الخياري العادل » وقد كان من أسبابه في الجاهلية السبي في الغارات القبلية والأسر في القتال سواء أكان مشروعًا أم غير مشروع والبيع والشراء والاستدانة أو الوفاء بالديون .

ضيق أسباب الرق بصورة تجعل الأمر أقرب إلى المنع منه إلى الإباحة .

ووسع في أسباب العتق وجعله من أجل القربات إلى الله ، كما جعل عدم القيام به من العقبات التي تحول دون رضاه : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ ﴾ [سورة البلد : ١١ ، ١٢] أي عقبة هذه التي تحول بينه وبين الظفر برضا الله ونعمه ؟ ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالمَرْحَمَةِ ﴾

[سورة البلد : ١٣ - ١٧] .

وقد حرض الإسلام على المن وكلف الدولة أن تعاون في تحرير الرقاب ، كما أوجب في حالات فردية على الإنسان أن يقوم بعتق رقبة ليعتق نفسه هو من إثم المعصية والمؤاخذة عليها .

ففي القتل خطأ ، ورد قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [سورة النساء : ٩٢] .

وفي كفارة اليمين ، ورد قول الله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [سورة المائدة : ٨٩] .

وفي كفارة الظهار ، ورد قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ [سورة المجادلة : ٣] .

وقد اتفق العلماء على شرعية عتق الكافر وإن اختلفوا في عتقه في الكفارات حتى قال بعضهم في كفارة اليمين : عتق رقبة مطلقًا مؤمنًا كان أو كافرًا لوروده في الآية بلا تقييد .

ثم تأمل كيف يلتمس الإسلام كل سبيل لتحرير الرقاب ؟

– إذا خرج الأرقاء من دار الكفر ودخلوا دار الإسلام صاروا أحرارًا ، وعلى دولة الإسلام أن تعاملهم على ذلك :

– روى مسلم عن أبي مسعود البدري قال : كنت أضرب غلامًا بالسوط فسمعت صوتًا من خلف : اعلم أبا مسعود . فلم أفهم الصوت من الغضب . قال : فلما دنا مني إذ هو رسول الله ﷺ ، فإذا هو يقول : اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود ، فألقيت السوط من يدي ، وفي رواية فسقط من يدي السوط من هيبته . قال : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر منك على الغلام ، وفي رواية عليه ، فقلت : يا رسول الله هو حر لوجه الله . فقال : « أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار » .

– الجارية التي تلد لسيدها تصير حرة من رأس ماله بعد موته .

– من ملك أحدًا من أقاربه عتق عليه : « من ملك ذا رحم محرم فهو حر » .

ثم تأمل جانب التحريض من فم الرسول الكريم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أيما رجل اعتق امرأ مسلمًا استنقذ الله بكل عضو منه عضوًا من النار .

ومع كل هذا تأمل معاملة الإسلام للرقيق ، بل تأمل الحقوق التي أوجبها له :

فمن حيث المعاملة تسمع قول رسول الله ﷺ : « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

وقوله : « ولا يقل أحدكم : عبدي وأمتي ، وليقل فتاي وفتاتي » .

وقوله : « لقد أوصاني جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس تستعبد ولا تستخدم » .

وسأله ابن عمر يومًا : « كم اعفو عن الخادم » ؟

قال : اعف عنه كل يوم سبعين مرة . وهذه مبالغة يراد بها العفو عنه كلما أذنب .

ولقد عد الإمام أحمد رضي الله عنه : أن شهادة الرقيق كشهادة الأحرار ومعظم الفقهاء : على أن الحر يقتل بالعبد كما يقتل العبد بالحر .

ولعلك تذكر ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع من جاء يشكو خادمًا له سرق ، قال له وقد تبين أن السرقة عن حاجة وضرورة « لو جاءني خادمك سارقًا لقطعت يدك أنت » !

وقد جعل الإسلام من الحقوق الطبيعية للرقيق أن يتبوأ بدينه وخلقه أعلى المراتب ، أرأيت أنه يحرّض على اختيار ذات الدين فيقول : « ولأمة سوداء ذات دين أفضل » فأمام الرقيق إذن حرية يتاح بها أن يفضل الحر وأن يفوقه .

ونسب الإنسان في عمله : « ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » !

قارن بين هذا وبين ما عليه الإنسانية من قديم وحديث ، لتدرك أن الإسلام في بره وتكريمه للإنسان قد فاق كل بر وتكريم !

في القديم : كانت الإنسانية تنظر إلى الرقيق نظرة استذلال ومتاع ليس له حقوق ولا ينظر إليه كإنسان سواء في ذلك عند الرومان أو اليونان حتى لتسمع أفلاطون يقضي بحرمان العبيد من حق المواطنة ، وتلميذه أرسطو يرى أن فريقًا من الناس مخلوقون للعبودية لا مشيئة لهم ولا إرادة ، شأنهم شأن الآلات الجامدة التي يملكها الناس ويستخدمونها كما يشاءون .

وفي عصرنا الحديث تجد أرقى الأمم تجعل للبيض من الحقوق ما ليس للسود ! فلا يجالس الأبيض الأسود ولا يؤاكله ولا يرضى أن يكون معه في دور العلم والمركبات العامة وقانون الدولة يقرر ذلك ويراه أمرًا طبيعيًّا !

ولكن الإسلام من أول يوم حطم هذه الفرقة الزائفة التي لا تقوم على سبب من أسباب التفاضل .

نعم حطمها وجعل من حق العبد وهو في أسر سيده من الحقوق مثل ما للسيد الحر : يصاحب محمدًا ﷺ ويجالسه ، ويأكل معه ، ويناقشه !

ولقد هبت نسمة الجاهلية يومًا في لفظ صدر من أبي ذر وهو في ثورة غضب مع بلال ، قال أبو ذر لبلال : يا ابن السوداء !

فشكاه بلال لرسول الله ﷺ ، فقال الرسول لأبي ذر : « أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية » !

فأبى أبو ذر وقد أدرك خطأ ما فعل إلا أن يضع خده على التراب ، وطلب بلالا أن يطأ وجهه ندمًا وتوبة !

لا إله إلا الله : نداء العقيدة ، وجوهر الإسلام ، وأصل الفطرة .

نداء ، هتف به الأنبياء جميعًا ، وحقيقة يقوم عليها أمر الخلق ويستقيم بها سلوكهم .

وبها وحدها تتم المساواة الصادقة التي لا تنزع معها الإنسانية إلى فرقة جنس أو لون أو وطن .

ولقد بُعِثَ محمد ﷺ والإنسانية تعاني من سرطان الفرقة الكذوب ، ومن وباء

العبودية المارقة عبودية الإنسان للإنسان نتيجة البعد عن هذه الحقيقة « لا إله إلا الله » .

فهتف محمد بالنداء ليزيح عن الفطرة ظلام الشرك ويرفع عن البصيرة غشاوة الإفك ، ويرد إلى الإنسانية حقيقتها وهو يكشف لها الزور والبهتان ويدعوها إلى صدق الفطرة وعدل الحقيقة وبر الإيمان .

ولم يكن أهل الكتاب أحسن حالا – وقد اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلا – من غيرهم لذلك ناداهم الرسول كما نادى غيرهم إلى الحقيقة التي نادى بها عيسى وموسى واتبعها الأنبياء جميعًا :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٦٤] .

وقف عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ .

هنا تتأكد المساواة الصادقة ويذهب التأله الكذوب .

هنا يمكن أن تنزع الإنسانية إلى أخوة صادقة منشؤها أنهم جميعًا من ذكر وأنثى مخلوقون لخالق واحد هو ربهم وهم عباده ، فلا يتفاضلون عنده بحسب ونسب إذ الأصل واحد والخالق واحد :

« إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ويمكنك هنا أن تتأمل في عمق قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] .

وأن تدرك منه أن الإسلام يقيم تعارفًا بين الإنسانية جميعًا هم أخوة من أب وأم ، ومن ذكر وأنثى ، أليست هذه الأخوة جديرة أن تجمع الإنسانية على ود التعارف وصدق التعاون ؟

وليس قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ إلا تحريضًا على رعاية هذه الأخوة والبر بها ، إذ كلما زادت معرفة الله وخشيته ازداد البر وامتنع المنكر ، وما أجل ختام الآية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ وهي تثير الخشية وتقيم في النفس أسباب الاستقامة والصدق : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ۝ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [سورة الملك : ١٣ - ١٥] .

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن نقف على الحقائق الإسلامية التالية :

١ - أن الإسلام يقرر الأخوة العامة ويقيمها على أساس من الود والتعارف ويجعل أقرب الناس إلى الله أبرهم بعباده .

٢ - أن دعوة الإسلام تقوم على السلم والمسالمة ، وتعتمد على المنطق والحجة : فلا يكره أحدًا على الدخول فيه ، ولا يرضى إلا أن يوفر الأمن والسلام لمتبعيه ومخالفيه ، وهو يطلب العدل حكمًا في أحوال الناس دون تأثر بحب أو بغض أو عداوة أو صلح : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٨] .

٣ - إن مشروعية القتال في الإسلام لرد الاعتداء ودفع الظلم لتتوافر للناس حرياتهم وتسلم لهم مقدساتهم ، فهو دفع لتأمين البيع والصلوات والمساجد ، وتلك ليست أماكن العبادة للمسلمين وحدهم .

وتأمين الناس ورفع الفتنة التي يمتد لهيبها إلى الإنسانية دون تفرقة قوة أمن ذاتية تقوم مع الإسلام بشكل طبيعي عادلة معتدلة ، لتنحسر الفتنة وينكمش الفساد : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٧٣] .

٤ - إن الإسلام يقدر حرمة العهد والميثاق ، ويجعل الوفاء بهما من صميم الدين : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ

جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩١] .

٥ – إن الإسلام وهذه مبادئه لم يكن ليقيم علاقات الدول على التقاتل والخصومة والتنابز ، بل يقيمها على الرحمة والتعاون ، ولا يمنعها اختلاف العقيدة عنده أن تلتقي على صلة الرحم ومفاهيم الرحمة وأسباب العدل والبر : ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة الممتحنة : ٨] .

وهذا يفسر لك روح التسامح والود في الإسلام ، ومنه تدرك أن الدعوة الإسلامية لم تعتمد قط على القوة أو البطش ، والقوة مهما بلغت أعجز عن أن تقيم عقيدة أو تحرس دعوة ما لم يكن للعقيدة أصالتها وللدعوة عوامل بقائها .

وكم هزم المسلمون وبقي الإسلام ! وكم ديست دياره فسيطر على الغاصبين نوره فتحولوا من عداوته إلى حُبّه ، ومن حرب عليه إلى تأييد له !

إن طبيعة الإسلام تأبى الإكراه وترفض التحكم ، لأن هديه بيّن وشريعته سمحة ! ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٦] .

يقول الفخر الرازي في تفسير هذه الآية : « أنه تعالى لما بيّن دلائل التوحيد بيانا شافيا قاطعًا للمعذرة . قال بعد ذلك : إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل عذر للكافر في الإقامة على كفره . إلا أن يقسر على الإيمان ويجبر عليه وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء ، إذ أن في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان » .

ولذا فإن الإسلام في قتاله اعتمد قتال المحارب فقط ، ولم يتعرض لمسالم أو معتزل مهما كانت مخالفته لعقيدة الإسلام ولو كان قصده الإكراه لقاتل الكل .

وهذا توجيه رسول الله ﷺ للمقاتلين : « اغزوا في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع » .

وليس قول ي عليه السلام : « قاتلوا من كفر بالله » إلا إغراء للمحارب

على الثبات وبيان حقيقة العدو ، وليس هذا هو الدافع على القتال وإلا فقد عاش هؤلاء وأولئك – من أصحاب العقائد التي تخالف الإسلام – في دياره فما رأوا منه إلا التسامح والبر والوفاء والرحمة ، لأن طبيعة الإسلام وعلاقة المسلمين مع غيرهم سواء من الدول أو الأفراد إنما تقوم على المسالمة والمودة والحق والعدل وتبادل المنفعة ، وهو يسوي بين المسلم وغيره في العقوبات وفي الديات ، كما يسوي بين الزوجة المسلمة وغير المسلمة في الحقوق ، ولا يمنع الزوج المسلم زوجته الكتابية أن تباشر شعائر دينها وأن تؤدي واجباته ، والمصاهرة التي يبيحها الإسلام مع أهل الكتاب لا تقوم أصلا إلا نتيجة حب وتعارف بين الأسر والأفراد .

إن الإسلام لا يبغي إلا سعادة الإنسانية وتعاونها فلا يبغي لأتباعه أن يتخموا ليجوع الناس أو يسعدوا ليشقى الناس ! وإنما ينشدهم دعاة بر ورسل سلام وأئمة بذل وإيثار ، فهو لا يبغي منفعة مادية أو استغلال أمة بل هو يحرم العدوان والاستغلال ويقيم المساواة والتكافل بين الخلق ، ويجعل التفاضل بينهم لا في الأنساب ولا في الجنس بل في صالح العمل : « لا يجيئني الناس بالأعمال وتجيئونني بالأنساب » ! ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] .

وعمر بن الخطاب يقول : لو جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بلا عمل لكانوا أحق بمحمد منا يوم القيامة » !

٦ – إن الإسلام مع كونه يمد يد السلم ويقوم على المودة والرحمة يأبى كل الأباء أن تداس مقدساته ، وأن يقوم السلم على حساب هضم الحقوق ، فتلك مسالمة يأباها الإسلام ، لأنه يأبى الظلم في أية صورة لمتبعيه أو مخالفيه على السواء : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ٩ ، ١٠] .

أرأيت كيف أمر بقتال الفئة الباغية ولو اتصفت بالإيمان ؟ وأمر بالعدل في إقامة الصلح تقريرًا للمودة !

هذا حاله مع متبعيه – لا يرضى أن يقوم باسمه بغي أو يقع بين عباد الله ظلم ، ولذا فإن العلاقة مع غير المسلمين مع كونها تقوم على المسالمة والبر والمودة والرحمة – ليست مسالمة الضعيف أو بر الخائف أو مودة الذليل أو رحمة السلبية والعزلة !

إنها لو كانت كذلك لفقدت الكلمات مدلولها ، فإن مسالمة الضعيف ضعف ، وبر الخائف خوف ، ومودة الذليل مذلة ، ورحمة السلبي سلب !

لكن الإسلام يسالم وبيده القوة ، ويبر وهو في منعة لا يرائي أحدا ولا يخشى بأس أحد ، ويبسط يد المودة عن اعتزاز بالله وإيمان لا عن ذلة أو صغار . ويرحم وهو يتفاعل في مجالات الحياة المختلفة لتعم الرحمة وتتحقق في أعماق الناس وسلوكهم .

ومن هنا كانت القوة التي طالب الإسلام بها وأمر أتباعه أن يحققوها كما قلنا ، قوة أمن تحرس الحق وترعاه وترد الظلم ولا ترضاه ، وهي في الوقت نفسه قوة لا تصدر عن هوى أو تسلط ، وإنما تصدر بأمر الله الذي حرم الظلم على نفسه وجعله محرمًا بين خلقه ونادى الخلق على لسان نبيه : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا » .

فهي قوة عدل في الأرض وتحقيق الأمن بين الخلق : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٠] .

٧ – إن الإسلام لا يباغت أحدا ولا يغدر بأحد ، وهو يضع من القواعد للحرب ما يحقق لها أسمى معاني العدل وأوفر أسباب الرحمة ، فلا يشرعها إلا ردا لاعتداء أو دفعا لظلم ، ولا يرفض يد السلم إن مدت إليه وهو في أوج النصر ، وهو لا يجعل من النصر تسلطًا على الناس أو استغلالا لحقوقهم ، بل يجعل من النصر مادة لانتصار الحق في نفوس الناس بما يبذله من عدل ورحمة سواء في معاملته مع العدو أو مودته للصديق وقد عرفت دستوره في النصر : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [سورة الحج : ٤١] .

ولأمر ما كان وسام الشرف للمجاهدين في بدر أن يستمعوا لآيات الوحي تذكرهم بنعمة وهي تخاطب النبي : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [سورة الأنفال : ١٧] . ما ذلك إلا لتستشعر النفس دائمًا نعم الله عليها وتدرك فضله ، فلا تتخذ من نعمة النصر بابا للاستغلال أو التسلط أو الفخر والتكبر : بل تخشع في محراب الله وهي تدرك فضله ، وتعرف نعم الله فتبر عباده !

قارن بين هذا وبين أسلوب الغالب مع المغلوب وما تفعله الأمم من استغلال لحقَ الشعب الذي يشاء القدر أن تكون الهزيمة بجانبه .

قارن بينه وبين ما سمعت من أسلوب الإسلام في نظرته إلى المغلوب ، إنه لا ينظر إلى الأمر على أن هذا غالب وذاك مغلوب وإنما ينظر إلى تقرير الحق بين الخلق بلا تفرقة ، وإقامة العدل بين العباد دون نظر إلى قوة هذا وانتصاره أو ضعف ذاك وهزيمته .

وهذا ما لا يمكن أن تراه أبدًا إلا في شريعة العدل ، شريعة الله رب العالمين !

٨ – إن التعايش السلمي الذي تطلبه الإنسانية وتنشده قائم في الإسلام على أساس العدل بين العباد والتعاون بينهم ، كما أنه مقرر فيه بشكل طبيعي يقوم في وجدان الفرد وضميره ويسري في حقائق الإسلام وشرائعه : من تقرير مودة الناس جميعًا ومصاهرة أهل الكتاب وإحلال طعامهم وحسن معاملتهم ، ومن الرحمة العامة الشاملة التي تحيط بكل ذي كبد ، ومن العدل الأمين الذي يبذل للعدو والصديق .

وبعد : فإن أمن الناس في إيمان المؤمنين ، وسلامهم في حقيقته ، ولن يطيب للناس أمن إذا فقدوا الإيمان ، ولن يتحقق لهم سلم وهم في بعد عن الإسلام ، ولن تقوم لهم مودة وهم يصدرون عن أثرة الجسد لا عن إيثار اليقين ، يتنكرون لمنطق الحق ويتعاملون بسفاهة الطين .

لن تطيب الدنيا إلا بصفات المؤمن ولن تنعم إلا بيقينه .

إن إيمان المؤمن يجعل من جحيم الحياة ونارها بردا وسلاما ومن فرقتها ووحشتها وحدة وأمنا .

« بأخلاق المؤمن فحسب تسلم الحياة ويسعد الأحياء » .

من كلام ذي النون في صفات المؤمن :

« المؤمن بشره في وجهه ، وحزنه في قلبه ، أوسع شيء صدرًا ، وأخفى شيء نفسا ، زاجر عن كل شر ، آمر بكل خير ؛ لا حقود ولا حسود ولا مرتاب ولا سباب ، ولا عتاب .

يكره الرفعة ، ويبغض السمعة ، طويل الهم كثير الغم ، حليف الصمت ، عزيز الوقت لا متفاخر ولا متهتك .

ضحكه تبسم ، واستفهامه تعلم ، ومراجعته تفهم ، لا يبخل ولا يعجل ولا يضجر ولا يجهل .

لا جزع ولا هلع ، ولا عنف ، ولا صلف ، قليل المنازعة جميل المراجعة . عدل إن غضب ، رفيق إن طلب ، خليص الود ، وثيق العهد ، وفي الوعد ، شفيق وصول حليم حمول ، قليل الفضول ، راض عن مولاه ، مخالف لهواه .

لا يغلظ على من يؤذيه ولا يخوض فيما لا يعنيه .

إن سب أو أوذي لم يسب ، وإن طلب ومنع لم يغضب .

لا يشمت بمصيبة ، ولا يذكر أحدًا بغيبة ، هشاش بشاش ، لا فحاش ولا غشاش ، كظام بسام ، دقيق النظر ، عظيم الحذر ، فهذا هو المؤمن حقًا » .

أرأيت صفات المؤمنين . تلك هي التي تستقيم بها دنيا الناس . ويقوم معها دينهم .

﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ ﴾ [سورة الصافات : ٦١] ، ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ ﴾ [سورة المطففين : ٢٦] .

* * *

(٥) الإسلام في مجال التطبيق

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

[سورة هود : ١٢١ - ١٢٣]

وأعني بمجال التطبيق هنا تجربة هذا الدين في واقع الحياة من جانب ، وامتداده بين شعوب العالم في يسر من جانب آخر ، فكلا الجانبين من تجربته .

وامتداده ، يبرهن على صدق ما نؤمن به من أن الإسلام دين عالمي وأنه رحمة الله للعالمين ، وأن قضايا العالم كله تجد من رحابته وعدالة حكمه ونزاهة تقديره وصدق غايته ما يصون للإنسانية ودها ويرعى أخوتها في سعيها ، ساعية في أمنها ، سالمة في عدلها ، عادلة في سلمها .

لا يمنعها اختلاف العقيدة أو الجنس أو تفاوت الجاه والنسب أن تتعاون وأن تتعارف وأن تتخذ من تعاونها وتعارفها دعمًا لمكانتها الإنسانية وتعايشها السلمي ، وأن تعلم أن الخلاف في الرأي أو الاختلاف في الجنس والعقيدة لا يمكن أن يعده الإسلام سببًا للشحناء أو البغضاء أو التناكر ، بل يعترف صراحة بقيام هذا الاختلاف في طبيعة الخلق :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾

[سورة الروم : ٢٢] .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن

رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [سورة هود : ١١٨ ، ١١٩] .

والقيمة الذاتية للإنسان إنما تظهر على حقيقتها في بوتقة الجنس البشري على اختلاف ألوانه وأجناسه وعقائده : ففي هذا المحيط الزاخر بقوى البشر ومواهب الإنسان وتشابك المصالح أو تضاربها يمكن تقويم الإنسان على حقيقته ، كما يمكن النظر إلى المذاهب والأديان في محيط التجربة العامة في واقع الحياة .

ولا أخال الإنسانية وقد قطعت شوطًا في مجال التجربة وأصبح لديها من سجلات التاريخ وحقائقه ومن الواقع المر الذي تعانيه في حاضرها إلا أنها ستعود حتمًا إلى فطرتها وستستجيب يقينًا بدافع من التجربة المضنية إلى أمثل الطرق لتعارفها وسلمها ، وهي كلما فعلت اقتربت من حقيقة الإسلام الذي يجعل قيمة الإنسان في معرفته لنفسه وتقديره لغيره : وإيمانه بخالق الكون الذي يعيش فيه .

الكونَ الذي يجمع بين شمس وقمر ، وليل ونهار ، وكواكب واجرام ، الكل يعمل متعاونًا متسقًا مع الآخر لا يتجاوز حدوده ولا يعتدي على غيره : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [سورة يس : ٤٠] .

وما الكون بصورته الرائعة التي تجمع بين المتناقضات أو المتقابلات ، ما الكون في دقة صنعه وإحكام تدبيره إلا تبصرة خاشعة وعبرة بينة للإنسان ، وهو يعمل في محيط الإنسانية فلا يدفعه اختلاف اللون أو الجنس أو العقيدة أن يعتدي أو يظلم أو يحيد عن الحدود التي تستوجبها وظيفته كإنسان امتاز عن باقي المخلوقات بالعقل المميز والقلب المدرك . وأن يتخذ من هذا الاختلاف سبيلا لدعم النهضة الإنسانية التي لابد أن تتضامن عليها الجهود وأن تتنوع القوى والمواهب ، كما يلتقي على تشييد المنزل الواحد أصحاب الحرف المختلفة والمهارات المتباينة ، يلتقون على التشييد والبناء ويتعاونون على الخير والإصلاح دون أن يتعارض عمل هذا مع ذاك أو تصدم غاية واحد مع الآخر .

وكذلك الإسلام لا يتخذ من اختلاف الناس سبيلا للتنافر أو التناكر ، بل يتخذ منه سبيلا للتعاون والتعارف ، ويقيم بين الناس جميعًا وحدة إنسانية عامة تظلها

حرية الفكر وعدالة السعي وأمن الإخاء وأمانة الوفاء ورحمة الله .

والدين الذي يطلب الإنسان على هذه الصورة ويربيه على هذه الحقيقة لابد أن يكون دينًا عالميا ينشد البر للإنسانية جميعًا ويحقق الخير للخلق أجمعين .

والدين الذي تبر غايته بالإنسانية كلها وتقوم وسائله على تحقيق الغاية في طهر وعدل لابد أن يكون رحمة الله المهداة للعالمين .

وهنا يمكننا أن نتأمل الإسلام في مجال التجربة وأن نراه في واقع الحياة :

استطاع الإسلام – وقد ظهر نبيه في جزيرة العرب – أن يجمع شتات أمة فرقها الظلم الاجتماعي ، وألقت بها القبلية الجاهلية في أودية سحيقة من المنازعات والمشاحنات ، تثار الحروب لأتفه الأسباب ، وتسفك الدماء بغير حق .

دستورها في حياتها : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » بمعناها الجاهلي وهو التعصب للقريب ولو كان ظالمًا ، وسلوكها في حميتها وأد البنات مخافة العار أو الفقر .

قبائل متطاحنة في جزيرة العرب تأكل بعضها بعضًا ، وهي تذل أمام حجر تصنعه أو صنم تعبده .

ماذا فعل الإسلام في هذه البيئة التي يعد انتصاره فيها معجزة من معجزاته وآية من آياته ؟

حول النفوس من نزعة قبلية إلى فطرة إنسانية ، ومن فرقة جاهلية إلى وحدة إسلامية ، ومن سفك للدماء إلى تقدير لحرمتها ، ومن تفاخر بالآباء إلى تفاضل بالأعمال .

وتحول دستورها : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » إلى معنى آخر : معنى الضرب على يد الظالم ولو كان أخا أو أبًا .. صديقًا أو عدوًّا .

وقد عرفت أن العربي الذي كان يستجيب لنصرة قريبه ولو كان ظالمًا قد سمع النبي ﷺ يردد الكلمة : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » فلم تطب نفسه بها إلا بعد أن سمع من النبي الكريم تفسيرًا شافيا لنصرته ظالمًا أن تأخذ على يده فذاك نصرك إياه !

وقد سمعت كلمات جعفر في هجرته وهو يصف الأمر للنجاشي فيقول : « كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفاحشة ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم وسفك الدماء ، ونهانا عن الفاحشة وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئًا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام – وذكر أمور الإسلام – فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله .. إلخ .

ولاشك أن هذا التحول كما قلت : يعد معجزة من معجزات هذا الدين ، فما كان من الممكن لشيء غيره أن يجعل العربي يهجر وطنه أو يخالف عادات قومه ومألوفاتهم .

وإننا لنعد الإسلام قد وضع النواة الأولى ، بما ربى من رجال ، لتطهير مكة من رجسها ونشر دعوته في العالمين .

وها هو ذا يهاجر إلى المدينة ، فيردها إلى وحدة الإخاء ونعمة الإيثار ، وقد كانت من قبله تصلى نار حرب ضروس بين أولي الرحم من الأوس والخزرج تؤججها مطامع اليهود في الانفراد بالسلطة إذا هلك الفريقان !

يهاجر الإسلام إلى المدينة فيتعانق لمقدمه الأوس والخزرج ، ويتآخى في ظله الأنصار والمهاجرون تربطهم آصرة الحب وتشملهم نعمة الإيثار :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحشر : ٩] .

ولم يكن توجيه القرآن وقد حاول اليهود أن يبثوا الفرقة وأن يُوقدوا نار العداوة إلا أن يذكرهم بنعمة الله عليهم وأن يحذرهم الكفر بعد الإيمان :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۝ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

[سورة آل عمران : ١٠٠ - ١٠٣] .

ولم يكن معنى الإيمان في قوله : ﴿ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ إلا الوحدة الصادقة ، ولم يكن معنى الكفر إلا العداوة والفرقة .

وكذلك مفهوم قوله : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٣٢] أي ثابروا على وحدتكم وحافظوا على أخوتكم وداوموا عليها حتى تلقوا ربكم .

تأمل هذا المد الطبيعي الزاخر وهو يغرس في حقل الإنسانية معاني المودة والرحمة والحب والإيثار ، ويطهر تربتها من الظلم والرجس والفساد ، ويجنبها أسباب الفرقة الزائفة والأثرة الكذوب .

قاومت قريش بمطامعها وجبروتها هذا الدين فلم تستطع أن تحجب مده ، وحاول اليهود في المدينة أن يعكروا الصفو فباءوا بمكرهم ، بل حاول المنافقون بأساليبهم أن يشوهوا الحقيقة أو يتكسبوا من إظهار الولاء لها ففضحهم الله .

وانطلق المد نقيًّا طهورًا وهو يلقي بالزبد ، وأشرقت الشمس فنعم الناس بالنور وأنسوا بالحياة ، وتجمعت الجزيرة أو كادت على نور الفطرة وهداية السماء ، وأم الأرض من حولها تتسامع أخبار الداعي وصوت الدعوة ، يصل إليها مسالمًا هاديا يدعوها باسم الله إلى كلمة سواء : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٦٤] .

فماذا كانت نتيجة التبليغ المسالم ؟

لم يقابل السلم – من جانب الصلف الكذوب والبغي المتمرد – إلا بالعدوان تارة بقتل الرسل العزل وهم يحملون رسائل التبليغ ، وطورًا بإعلان الحرب على الأمة المسالمة التي تبغي الحياة للإنسانية جميعًا وتنشد الخير للخلق أجمعين حتى أن كسرى وقد وصله كتاب الرسول ﷺ لم يكتف بتمزيقه ، بل أرسل إليه عامله باليمن يأمره بأن يبعث إليه برأس هذا الرجل الذي أرسل إليه الكتاب !

ومن عجب أن بازان عامله باليمن أرسل رسله إلى محمد ﷺ منفذًا طلب كسرى ، وما رجعوا إليه إلا بإسلام يحملونه بين حناياهم وخلجات ضمائرهم ، عادوا إليه لا برأس محمد كما طلب كسرى ، بل بقبس من نور أضاء على بازان نفسه وملك حسه ، وتحول من عامل لكسري يحرضه على سفك الدماء ويسخره لخدمة الباطل إلى جندي في كتيبة محمد يأمره بصيانة الدماء ويسخره في خدمة الحق !

وأي عاقل منصف يتأمل حال الدولتين : الفرس والروم لا يمكن أن يتصور أن العرب بقبائلهم الذائبة في متاهات الصحراء يمكن أن يكونوا يومًا طليعة زحف مقدس يرفع لواء الحق ويحمل كلمة الله للعالمين ، وأن يسيطروا بتعاليم دينهم على أكبر دولتين في العالم حين ذاك ؟

إنها لمعجزة أخرى من معجزات الإسلام أن تخشع الفرس أمام صولة العرب وهم يحملون أمانة السماء ، وأن تدين الروم لهم وقد دانت قلوبهم للحق ؟

ليست المسألة هنا مسألة حرب وقتال بقدر ما هي قضية حق وباطل ، قضية حق يسالم وباطل يبغي ويتسلط .

وفي ميزان القوى المادية لا يمكن أن يقال : أن اليمن مثلا يمكن أن تهزم روسيا وأمريكا مجتمعين في وقت واحد !

والذين يقولون : إن الإسلام انتشر بالسيف غابت عنهم الموازنة بين القوى المتصارعة ، فإن قيل مكابرة : إنه انتصار سيف . كانت معجزة السيف هنا مغرية بالتعرف على الحقيقة ، داعية إلى تأمل هذا الأمر الخارج عن المألوف وهو انتصار العرب على الفرس والروم .

إن الذين يدعون أن الإسلام انتشر بالسيف لم يدركوا أن الرسول أرسل كتبه إلى ملوك الأرض يبلغهم رسالة الله ، ولم يكن لديه من قوة العدد ما لديهم ، أو عنده من وفرة العتاد ما يغريه بحربهم أو قتالهم .

وقد رأيت أن كسرى قد أغراه ما يعلمه عن عدة العرب وعتادهم أن يرسل إلى عامله في ولاية صغيرة ليأتيه برأس هذا الرجل !

وما على الذين يظنون أن السيف سبيل هذا الدين إلا أن يتأملوا خريطة العالم ليروا أي سيف هذا الذي امتد فطوى في أحضانه دولتي الفرس والروم !

أي سيف هذا الذي أقام الأمن في ربوعهما وحقق العدل ورفع منارة الحق ؟

إن كان السيف قد صنع كل هذا فما أحوج الإنسانية اليوم إليه ؛ ليرد إليها أمنها ، ويرعى سلامها ، ويحفظ مودعها وإخاءها ! ويشيع في ربوعها العدل والرحمة ، ويحمي منارة العلم والمعرفة .

وإن عجز السيف أي سيف بل إن عجزت القوى الفتاكة التي تحرزها دول العالم اليوم أن تحقق معنى واحدًا من معاني البر بالإنسانية .

فإن المسألة ليست مسألة سيف أو قنابل ذرية أو هيدروجينية ، بل هي مسألة دين فطري موجه ، وحقيقة تبعث خصائص النفس الإنسانية فتتيح لأكرم الفضائل أن تغزو قلوب الناس بالعمل الصالح والسعي العادل والموعظة الحسنة .

يقول الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد :

« وأيسر من استقصاء الحروب وأسبابها في صدر الإسلام أن نلقي نظرة عامة على خريطة العالم في الوقت الحاضر لنعلم أن السيف لم يعمل في انتشار هذا الدين إلا القليل مما عمله الإقناع والقدوة الحسنة .

فإن البلاد التي قلت فيها حروب الإسلام هي البلاد التي يقيم فيها اليوم أكثر مسلمي العالم ، وهي بلاد أندونيسيا والهند والصين وسواحل القارة الافريقية وما يليها من سهول الصحاري الواسعة ، فإن عدد المسلمين فيها قريب من ثلاثمائة مليون ، ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد إلا القليل الذي لا يجدي في

تحويل الآلاف عن دينهم بله الملايين ، ونقارن بين هذه البلاد والبلاد التي اتجهت إليها غزوات المسلمين لأول مرة في صدر الدعوة الإسلامية وهي بلاد العراق والشام ، فإن عدد المسلمين فيها اليوم قلما يزيد على عشرة ملايين يعيش بينهم من اختاروا البقاء على دينهم من المسيحيين واليهود والوثنيين أو أشباه الوثنيين .

ومن المفيد في هذا الصدد أن نعقد المقارنة بين البلاد التي قامت فيها الدولة الإسلامية والبلاد التي قامت فيها الدول المسيحية من القارة الأوربية فلم يبق من هذه القارة أحد على دينه الأول قبل دخول المسيحية . وقد أقام المسلمون في الأندلس وخرجوا منها وأبناؤها اليوم كلهم مسيحيون .

وأنفع من الإحصاءات والمقارنات أن نتفهم دخيلة الدين من روحه التي تصبغ العقيدة بصبغتها فيما يعيه المتدين على قصد منه أو فيما ينساق إليه بوحي من روح دينه كأنه عادة مطبوعة لا يلتفت إلى قصده منها . وروح الإسلام في العلاقة بين المسلم وسائر بني الإنسان كشفت عنها كل آية وردت في القرآن الكريم عن حكمة الاجتماع من أكبر الجماعات إلى أصغرها ، ومن جماعة النوع الإنساني في جملته إلى جماعة الأسرة ، وطبيعة الاجتماع في كل مخلوق إنساني منذ تكوينه في أصلاب آبائه وأجداده ، فما حكمة الاجتماع في الشعوب والقبائل ؟

وما حكمة الاجتماع في بنيان الأسرة ؟

وما حكمة الاجتماع في خلق الإنسان في بطن أمه ؟

حكمتها كلها فيما يتعلمه المسلم من كتابه أنها وشيجة من وشائج المودة والرحمة وسبيل التعارف والتقارب بين الغرباء : فالتعارف هو حكمة التعدد والتكاثر بين الشعوب والقبائل من أبناء آدم وحواء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] .

والمودة والرحمة هي حكمة الاجتماع في الأسرة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [سورة الروم : ٢١] .

والنسب هو حكمة الاجتماع من خلق الإنسان منذ تكوينه في صلب أبيه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ [سورة الفرقان : ٥٤] .

والمؤمنون أخوة والناس إخوان من ذكر وأنثى ، وشر ما يخشاه الناس من رذائلهم أنها تلقي بينهم العداوة والبغضاء .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِى الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ ﴾ [سورة المائدة : ٩١] .

والعداوة والبغضاء هما الجزاء الذي يصيب الله به من ينسون آياته ويكفرون بنعمته ، وهما الجزاء الذي أصاب الله به أهل الكتاب بعد ما جاءهم من البينات فضلوا عن سوائه ولم يبق لهم من دينهم غير اسم يدعونه ؟

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ﴾ [سورة المائدة : ١٤] .

﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٦٤] .

ولا خفاء بروح الدين كما توحيه إلى وجدان المسلم هذه الآيات وما في معناها من كلمات كتابه ، فإنها تلهمه أن المودة والرحمة حكمة الله في خلقه ، وأن العداوة والبغضاء عقاب لمن يضلون عن حكمته ومغبة السوء التي تستدرجهم إليها الرذيلة والمعصية ، ومن آمن بالله على هدى هذا الدين فقد آمن بإله يرضيه من عباده أن يسلكوا سبيل المودة والسلام ويسخطه منهم أن يسلكوا سبيل العداوة والعدوان » .

وإذن فقد انتشر الإسلام وامتد كما يمتد ضوء الشمس منسكبًا على الكون لا تصنع القوة بجواره إلا ما يصنعه الشرطي اليقظ الأمين وهو يمسك بيده صمام الأمن .

فلم تكن القوة التي ارتضاها أو دعا إليها إلا قوة حراسة الأمن لا قوة بغي

وتسلط ، وما رأينا عقيدة استكره أحد عليها إلا وئدت يوم ولدت في ضمائر الناس ، ثم أبيد كل أثر من آثارها المادية إذا ارتفع سيف الإكراه .

وواقع الأمر في الإسلام أنه يعمل في النفوس وأهله مستضعفون ، وينتصر وأتباعه مهزومون ، وما رأينا عقيدة يغزوها العدو فتأسر من غزاها ، وتحول سيفه من تسلط عليها إلى دفاع عنها وبذل في سبيلها – ما رأينا عقيدة صنعت ذلك إلا عقيدة الإسلام .

وليس يعنيني في الحديث عن انتشار الإسلام وامتداده . إلا أن أكشف عن حقيقته العاملة في هذا المجال سواء في ميدان السلم أو في ميدان الحرب .

وحقيقته العاملة تفيد أن الإسلام مد ظلاله على كثير من الأوطان المتنافرة والديار المختلفة ، فشملها بنعمة الإخاء والتعارف والطمأنينة والعدل ، وعاشت تحت ظله فئات كثيرة تخالفه في العقيدة فما وجدت منه إلا المودة والبر حتى لقد حظي أفراد كثيرون من غير المسلمين بمناصب الوزارة تحت لوائه وفي حكومته ، وبقيت مقدسات اليهود والنصارى في دولته مصونة بحمايته قائمة برعايته .

والإسلام الذي أباح للزوجة الكتابية وهي في كنف مسلم يرعاها أن تزاول شعائر دينها وأن تذهب إلى كنيستها لن يضن على أصحاب دين أن يعيشوا وأن يزاولوا أمورهم وشعائرهم في حرية كاملة وعدالة صادقة .

جرب الإسلام من هذه الناحية ناحية معاملته لمن يخالفه في العقيدة .

ولست أنا الذي أقول هذا أو أقرره بل إن شهادة التاريخ ووقائعه التي أقر بها أعداء الإسلام أو مخالفوه تقطع بصدق ما نقول :

يقول غوتيه : « لقد ثبت أن الفاتحين من العرب كانوا على غاية من فضيلة المسامحة لم تكن تتوقع من أناس يحملون دينًا جديدًا ، وما فكر العربي قط في أشد أدوار تحمسه لدينه الجديد أن يطفيء بالدماء دينًا منافسًا »[1] .

---

(١) « الإسلام والحضارة العربية » للأستاذ محمد كرد علي .

وقد جاءنا العالم « ميز » في باب التسامح الإسلامي بتفاصيل أشد غرابة من هذه قال : « إن من أعظم بواعث الاستغراب كثرة عدد غير المسلمين من رجال الأمر في الدول الإسلامية . وقد شوهد المسلم في بلاده يحكم عليه النصارى ، وحدث مرتين في القرنين الثالث للهجرة أن كان من النصارى وزراء حرب ، وكان على القواد حماة الدين أن يطيعوهم وينفذوا أمرهم » .

لقد نال أصحاب الأديان الأخرى من حرية التفكير الديني ، وحرية العمل في ديار الإسلام ما جعلهم يتبوأون أكرم المنازل وأرفع المناصب في دولة الإسلام .

فقد كان مستشار عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ) أبا القديس يوحنا الدمشقي .

وفي عهد المعتصم (٢١٨ – ٢٢٧ هـ) كان سلمويه يشغل منصبًا يقرب من منصب الوزارة في عصرنا الحديث ، وكانت الوثائق لا تتخذ صفة التنفيذ إلا بعد توقيعه عليها ، وكان له أخ يدعى إبراهيم يحفظ خاتم الخليفة كما عهد إليه بخزانة بيوت الأموال في البلاد ، وقد بلغ من تكريم الخليفة الشديد لإبراهيم هذا أن عاده في مرضه وحزن عليه بعد وفاته ، وقد أمر يوم تشييع جنازته بإحضار جثمانه إلى القصر حيث أقيمت له الطقوس المسيحية !

وفي عهد المعتضد (٢٧٩ – ٢٨٩ هـ) كان عمر بن يوسف والي الأنبار مسيحيا .

وعهد الموفق ، بأمر تنظيم الجيش إلى مسيحي يدعى إسرائيل ، بل كان كبير وزراء عضد الدولة البويهي (٣٣٧ – ٣٧١ هـ) مسيحيا يدعى نصر بن هارون وقد حكم العراق وجنوبي فارس .

ولا نستطيع هنا أن نذكر هذه الصور التي فاضت بها كتب التاريخ وأصبح أمرها غير خاف على المشتغلين بشئون الإسلام وتاريخه .

كذلك فإن ديار الإسلام في شتى أدوار التاريخ تشهد بمدى السماحة والحرية التي تلاقيها الطوائف غير الإسلامية في بلاد الإسلام حتى اليوم : مما لا يمكن أبدًا أن يتوافر لأبناء الإسلام إذا وجدوا أقلية أو رعايا في بلد غير إسلامي .

لست أبالغ في القول إذا قلت : إن الإسلام قد جرب في عصوره المختلفة من هذه الناحية ، وقد بلغ من سماحة أهله وتقديرهم لحرية غيرهم قدرًا لا يمكن أن يجحده أشد الناس عداوة للإسلام .

يقول الأستاذ محمد كرد علي في كتابه (الإسلام والحضارة العربية) :

« كان في القدس لما استرجعها صلاح الدين (٥٨٣ هـ) من الصليبيين مائة ألف صليبي منهم ستون ألف راجل وفارس ، سوى من تبعهم من النساء والأطفال فأبقى صلاح الدين على حياتهم ، واستوصى بهم خيرا ، ونابذ فقهاءه فيما ارتأوه من معاملتهم بمثل ما عامل به أجداد الصليبيين جمهور المسلمين يوم فتحهم القدس ، واكتفى بأن ضرب على كل رجل منهم عشرة دنانير ، وعلى كل امرأة خمسة ، وعلى كل طفل دينارين وعجز بعضهم عن دفع هذه الفدية ، فأدى الملك العادل أخو صلاح الدين فدية عن ألفي صليبي ، واقتدى به صلاح الدين نفسه فأعفى كثيرين من هذ الغرامة ، وأغضى عن جواهر الصليبيين وما معهم من الذهب والفضة ، وعامل نساء الإفرنج معاملة لطف وظرف ، وسهل سبيل الخروج للملكتين عظيمتين بما معهما من جواهر وأموال وخدم ، ورخص للبطريرك الأكبر أن يسير آمنا بأموال البيع وذخائر الجوامع التي كان غنمها الصليبيون في فتوحهم . ولما قال المسلمون لصلاح الدين : إن هذا البطريرك يقوى بما أخذ على حرب المسلمين ثانية قال : لا أغدر به ، ولم يأخذ منه إلا عشرة دنانير فقط » !

والفضل في ذلك إلى روح الإسلام الذي يجعل المسلم يحترم حرية الآخرين . الإسلام الذي يبغض الظلم في أية صورة ومع أي شخص كان .

ولعل من أبين الأسباب التي جعلت الناس يدخلون فيه أفواجا ويتجول كثير من أصحاب الأديان إليه ويحسنون استقباله والترحيب به هذه السماحة التي عرفت عنه ، وقد عرفت أن الأهالي من المسيحيين قد كتبوا إلى المسلمين عند فتحهم لبلاد الشام يقولون :

« يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا أنتم أوفى لنا

وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا .

وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم » .

بل لقد بلغ من تكريم المسلمين لأهل الذمة أن قال ابن حزم : « إن من حق حماية أهل ذمتنا إذا تعرض الحربيون لبلادنا ، وقصدوهم في جوارنا أن نموت في الدفاع عنهم ، وكل تفريط في ذلك يكون إهمالا لحقوق الذمة » .

وإننا لنرى ابن تيمية : يأبى أن يقبل أسرى المسلمين وحدهم دون أهل الذمة من الذين أسروا في حرب التتر لما تغلب المسلمون عليهم ، وقال لقائد التتر :

لابد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع أسيرا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة فأطلقهم له جميعا .

ولم يكن الإسلام قد جرب من ناحية معاملته لأهل الذمة فحسب ، بل جرب أيضا من ناحية نظرته للإنسانية بصورة عامة وبره بها بصورة محققة ، فلقد حطم بعقيدته وثنية الجاهلية التي تباين الناس بسبب مادي من جنس أو لون أو جاه أو حسب ، وجعل التفاضل فقط في صالح العمل .

فلا بأس في الإسلام أن يرقى العبد الأسود أعلى المراتب ما دامت تؤهله لذلك صفاته ، وأنت تسمع ابن الخطاب يقول وقد حضرته الوفاة : « لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لوليته » . يقول ذلك وفي أصحاب الشورى ، علي ، وعثمان ، وعبد الرحمن ، وطلحة ، والزبير !

ونرى رسول الله ﷺ يولي زيد بن حارثة قيادة الجيش وفيه من الصحابة من فيه ممن كانت الجاهلية تفرق بينه وبينهم ، فجمعهم الإسلام على أخوة راشدة لا تعرف إلا صدق الغاية وصالح العمل .

بل لقد ولى من بعده ابنه أسامة وفي الجيش ابن الخطاب يعمل جنديا تحت إمرته ، وترى الصديق يقدر لهذه الإمارة قدرها ، ويمشي في ركابها ويقول لأسامة مستئذنا : « إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل » .

يستأذن أسامة في أن يترك له عمر ليكون عونا له في تدبير أمور الخلافة !

ثم ترى روح العقيدة تسري فلا تميز في القصاص أو الحدود بين شريف ووضيع أو بين غني وفقير .

قالوا : إن المخزومية سرقت وهي من قبيلة لها مكانتها في العرب فلابد أن نستأذن رسول الله في العفو عنها ، من يكلمه ؟

ورأوا أن يقوم بهذا الأمر أسامة ، وتقدم أسامة إلى رسول الله ﷺ يكلمه في أمر المخزومية ، فما راعه إلا أن رأى الرسول الكريم يعنفه مغضبا وهو يقول : « أتشفع في حد من حدود الله ؟ إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق منهم الشريف تركوه ، وإن سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » !

إن دينا يجعل أساس السلوك والعمل : الإيمان بالله والخشية منه لهو جدير أن يحقق أكرم مساواة إنسانية عرفها البشر .

وقد رأينا من أولى النتائج لهذا الإيمان « يقظة الضمير » التي تجعل الفرد يقبل إلى رسول الله طائعا لا يسوقه إلا يقظة ضميره وإدراك غايته ، يقول : يا رسول طهرني من الزنى – وهو يعلم أنه مقبل على موت – فيرده الرسول مرارا فيأبى إلا أن يقام عليه الحد مكررا اعترافه في كل مرة : لأن ضميره لا يسمح له أن ينطوي على معصية ولا يرضى أن يلقى الله بذنب ارتكبه .

ولم يكن هذا التحول من رجس الجاهلية إلى طهر الإيمان ليتم إلا نتيجة عقيدة فطرية تملك زمام النفس وتحدث يقظة راشدة في السعي والتقدير .

ولقد رأينا من أثر هذا التحول أمة ترى عزها في الحق ومجدها في العدل وذخرها في السماء ، كما رأينا رجالا تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ، ينشدون رضا الله في البر بخلقه ، ويطلبون رحمته في رحمة عباده ويتطلعون إلى مرضاته وهم يخلصون العمل له ويتوجهون إليه .

رأينا الواحد منهم لا يرضى لنفسه أن تنفعل بجاه دنيوي أو تنخدع ببريق مادي !

رأيناه يقف منها موقف المؤدب لها يحملها على ما تكره ويصرفها عما تحب :

هذا ابن الخطاب يقول لبطنه الذي يشكو ألم الجوع : « قرقر أو لا تقرقر لن تذوق اللحم حتى يشبع أبناء المسلمين » .

ويراه ابنه وهو خليفة المسلمين يحمل قربة ماء على كتفه فينكر عليه ويقول : ما حملك على هذا ؟ فيقول عمر رضي الله عنه : « أعجبتني نفسي فأحببت أن أذلها » !

وهو الذي يتوجه إلى الناس ويقول لهم : « رحم الله امرأ أهدى إليّ عيوبي » .

أرأيت إلى طلاب الكمال والسائرين في طريقه كيف أتاحت لهم هذه العقيدة أسباب الكمال الحقيقي والرفعة الصادقة ؟

إن تربية النفس أكبر أساس لحسم الشر الذي يفتك بروح الاجتماع فكم من فساد يقع في دنيا الناس منشؤه الأثرة الضالة والهوى الكذوب .

ومن دلائل الخير للإنسانية أن يستقيم أمرها مع الحق ، وأن تتجنب متابعة الهوى حتى لا تضل السبيل : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [سورة ص : ٢٦] وصدق رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .

فذاك هو الطريق الوحيد لإقامة سلم حقيقي في مجال الإنسانية كلها ، سلم ينبع من التقدير لمعنى الإنسانية لأنه يرتبط أصالة بخالقها ، وما كان للسلم أن يسلم في واقع الحياة إلا إذا سلمت نفوس البشر من ظلم الشرك وظلام السلوك ؛ إذ لا يمكن المجتمع البشري أن تستقيم ألفته إلا إذا طرح الفرد أسباب الفرقة والشحناء من نفسه ، وما أسبابها إلا انحراف السلوك الناشيء عن انحراف العقيدة ، وما أسباب الألفة إلا استقامة السلوك الناشيء عن صدق العقيدة .

إن للبغي عوامل ودوافع مرجعها إلى النفس ، وللفساد أيضا عوامل ودوافع مردها النفس وانحراف القصد ، والدار الآخرة التي هي محط الرحال جعلها الله للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا لتظفر دنيا الناس من جنة الله بأسباب الطمأنينة والأمن .

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة القصص : ٨٣] .

وما نعيم الآخرة في حقيقته وأسبابه إلا تصحيحا راشدا لأسباب العمل والسلوك ، فإذا كانت الآخرة لا تنال إلا بالصدق وجب أن يتحقق الصدق في دنيا الناس ، وفي ذلك من استقامة الحياة وتوطيد السلم ما فيه .

وإذا كانت الآخرة لا تنال إلا بالعدل وجب أن يتحقق العدل في دنيا الناس وفي ذلك من إقامة الألفة والأمن ما فيه .

وهكذا كل ما تتطلبه الآخرة من طهر السلوك وصالح العمل وطيب الكلم يعود أولا على دنيا الناس بأسباب الطمأنينة والسلام والأمن ، ولا يتأتى مع قيام هذه الصفات بغي أو فساد .

ولقد جرب الإسلام في هذا المجال فكانت شرائعه كلها دعائم سلم وسلام ، وكانت فرائضه جميعا أسباب أمن وإيمان .

ولا أخال الإنسانية ترشد في سعي أو تستقيم في بر أو تأتلف في سلام أو تتآخى في حب أو تتكافل في عدل إلا إذا اتخذت من سلوك محمد ﷺ أسوة حسنة وهو رسولها جميعا ورحمة الله المهداة للعالمين : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٠٧] .

إن الإسلام قد امتد وانتشر وسعدت به أمم وشعوب ، لأن أصالة الرحمة فيه وقيام البر في شئونه كلها جعلا كتائب الظلم تنحسر أمام مده ، وتنهزم إزاء صيحته وينطوي ليلها عند مطلع فجره وظهور شمسه .

نعم بالروح الإسلامية التي انتصرت على النفوس فطوعتها للخير انطوى ظلم التفاوت الكذوب الذي كان يسيطر على دولتي الفرس والروم ، ويقيم في دنيا الناس آلهة من الطين لا تلبث أن تتوارى في التراب .

كما انطوى ظلام العقيدة الذي أقام الناس على جحود النعمة وبوأهم ظلمة القبور ، انطوى الظلام كما ينطوي الليل البهيم أمام الفجر الصادق الذي يتصل بشمس الحقيقة فيؤذن الدنيا بصحو ونور .

وقيل في تعليل الأمر : إن الإسلام انتشر بالسيف ، وما السيف في موكب الإسلام إلا متخلق بأخلاق أهله لا يرتفع ولا ينخفض إلا بقانون .

وقيل : جياع لفظتهم الصحراء . وما رأت الدنيا من البسلاء المجاهدين والأموال تسيل بين أيديهم – إلا العفة والاغضاء – يكثرون عند الفزع ، ويقلون عند الطمع ، ألم يردوا إلى نصارى حمص أموالهم حين عجزوا عن حماية ذمتهم ؟

ألم يرد مجاهدهم حقه في الغنيمة وقال لرسول الله : أنا ما بايعتك على هذا وإنما بايعتك على أن أُضرَب هنا وهنا وأشار إلى مواضع كأنما كان يشير إليها بيد القدر ، وقتل الرجل فشهد الرسول بصدقه ، وقال : « صدق الله فصدقه الله » ؟

ألم يقل نبي الإسلام حين سئل عن الرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل من أجل كذا وكذا أي ذلك في سبيل الله ؟ فحدد الرسول الكريم أمرًا واحدًا لا يصلح غيره أن يكون غاية للمجاهدين : قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » [1] .

نعم بهذه الروح الإسلامية التي جعلت منطق الخير يسري بين الناس وروح العدل تقوى بينهم وأدب البر يعمل في سلوكهم ، بهذه الروح انتشر الإسلام وامتد نوره .

لم لا ينتشر الإسلام ، والحق يقوله الفرد ولو على نفسه والعدل يحققه مع أشد أعدائه ؟

وهل رأيت في دنيا الناس خليفة يقف أمام قاضيه فيحكم عليه دون خوف أو وجل ؟ وهل رأيت قاضيا يوقن أن الحق بيد الخليفة فلا يقضي له إلا إذا أقام بينة

---

(١) رواه البخاري .

عليه ؟ هذا أبو يوسف يجلس للقضاء وأمامه الهادي « الملك العباسي » ورجل من عامة الناس تخاصما على بستان : فحكم أبو يوسف للرجل وقد تبين له الحق . ثم ها هو ذا يرد شهادة الفضل بن الربيع وهو من هو في مكانته فيعاتبه الخليفة قائلا : رددت شهادته ؟

فيقول : سمعته يقول : « أنا عبدك » فإن كان صادقًا فلا شهادة للعبد ، وإن كان كاذبًا إنه لكذلك .

وهذا شريح في عهد عمر يحكم على عمر وهو خليفة المؤمنين !

ساوم عمر رجلا على فرس ، فركبه عمر ليجربه فعطب الفرس ، فأراد عمر أن يرده إلى صاحبه ، فأبى صاحبه أن يقبله ، فتحاكما إلى شريح القاضي ، فسمع لكل منهما ثم قال : يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت : وهل القضاء إلا كذلك ؟

ثم ها هو ذا علي كرم الله وجهه وهو خليفة المسلمين يجد درعه عند رجل نصراني وكان من الممكن بما له من قوة وسلطان أن يسترده ، ولكنه لم يفعل ، بل ذهب إلى شريح قاضيه يخاصم النصراني في الدرع ويقول : إنها درعي ولم أبع ولم أهب .

فسأل شريح النصراني : ما تقول فيما ذكر أمير المؤمنين ؟

قال النصراني : ما الدرع إلا درعي ؟ وما أمير المؤمنين عندي بكاذب .

فالتفت شريح إلى علي يسأله : يا أمير المؤمنين هل عندك من بينة ؟

فضحك علي وقال : أصاب شريح ، ما عندي بينة .

فقضى شريح بالدرع للنصراني وانصرف ، وأمير المؤمنين ينظر إليه ، ولا يستطيع أن يقول شيئًا ، وكانت المفاجأة أن عاد النصراني بعد خطوات يقول :

« أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء – أمير المؤمنين يدنيني إلى قاضيه فيقضي عليه ! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين ، تبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين ، فخرجت من بعيرك الأورق ، فقال علي كرم الله وجهه أما إذ أسلمت فهي لك » !

إن الإسلام في مجال التجربة قد أرسى للإنسانية دعائم النهضة الكاملة التي ينعم الإنسان فيها بحضارة المادة مع سمو الروح ، ونعمة الحياة مع أمن السلوك وسعادة الدنيا مع نعيم الآخرة .

ولقائل أن يقول : وما هذه الفرقة التي مني المسلمون بها في فترة مبكرة من حياة الإسلام ؟

ما هذه الفرقة التي سالت من أجلها دماء ؟

اقتتل فريقان من المؤمنين وتشعبت الفتنة حتى جعلت من المسلمين شيعًا وأحزابًا ، وما زال المسلمون حتى اليوم يعانون آثار هذه الفرقة ونتائجها !

ألا يدل ذلك على أن الإسلام قد عجز أن يحقق سلامًا بين أهله فجدير به – والحالة هذه – أن يعجز عن تحقيق سلام بين العالمين .

أليست التجربة كما أثبتت مقدرة الإسلام على إيجاد أمة تصون العدل والحق وتحفظ السلام ، قد أثبتت أيضًا أن الإسلام لم يحل دون الفرقة والحرب بين أتباعه ؟

نقول : من المعلوم أن الإنسان يحتاج في حياته إلى الطعام والشراب لكي يحافظ على كيانه ويصون بنيانه ؛ فهب إنسانًا امتنع عن الطعام فذبل جسمه وضعف سعيه وتوقفت حركته أو أنه يدرك حاجة الجسم وما يحتاج إليه من غذاء متكامل تتوافر فيه عناصر معينة ، فتناول بعض هذه العناصر وأهمل بعضها أفلا يوجد ذلك خللا في جسمه وعللا في جسده وتصدعًا في بنيانه ؟

إن الإسلام غذاء متكامل لحياة الإنسانية وعافيتها والتفرقة فيه تودي بسلامة الإنسان أو تعوق سعيه .

والحقيقة من حيث كونها حقيقة لا عيب عليها إذا انصرف الناس عنها ، وإنما العيب أن يأخذ الناس أنفسهم بها فلا تحقق لهم المودة والأمن والسلام والرحمة وهذا ما لم يكن قط في تجربة الإسلام .

ما اقترب الناس منه ولا أخذوا أنفسهم بتعاليمه إلا صان وحدتهم وحقق ألفتهم وأشاع البر بينهم وما ابتعدوا عنه إلا كانوا حيث ارتضوا لأنفسهم .

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [سورة الصف : ٥] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الرعد : ١١] .

الإسلام كحقيقة لا عيب إذا قامت الفرقة بين المنتسبين إليه أو المتسمين به .

إن ناسًا يقيمون تحت الشمس لا يستطيعون أن يبصروا ضوءها أو يستقيموا على رؤيتها فهل العلة في الشمس أو في البصر ؟

وشهوات النفس التي تتعلق بمفاتن الحياة وحظوظها كثيرًا ما تلبس أجمل الثياب لتحقق مغانمها .

وكثير من الناس يدركون المباديء ومدى تعلق الناس بها فيتحمسون ويبالغون في التحمس لهذه المباديء لينالوا حظوة بين العباد .

ومن الناس من يصدقون في عقيدتهم ويبذلون كل مرتخص وغال في سبيل ما يعتقدون :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٠٧] .

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٢٣] .

وإذن فهذه الأصناف من العباد مع تدرجها في الصدق والكذب وتباينها في مراتب كليهما ، شيء معترف بوجوده مع أكرم المذاهب وأطهرها .

ومع وجود الملائكة قام إبليس ، وفي رحاب الحياة يعمل الشيطان .

ولا ننسى ونحن نعالج هذه القضية – قضية الإسلام في مجال التجربة – أن ندرك أننا هنا في دار ابتلاء واختبار فهي لا تخلو أبدًا من المنافسة والصراع ، كما لا تخلو من وجود الخير والشر ، وكلاهما مادة ابتلاء وفتنة :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٣٥] .

ومن هنا فإن التجربة يجب ألا ينظر إليها من جانب الانحراف الذي وقع من بعض الأتباع الذين حكموا مطامعهم في دين الله ، وألبسوا شهواتهم ثوب الدين ، وأغراهم سلطان الدنيا فقاتلوا عليه وهم يزعمون الذود عن سلطان الدين .

إننا نرى في مجال الحياة أن طفلا عابثًا يمكن أن يشعل نارًا في بلد آمن ، وأن أصحاب المطامع يمكن أن يعتدوا على أصحاب الحقيقة وهم يصورون للدهماء أنهم يدافعون عن مصالحهم ، وكذلك فعل أصحاب المطامع بسقراط كما فعل بنو إسرائيل بأنبيائهم .

من الممكن الاعتداء على حملة الحق بل كثيرًا ما يتعرضون على مر التاريخ لألوان البطش والعذاب والصراع قائم بين الحق والباطل إلى يوم القيامة .

وكل ما يستطيعه مصلح أو يفعله دين أن يجعل لواء الحق مرفوعًا وكلمته عالية ، لتتحقق للناس أسباب الأمن والطمأنينة والتعارف والمودة .

وهل من الممكن أن تتجنب معركة يرغمك عليها طامع باسم الدين أو متسلط باسم الدفاع عن المظلومين ؟

كثيرًا ما ترغم على معركة يكون الخصم فيها ابنًا أو أخًا أو أبًا ، ولا تستطيع أن تتجنب المعركة بأية حال .

والإسلام حتى في هذا الجانب من الصراع بين المؤمنين كان واقعيا في تقريره أن خلافًا ما يمكن أن يقع بين المؤمنين ويضع لذلك تشريعًا حكيمًا في سورة تنهى عن التشيع بأقوال أهل الفسق كما تنهى عن السخرية وسوء الظن ، في سورة تدعم أسباب الأخوة الإنسانية « سورة الحجرات » تسمع قول الله تعالى :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة الحجرات : ٩] .

لو أن الإسلام لم يذكر ذلك أو افترض أن أفراد البشر كأفراد الملائكة : ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [سورة التحريم : ٦] لقلنا : إنه دين

خيالي يرسم مدينته الفاضلة في مخيلة الفكر لا في حقيقة الحياة .

أما أن الإسلام يقرر : أن خلافًا يمكن أن يقع بين المؤمنين ويندب إلى إنهاء الخلاف ومحاربة البغي ويجعل غايته من ذلك تحقيق العدل مع إقامة الصلح ، فذاك بحق وصدق دين البشر ودين الحياة .

يجب ألا نغفل طبيعة البشر ونحن ننظر إلى الإسلام في واقع الحياة .

ويجب كذلك ألا نظلم الحق فنخلط بين جوهره وبين بعض المنتسبين إليه ، وقديمًا قيل : « اعرف الحق تعرف أهله » .

والتجربة القائمة بين أيدينا على مر الدهور تعطينا أولا : أن الإنسانية تحتاج لكي تنعم بالتعاون والرحمة وتظفر بالأمن والسلام تحتاج إلى صفات لابد من توافرها ، وبمقدار قربها أو بعدها عن هذه الصفات يكون مقدار البعد أو القرب من أسباب الأمن والسلم .

ونحن نقول : إن الإسلام بحقائقه الزاخرة ومبادئه هو الذي يعصم الإنسانية من التردي في مهاوي الفساد والظلم ومن الانزلاق إلى حرب الدمار والهلاك .

ولا أود هنا أن أكرر ما ذكرته عن الإسلام ومدى صلاحيته للإنسانية على اختلاف العصور والأزمان ، وإنما أود أن نتأمل التجربة في واقع الحياة لنرى صدق ما نقول :

بعث رسول الله ﷺ في مكة وسرعان ما توحدت به جزيرة العرب والتقت على أخوة طاهرة وإيثار مخلص ووحدة راشدة ، وقد كانت من قبله على فرقة وتنابز وأثرة وبغض .

وفارق الرسول ﷺ دنيا الناس وقد كملت شرائع الإسلام وحملها الصحب الكرام يقومون بها وينشرونها بين الناس في أمانة وصدق ، وسرعان ما فاض المد الإسلامي على بلاد الفرس والروم ، وشمل العراق والشام ومصر وما وراء العراق من بلاد فارس وما وراء مصر من بلاد المغرب إلى المحيط الأطلسي .

وإذا نحن تأملنا عمل الإسلام في هذه الرقعة وحدها مع سعتها وشمولها وتفاوت

عاداتها ومعتقداتها . وجدنا أمنا موفورًا وعدلا صادقًا وألفة بارة وعلمًا زاخرًا ونعمة وافرة ، مع أن هذه البلاد قبل أن يصل إليها المد الطهور قد اصطلت بنار الفرقة والحروب الطائشة التي لا تعرف العدل ولا الرحمة ، كما اصطلت بنار العداوة المريرة بسبب الخلاف على العقيدة وما ترتب عليه من ظلم وبغي وفساد ، ولكن سرعان ما رأيناها وقد سعدت بنعمة الإسلام تطيب بنعمة الأمن مع أخوة الايمان واستقامة السلوك مع فطرة الإسلام .

ورأينا الحرية الصادقة التي أقرها الإسلام وطالب بها – حتى في النظر إلى تعاليمه – تهيئ للإنسانية أسباب العلم والمعرفة .

وبدأت الإنسانية دورا جديدًا في هذا المضمار تناولت معه معارف السابقين فنفضت عنها غبار الماضي وصهرتها في بوتقة النقد الحر والتقدير النزيه .

وامتدت رسالة الإسلام تعلن تآخيها مع الكون وتطلب الإيمان بالله عن طريق التأمل ، فامتزج عمل الدين بسعي الدنيا ، واستحالت ديار الإسلام إلى محراب للسلم وحرم للأمن وموئل للحق والعدل .

خليفة في المدينة يحكم هذه الديار كلها وما أوسع رقعتها وأبعد أطرافها مع عدم قيام الوسائل التي تعين على سرعة الاتصال بين أطراف الدولة المتباعدة ، ولكن روحًا واحدة كانت تسيطر على هذه الديار كلها وتربط بين أجزائها وكأنها بيت واحد ، روح الإسلام التي تجعل الخليفة في المدينة ينفعل بما ينفعل به الجندي على شاطيء الأطلسي ، فأغنت روح الإسلام عن وسائل البرق أو موجات الأثير !

إن وسائل البرق قد تكذب ، وموجات الأثير قد تخدع ، ولكن موجات الأثير القرآني لا تحمل إلا الصدق ولا تهتف إلا بالحق !

المسلم على شاطيء الأطلسي يتلو كتاب الله ، فيرى أخاه وهو في المدينة ويخاطبه دون حاجة إلى شاشة « التليفزيون » أو موجات الأثير !

وانطباعات الوحي المحمدي على قلب كل مؤمن تجعله في أي عمل وفي أي ميدان يعرف سبيل العمل وحدوده وتجعله كذلك يلتقي مع أخيه في أي مكان

وزمان ، وما الخليفة في الأمة المؤمنة الواعية إلا خادم للمثل التي يؤمن بها كل فرد في الأمة .

ولهذا فإننا نسمع الصديق رضي الله عنه يلقي أول خطاب له وقد تولى الخلافة فيقول : « أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم » .

فأنت ترى أن الخليفة في الإسلام يتصرف بوحي من هذا الدين ، ومن حق أي فرد في الأمة أن يرده إلى الصواب إذا أخطأ .

ونحن نرى عمر بن الخطاب ترده امرأة في مجمع القوم فيقول : « أخطأ عمر وأصابت المرأة » .

ولقد وقف يومًا على المنبر يقول : « أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا ، فقام إليه رجل وقال : لا نسمع ولا نطيع حتى نعلم من أين لك هذا الثوب الطويل الذي تميزت فيه عن غيرك ؟

فنادى الخليفة ابنه عبد الله وقال له : قم فحدث الناس ، فأبان عبد الله للناس أنه قد أعطى والده قطعة من ثوبه ليستر به طول قامته ، فقال الرجل : الآن نسمع ونطيع » !

واستمرت الخلافة الراشدة معصومة بحبل الله مستقيمة بأمره حتى واتت المسلمين ظروف اختلفوا فيها مع أنفسهم ولم يختلفوا قط في حقيقة دينهم .

وكثيرًا ما يقع الخلاف بين أصحاب الدين ، بل كثيرًا ما يكيد الشيطان لأهل البيت الواحد ، بل كثيرًا ما يعتدي المختلفون على الحقيقة في ذاتها ، فتتبدل بفعل الهوى والتسلط وتصبح بعد زمن سببًا من أسباب الخلاف المتصل والفرقة الطائشة التي لا تجد لنفسها حقًا تركن إليه .

ولقد كان الخلاف في المسيحية هكذا : خلافًا في جوهر العقيدة وحقيقة الدين ، ولكن الخلاف الذي وقع بين المسلمين لم يكن من هذا النوع الذي ينال الحقيقة أو يذهب بجوهرها ، لم يكن خلافًا على الدين أو ما فرض الله من شرائع وإنما

كان خلافًا على السلطة ، على الحكم ، على الأشخاص ، وقد يكون الحق في التقدير أو الإنصاف عند أحد الطرفين دون الآخر عند علي دون معاوية مثلا ، ولكنه خلاف لم يتجاوز حدود الأهلية على الخلافة أو النظر لبعض جوانب الفتنة التي بدأت بقتل عثمان رضي الله عنه .

ولاشك أبدا أن غيرة المسلمين على الإسلام في ذاته هي التي أقامت الحرب بمعنى أن عليا رضي الله عنه ما كان ليسكت بأية حال على أمر يرى مجانبته للحق أو مخالفته للصدق ! ما كان لعلي أن يستقر وهو يرى أن الانحراف باد في قيادة الأمة وحكومتها ، فلابد أن يقوم وأن يجمع الناس على خلافة راشدة تستمد أسوتها من الرسول وصاحبيه ، ولو أدى ذلك إلى قتال وقتل ، ولا يعوز عليا وهو من هو في دينه وخلقه وفقهه أن يجد سنده من كتاب ربه وهو يعد معاوية ومن معه فئة باغية لابد أن تقاتل حتى تفيء إلى أمر الله .

ومهما قلبت الأمر على وجوهه فلن تجد فيه من جانب المسلمين إلا الحرص على حرمات دينهم ، ولا يمكن أن نعد ما وقع بين المسلمين في هذه الفترة المبكرة إلا أمرًا طبيعيًا نتيجة الحرص على حماية الحق وما يؤدي إليه اختلاف وجهات النظر بالنسبة للأشخاص . وكذلك اختلاف الناس أيضًا بلاشك في درجات الإيمان وأسباب اليقين الذي يترتب عليه حتمًا قصر النظر أو بعده في تقرير الأمور ، وكذلك مدى التجرد للحق والحرص على المنفعة .

ولذا فإن حقيقة الدين مع هذا الخلاف بقيت مشرقة تعمل عملها في حياة الناس وهي قائمة بحفظ الله لها تحكم في الأحداث ولا تتحكم الأحداث فيها . ترد الناس إلى الحق وتهيء لهم دائمًا أن يتعرفوا إلى أخطائهم وأن يجدوا صوابهم عندها وأن يقوموا ما لديهم من عمل وسلوك على هديها ونورها :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٠١] .

والإسلام في مقدوره دائمًا أن يصحح أخطاء الناس وأن يردهم إلى الحق وأن يبصرهم بالصواب وكل ما يطلب من أتباعه أن ينزعوا إليه وأن يحكموه فيما شجر

بينهم وذاك عنوان الإيمان بالله ودليل الصدق :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٦٥] .

وكلما اقتربت النفوس من هذا الدين وتمسكت به استطاعت أن تتغلب على شهوات النفس وأثرة الفرقة ، وكلما جردت نفسها للغاية العليا استطاعت أن تذيب سطوة المنفعة الذاتية التي تتحكم في شئون الناس باسم ا- ـ وهي تخفي رغبتها في الوصول إلى المنافع العاجلة !

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٨ - ١٠] .

وكما قلت : لا يغيب عن أذهاننا ونحن نسطر لواقع الدين في حياة البشر أن الناس يحيون في دار ابتلاء واختبار وأنهم غير معصومين من الخطأ وأن قيمة الدين في مقدرته على توحيد الناس وألفتهم إن أرادوا ، وفي صلاحيته لتحقيق البر بين الخلق والرحمة في العالمين إن هم حرصوا على تحقيق البر وتمسكوا بأسباب الرحمة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الرعد : ١١] .

ومن رحمة الله بعباده أن تضمن السماء حفظ الحق وحراسته ليظل شاهدًا على الخلق قائمًا بينهم ، لا تؤثر فيه خلافاتهم ولا يتبدل مع شهواتهم وأهوائهم .

وكفى السماء أن تضمن للأرض أسباب الحق والعدل والبر والرحمة أن تضمن لهم أسباب السعادة في الدنيا والآخرة : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ [سورة الأنفال : ٤٢] .

وليس على السماء أن تقسر الناس على الحق ولو فعلت لبطل كون الدار دار اختبار وامتحان ، ولكن على الناس وهم يبحثون عن أسباب الطمأنينة والأمن أن يحرصوا بمحض إرادتهم على التمسك بهذه الأسباب والسماء تسدد خطاهم كلما

عزموا على الخير وأخذوا أنفسهم به : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [سورة محمد : ٧] .

وما نصر الله إلا تحقيق الخير بين العباد ورعاية البر بينهم : ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ [سورة محمد : ٣٨] .

ومن تمام العون للعباد أن يسدد الله خطاهم في الخير وأن يتخلى عنهم إذا هم بيتوا الشر : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ٨] .

ولا يمكن بداهة لدين ما أن يتحقق بنفسه دون قلوب تحمله ونفوس تؤثره ، ألا وإن الحرية التي أقرها الدين الإسلامي في تقبله أو رفضه لهي التي تحقق :

أولا : مسئولية الإنسان عن عمله وتحديده لجزائه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [سورة الزلزلة : ٧ ، ٨] .

وآخرا : إعطاء الاختبار أو الامتحان صورته الكاملة بحيث لا يبقى هناك أي تأثير وإكراه حتى في أخطر القضايا شأنا قضية الإيمان بالله : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [سورة الكهف : ٢٩] .

وهناك أمر يجب تقريره في هذا المقام ، وهو أن الإسلام مع كونه أقر هذه الحرية على أوسع نطاق لم يجعلها قط حرية فساد أو إفساد .

ولذا فإن من واجب الجماعة البشرية أن تصطلح على أكرم السبل التي تحول دون الفساد في الأرض والتنافر بين الخلق .

وأنا من المؤمنين بأن البشرية ستؤدي بها تجاربها المريرة وهي تذوق ويلات الحرب الممتدة التي لم تنقطع قط والتي تأخذ صورًا مختلفة منها ما اصطلح عليه في عصرنا بالحرب الباردة وهي أفتك لصفات النفس من الحرب الساخنة : من المؤمنين بأن الإنسانية ستلتقي حتما مع الإسلام وهي تجرب في شتى الميادين فساد الأنظمة القائمة وعدم صلاحيتها .

ومن واجبنا ونحن نحس بإحساس الإنسانية ونتفاعل بأحداثها – أن نقول

للإنسانية جميعًا : إن لله دينًا صادقًا لم تنله يد البشر بالتبديل أو التغيير ، هو دين الله رب العالمين .

هذا الدين قد جرب في مجال الحياة ، ومن الواجب على الإنسانية أن تتجرد عن الهوى ، وأن تعتصم بالنزاهة في التقدير وهي تتقبل ما تتقبل أو ترد ما ترد .

ألا وإن الإسلام تصارعه قوى الباطل ، ويصد عن سبيله أناس ورثوا العداء له وهم يملكون من أسباب الحرب والتضليل ما يجعلهم يصرفون عنه أممًا تبحث عن الحق وتنشد الصراط المستقيم .

وهذه العداوات كثيرًا ما تتخذ من واقع حال المسلمين سبيلا تصد به الأمم وتصرف عنه الشعوب ، وواقع حال بعض المسلمين لا يشجع أبدًا على أي تقدير لمعنى التدين أو الدين فضلا عن التقدير لدين الله رب العالمين .

ولا أدري لمصلحة من ننظر إلى تاريخ الإسلام من واقع أهله الآن ؟

ولمصلحة من أيضًا ينكر فضله على الإنسانية قاطبة ، وهو دين لا ينسب إلى أمة أو شعب كما لا ينسب إلى زمان أو مكان ؟

فعداوته عداوة للزمان كله وللمكان كله وللإنسانية جميعًا ، عداوة للعباد ورب العباد .

الإنسانية الآن تبحث مشكلاتها العامة في منظمات عالمية تعرض فيها مشكلات الأمم قاطبة وأصبحت الصلة بين العباد جميعًا كالصلة بين أهل البيت الواحد .

وإذن فالوحدة بين الإنسانية بادية المعالم حتى في صورة التفاهم العام على القضايا والمحا" المتكررة لحلها بالطرق السليمة بالإضافة إلى الوسائل الحديثة التي استطاعت أن تجعل الكلمة التي تتردد في الفضاء مسموعة لأبناء البشر جميعًا .

هذه الوحدة العالمية المتشابكة يمكن أن تؤدي إلى خير البشرية من جانب ، ويمكن أن تقضي على البشرية وحضارتها من جانب آخر !

فلم تعد وسيلة الحرب أن تتحسس أماكن العدو فتخترق بقواتك حدًّا أو سدًّا ، وإنما غدت وسيلة الحرب نارًا تبعثها إلى أبعد مكان تقصده وإلى أية جهة

تريدها . فإذا لم تصن هذه الوحدة وهذا التشابك بجميع وسائل الضمانات الممكنة كان الدمار عاما وكانت النكبة شاملة ، وكما قلت : إن البشرية غدت في بيت واحد لا تعرف معه السدود ولا الحدود .

ومن واجبنا – والحالة هذه – أن نرفع الصوت عاليا ننادي الإنسانية جميعًا : ﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ٦٤] .

الدين ديننا ودينكم ، والله ربنا وربكم والمصير مصيرنا ومصيركم ، فاسمعوا ما عندنا ولنسمع ما عندكم ، وليحسن كل منا أن يدرس ما عند الآخر وأن يتقبل الطيب ويرد الخبيث .

وإذا توافرت النزاهة في التقبل أو الرفض فإن لنا من فطرة الإنسان ما يجعلنا نطمئن إلى حسن تقديره ، ولنا أيضًا من نتائج التجارب ما يجعلنا نحسن الأخذ والعطاء أما أن يسيء كل فريق إلى الآخر وهو يجهل أمره أو يتعمد إنكار فضله ، أما أن تتحكم المطامع والشهوات وأن ينظر إلى الحقائق من هذه الزاوية ، فذاك ما يقرب الإنسانية من الهاوية ولا يجنبها عثرة الطريق !

وإذا قلنا : أن الإسلام قد جرب فليس معناه أن كل من انتسب إلى الإسلام ملك كريم ، وإنما معناه قيام الروح العامة التي تجعل مفاهيم الحق وإنكار الإثم وتحري العدل أمرًا مقررًا في شئون الناس .

ومعناه أيضًا أن هذه الحقيقة هي أكمل السبل لإيجاد فرد يتفاعل مع الصالح العام لسعادة البشرية جميعًا .

ومعناه كذلك أن هذه الحقيقة هي التي تضمن قيام البشرية كلها في صعيد واحد تأمن فيه أسباب الغدر والخيانة وتطمئن مع هذه الحقيقة إلى رعاية العهد وحفظ الأمانة وتحقق بصدق أسباب السلام والرحمة .

والإسلام من هذه النواحي كلها قد جرب .

وليس من الإنصاف في شيء أن نحمل « على التجربة » بعد المسلمين عنه في أية فترة من فترات التاريخ ، بل من الإنصاف أن نقول : أن تأخرهم وهم يبتعدون

عنه شهادة له تضاف إلى التجربة على أن الإسلام يعطي عطاءه بقدر العمل ، ولا ينظر إلى دعاوي الناس أو مسمياتهم . ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [سورة النساء : ١٢٣ ، ١٢٤] .

والإسلام لا يقول : إن اليهود أو النصارى أو المسلمين أبناء الله وأحباؤه لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة وإنما يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٦٢] .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

[سورة الزلزلة : ٧ ، ٨] .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [سورة آل عمران : ٣٠] .

والإسلام لا يقول : هذا أبيض وذاك أسود ، هذا سيد وذاك مسود ، بل يقول : « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

إن الإسلام وهو دين الإنسانية جميعًا يقوم بينها مقام الشمس في عالم الطبيعة لا يمكن إلا أن ينظر إلى الناس هذه النظرة المجردة من كل هوى أو ميل ، فإذا ما انحرفت الإنسانية في سيرها وآثرت أن تحيا في المغارات والكهوف وأن تتخبط في ظلام الهوى وضلال السلوك فلها ما أرادت !

والخالق جلا وعلا يناديها أن تحيا في الضياء والنور وأن يبصر بعضها بعضًا على صراط مستقيم : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة المائدة : ١٥ ، ١٦] .

مرة أخرى نقول : إن الإسلام قد جرب وجرب المسلمون معه ، كلما أخذوا أنفسهم به سعدوا وسعدت بهم الإنسانية ، وكلما انصرفوا عنه ضلوا وضلت معهم البشرية .

وهناك أمر ذو بال يجب أن نسترعي النظر إليه ، وهو أن الإسلام كفطرة تستجيب له النفوس دون دافع من إغراء مادي أو تلويح بقوة .

ولقد حاول كثير من الأديان والمذاهب بوسائل الإغراء المختلفة واستغلال الحاجة والفاقة أن تثبت أقدامها وأن تحقق وجودها وأنفقت في سبيل ذلك الأموال الطائلة ، وجندت مجالات العلم في شتى ميادين الحياة يحملون مع قارورة الدواء أعلام التبشير ويسوقون مع وسائل الإغراء آيات الإنجيل فما حالفها النجاح .

نرى كل ذلك ونرى النتائج التي تدل بوضوح على أن هذه الأديان أو المذاهب تجافي الفطرة حين ترى أن العقيدة يمكن أن تحمل في عربات النقل أو تعبأ في قارورة الدواء ! إن صح أن تستجيب النفس بدافع من الضرورة إلى من يقدم لها عونًا ومساعدة وتستمع إلى قوله ، بقيت المشكلات العليا في كيان الإنسان تطلب الحل وتنشد التفسير ، ولذا فإن ارتباط هؤلاء بالعقيدة التي تملى عليهم لا يزيد على فترة قيام الضرورة أو قضاء ما يحتاجون إليه !

وكل أمر لا تقوم دوافعه من النفس ليس له من الأصالة ما يمنحه الثبات أو البقاء . ولذا فإن مبلغًا واحدًا يحمل فطرة الإسلام وليست معه قارورة الدواء أو عربة الطعام يمكن أن يحول الملايين المسخرة – باسم العون والمساعدة – إلى الفطرة الهادية والإيمان الحر والسلوك الراشد !

ولقد رأينا الإسلام يحمله رجل وديع مسالم إلى الأماكن المتباعدة يبلغه في أمانة وصدق ، فلا تلبث الأقطار أن تستجيب في حرارة إلى صوت داعيها وإلى نداء خالقها ، بل لا تلبث أن تسرع الخطا ممتدة الأعناق طروبا كالإبل الأصيلة سمعت صوت حاديها .

لقد انتشر الإسلام هنا وهناك وشع نوره في قارات العالم كلها دون حرب معلنة أو اعتداء متسلط ، بل ربما حمله إلى أطراف الأرض تاجر أمين أو عالم سائح ،

والإسلام لم يعلن حربًا على أحد ، وإنما أعلن عن عدله وصدقه ودافع حين قاتل عن حقه في الحياة ، فإذا تداعت أمام صولته عروش جائرة ودول كبيرة معتدية فليس معناه أن سيف القوة الغشوم قد حطم دولة الفرس والروم ، وإنما معناه أن سيف الحق والعدل أطاح بصرح البغي والظلم !

وما على المنصف إلا أن يتأمل روح الإسلام في معاملته في سلمه وحربه ، وأن يبصر سلوك أهله إذا هزموا أو انتصروا ، بل عليه أن يتأمل ذلك في الأمم التي سعدت بالفتح الإسلامي كيف ضمت الإسلام إلى صدرها ومنحته ودها وبوأته فؤادها ، وعاشت له وبه ، تمشي على نوره ، وتهتدي بهديه ، وتفتديه بكل نفيس وغال .

يقول ستودارد الأمريكي في كتابه : « حاضر العالم الإسلامي » :

« كاد يكون نبأ نشوء الإسلام النبأ الأعجب الذي دون في تاريخ الإنسان ، ظهر الإسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان وبلاد منحطة الشأن ، فلم يمض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض ممزقًا ممالك عالية الذرا مترامية الأطراف وهادمًا أديانا قديمة كرت عليها الحقب والأجيال ، ومغيرًا مًا بنفوس الأمم والأقوام وبانيا عالمًا حديثًا متراص الأركان ، هو عالم الإسلام ، وكلما زدنا استقصاء باحثين في سر تقدم الإسلام وتعاليه زادنا ذلك العجب العجاب بهرا ، فارتددنا عنه بأطراف حاسرة ، عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت ثم نشأت تسير في سبيلها سيرًا بطيئًا ملاقية كل صعب ، حتى كان أن قيض الله لكل دين منها ما أراه لها من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذاك الدين ثم أخذ في تأييده والذود عنه ، حتى رسخت أركانه ومنعت جوانبه : بطل النصرانية قسطنطين والبوذية « اسوكا » والمزدكية قياكسروا . كل منهم ملك جبار . أيد دينه الذي انتحله بما استطاع من الايد والقوة .

إنما ليس الأمر كذلك في الإسلام ، الإسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية . تجوب فيها شتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة في التاريخ ، فسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته في جهات الأرض مجتازًا أفدح الخطوب

وأصعب العقبات دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ، ولا أزر مشدود وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الإسلام نصرًا مبينًا عجيبًا ، إذ لم يكد يمضي على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الإسلام خفاقة من « البرانس » حتى « هملايا » ومن صحاري أواسط آسيا حتى صحاري أواسط إفريقية » أهـ .

ولعل القارىء يجد فيما قدمت السر الحقيقي لانتشار الإسلام كما يجد سر انتصاره في كل ميدان !

ذكر صاحب البداية والنهاية [1] . أن هرقل وهو على أنطاكية قال لما قدمت الروم منهزمة : ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ! أليسوا بشرًا مثلكم ؟ قالوا : بلى . قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافًا في كل موطن . قال : فما بالكم تنهزمون ؟ فقال شيخ من عظمائهم :

من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم !

ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني ونرتكب الحرام وننقض العهد ونغصب ونظلم ونأمر بالسخط . وننهى عما يرضي الله ونفسد في الأرض ! فقال : أنت صدقتني .

وسأل هرقل هذا رجلا قد أسر من المسلمين فقال : أخبرني عن هؤلاء القوم فقال : أخبرك كأنك تنظر إليهم : هم فرسان بالنهار ، رهبان بالليل لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ولا يدخلون إلا بسلام ، يقفون على من حاربوا حتى يأتوا عليه . فقال : لئن كنت صدقتني ليملكن موضع قدمي هاتين » أهـ .

إنها عقيدة الإسلام الهادفة التي تفيد بالحياة والنور وتدعو إلى العمل الصالح والسعي النظيف .

ترى النفس هامدة فإذا ما نالها الغيث الطهور اهتزت وأينعت وطاب السعي والثمر ، كما ترى الأرض الهامدة وقد أصابها الماء ، تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج !

---

(١) من رسالة المد والجزر للأستاذ أبي الحسن الندوي .

لا . بل تنزل هذه العقيدة على النفوس الميتة فتمنحها الحياة بإذن الله وتبدد ظلامها ، فتمشي بين الناس بنورها وضيائها : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾

[سورة الأنعام : ١٢٢] .

يقول الأسقف لفروي : « إن سر القوة الخارقة للعادة التي أظهرها الإسلام في أزهر عصوره في فتوحه وتقدمه كامن في إدراك هذا الدين وجود الله » [١] .

وهو يقول : « ليس قولنا : أن الله واحد بأعظم من قولنا : أنه موجود – بمعنى أن وجوده هو حقيقة الكون المطلقة – وأن إرادته هي العليا – وأن سيادته مطلقة – وأن قوته لا تحد ، وهذا معناه الإيمان بأن هنالك إرادة مطلقة أعلى لا تقاوم في وسط ما يغمر الكون من الاختلال والاضطراب والفساد الذي يجعله في صورة من الظلمة والوحشة تبعث على الفزع والرهبة ، كما أن معناه الإيمان بأن الرجل مسير طوع هذه الإرادة يظهرها ، ويلتزم الطاعة لها ، ولو أنه من الضروري أن يأخذ في سبيل إظهار هذه الإرادة بأسباب بسيطة بدائية جدًّا ، وهذا هو الذي أمد جحافل المسلمين بوسائل الفتح التي لا تقهر ، تلك التي بعثت فيهم روحًا من الانقياد الحربي والنظام العسكري . كما بعثت فيهم ازدراء الموت ، الأمر الذي ربما لم نعرفه قط في أي نظام سابق ، وهذا هو الذي يعطينا في كلمة – على حسب ما نجده متمثلا في أية روح صادقة فعالة بين المسلمين – « ذلك العمود الفقري لأخلاقهم » . أعني ذلك الثبات في العزيمة والقوة في الإرادة ، وذلك الصبر الذي لا يعرف سبيلا إلى الشكوى ، والاستسلام لأشد المصائب وأصعبها كل ذلك قد ميز خير أنصار العقيدة وجملهم » أهـ .

هذه العقيدة هي التي جعلت المسلم في أسر القيد وفي غياهب السجن بل وهو يساق إلى ساحة الموت لا ينسى الدعوة إلى الله .

---

(١) « الدعوة إلى الإسلام » للسير توماس أرنولد ، ترجمة الدكتورين حسن إبراهيم وعبد المجيد عامر .

يقول [١] سيرتوماس أرنولد : « تسرب الإسلام إلى أوربا الشرقية أول الأمر بما قام به فقيه مسلم . سيق أسيرًا ، ربما في إحدى الحروب التي نشبت بين الدولة البيزنطية وجيرانها المسلمين ، وجيء به إلى بلاد يتشنج [٢] في مستهل القرن الحادي عشر . وقد بسط بين يدي كثير منهم تعاليم الإسلام ، فاعتنقوه في إخلاص حتى أنه أخذ في الانتشار بين هذا الشعب ، أما سائر التشينج الذين لم يكونوا قد قبلوا دين الإسلام فقد ارتابوا من تصرف مواطنيهم ، وانتهى بهم الأمر إلى نشوب القتال بينهم ، وقاوم المسلمون ، وكان عددهم يبلغ نحوا من اثني عشر ألفا ، هجمات الكفار في نجاح ، مع أن هؤلاء كانوا أكثر منهم عددًا بما يزيد على الضعفين ، ودخلت فلول المهزومين دين المنتصرين ، ولم تأت نهاية القرن الحادي عشر حتى كان الشعب بأسره قد اعتنق الإسلام ، وكان من بينهم مسلمون تعلموا الفقه والتوحيد . ثم يقول :

« قضت الحكومة البريطانية بنفي أحد مولوية الهنود في جزائر أندمان نفيًا مؤبدًا ، لأنه كان قد قام بنصيب فعال ، في مؤامرة دبرها الوهابيون سنة ١٨٦٤ م وهناك أدخل هذا المولوي في الإسلام قبل وفاته كثيرًا من المحكوم عليهم ، وفي إفريقية الوسطى حكم البلجيكيون على زعيم عربي بالإعدام ، فقضى ساعاته الأخيرة وهو يحاول أن يدخل في الإسلام ذلك المبشر المسيحي الذي كان قد أرسل إليه ليزجى إليه التعزيات الدينية » .

إن الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب يترك أثره في أي مكان وجد ، ولذا فإن ما نراه من امتداد الإسلام وسعة رقعته وسهولة مأخذه وبساطة معتنقيه راجع إلى الإسلام ذاته ، في عقيدته وشرائعه وعباداته .

(١) إن دين المسلم يتمثل دائمًا في مخيلته وفي الصلوات اليومية ، يتجلى هذا الدين في طريقة نسكية خاشعة مؤثرة ، لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين :

---

(١) « الدعوة إلى الإسلام » للسير توماس أرنولد ، ترجمة الدكتورين حسن إبراهيم وعبد المجيد عامر .

(٢) البلاد التي بين الدانوب الأدنى والدون .

يتحدث سعيد بن الحسن أحد يهود الإسكندرية الذي اعتنق الإسلام في سنة ١٢٣٨ هـ عن مشهد صلاة الجمعة في مسجد بوصفه عاملا حاسما في تحوله إلى الإسلام في خلال مرض شديد كان انتابه . رأى في المنام أن صوتًا يأمره بأن يجهر بالإسلام « وعندما دخلت المسجد » (ويستمر في حديثه إلى أن يقول) :

« ورأيت المسلمين يقفون صفوفًا كأنهم الملائكة » سمعت هاتفًا يقول : هذه هي الجماعة التي أخبر الأنبياء صلوت الله عليهم بقدومها ، ولما ظهر الخطيب مرتديًا عباءته السوداء استولى عليّ شعور عميق من الرهبنة ، ولما ختم خطبته بالكلمات : ﴿ انَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى القُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩٠] . ولما بدأت الصلاة ، أحسست بقوة تدفعني إلى النهوض ، لأن صفوف المسلمين بدت أمامي كأنها صفوف الملائكة الذين يتجلى الله القدير في سجداتهم وركعاتهم ، ثم سمعت هاتفًا يهتف بي : إذا كان الله قد تحدث مرتين إلى بني إسرائيل في كل العصور فإنه يتحدث إلى هذه الجماعة في كل وقت من أوقات الصلاة وأيقنت في نفسي أني خلقت لأكون مسلمًا » !

ثم ينقل لنا سير توماس أرنولد – قول رينان :

« ما دخلت مسجدًا قط دون أن تهزني عاطفة حادة أو بعبارة أخرى دون أن يصيبني أسف محقق على أنني لم أكن مسلمًا » .

ثم يقول بعد أن تحدث عن عبادات الإسلام وأثرها : ولكن هؤلاء المسلمين يعنون بتلك الفرائض وغيرها من الشعائر الدينية ، ولكن من غير أن يثقلوا بها كواهلهم أو تجعلهم مغمورين في الحياة ، نجد أركان العقيدة الإسلامية تلقى دون انقطاع تعبيرًا ظاهرًا في حياة المؤمن ، ومن ثم نجدها بعد أن أصبحت متشابكة في نظام حياته اليومية تشابكًا لا سبيل إلى الفكاك منه – تجعل المسلم الفرد إمامًا ومعلمًا لعقيدته أكثر – إلى حد بعيد – مما عليه الحال مع أنصار معظم الديانات الأخرى ، ولما كانت عقيدته مصوغة في مثل هذه اللغة الموجزة البسيطة كانت لا تتطلب من الذكاء إلا قليلا ، وأن تحدد هذه الطقوس وواقعيتها ودقتها ليدع المؤمن

لا يتخالج في نفسه الشك فيما هو مكلف بأدائه ، فإذا أدى هذه الواجبات اطمأن وجدانه إلى أنه قد أنجز كل أوامر الشرع ، وقد نجد إلى حد بعيد ، في هذه الوحدة التي تربط السيطرة التي أحدثها الإسلام على الناس ، فإذا أردت أن تجذب إليك جماهير كبيرة من الناس فألقنهم الحقيقة في صورة حاسمة دقيقة واضحة ، وفي أسلوب مرئي محس » أهـ .

بوإذن فمجال التجربة للإسلام يمكن أن نراه في كل عصر وأن نلمس أثره في كل زمن ، وما قدمناه من صور يسترعي النظر إلى مدى فاعلية الإسلام ومقدرته على جمع الأجناس المختلفة في وحدة لا تعرف الفرقة ، ومساواة لا تعرف التنابذ وحرية لا تعرف الإثم والفسوق .

وليس من شك في أن تعاليم الإسلام التي تتسم بروح التجرد والصدق وتحتكم الحق والعدل وتنزع إلى السلام والرحمة وتدعو إلى المساواة والحرية ، هي التي تمكن لقارات العالم أن تجتمع وفودها عند بيت الله الحرام في كل عام في وحدة صادقة وأخوة بارة ، ومساواة إنسانية راشدة . وفود الحج من هنا وهناك تقطع المسافات البعيدة والأقطار الشاسعة ولها من دافع الإيمان وحنين الشوق ما يحثها على السير ويهون لها كل صعب .

تجتمع وقد زالت من بينها فوارق اللون والجنس ، وتحطمت حواجز الأوطان وحدود القارات ، وانسابت في وحدة العقيدة كمد البحر الطهور ، وامتزجت بروح العبادة ، فكان لها من الله نور ، من علمها كيف تتآخى مع اختلاف الجنس ؟ من عودها الطهر فلا جدال ولا فسوق ؟

من جمعها على الإيمان فجاءت ترفع كلها شارة السلام والأمن ؟ فلا الطير يزجر في جمعها وليس في جمعها يعرف الإثم !

أرأيت إلى الإنسانية كلها تلتقي وفودها في لحظة واحدة متعارفة على عرفات لا تسمع من أفواهها إلا نشيد الوحدة الرباني : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك » ولا ترى من سعيها إلا الأسوة بالنبي ، إن هي نطقت فنطقها ذكر ، وإن هي طعمت فزادها شكر ، وإن هي جاهدت فجهادها صبر ، وإن هي

أخذت أو أعطت فميزانها عدل ، تجمعها وحدة القصد ، وتصوغها ضوابط العبادة والسعي ، ويرشدها هدى الله ونور الوحي

ينظم [١] الحج اجتماع المؤمنين في كل سنة ، على اختلاف شعوبهم ولغاتهم من جميع أنحاء العالم للصلاة في ذلك المكان المقدس الذي يولون وجوههم شطره في كل ساعة من ساعات عبادتهم الخاصة في أوطانهم النائية ، ولم تستطع أية محاولة يقوم بها عباقرة أي دين أن تتصور وسيلة أحسن من هذه الوسيلة تطبع في عقول المخلصين معنى حياتهم المشتركة ، وأخوتهم التي ارتبطت بروابط الدين ، وفي ذلك المكان ، حيث نجد عملًا ساميًا من أعمال العبادة المشتركة :

« ترى زنجي ساحل إفريقية الغربي يلتقي بالصيني من أقصى الشرق ، ويتعرف التركي على أخيه المسلم من الذين يسكنون أبعد أطراف بحر الملايو وفي هذا الوقت نفسه تتطلع قلوب المؤمنين في جميع أنحاء العالم الإسلامي في عطف وحنين إلى إخوانهم الذين هم أسعد حظًا منهم ، الذين تجمعوا في المدينة المقدسة ، فيحتفلون في أوطانهم بعيد الأضحى » أهـ .

والحق أن إخوانهم يشاركونهم في كل مكان بعواطفهم وقلوبهم وترديد ما يتلونه من ذكر وهم يتجهون إلى القبلة التي يطوفون حولها وفي أعطافهم للقيا حنين ، وبين ضلوعهم للقرب شوق ، ووالله ما عرفت الدنيا مكانًا تبلله دموع الشوق وتجيش حوله عواطف الحب ، وتطيب بسببه مشقة السفر والجهد مثل ما عرفت عن بيت الله يأتيه الحجيج وعن قبر الرسول تأتيه الوفود .

بالله لو أن مشكلات العالم درست في مكان كهذا حيث تتحطم دوافع الهوى ونوازع الشر وحيث تتقرب النفس إلى بارئها بفعل الخير والبعد عن الإثم ، وحيث لا يمكن أن يرتفع رأس على رأس أو يفخر عبد على عبد ، وحيث الكلمة لله الواحد الأحد وحيث الجمع أخوة آمنين متحابين .

لو أن مشكلات العالم درست في مكان كهذا حيث الأمن الرباني والطهر

---

(١) « الدعوة إلى الإسلام » للسير توماس أرنولد .

الإنساني حيث الوحدة في القصد والسلوك ، وحيث البعد عن الجدل والفسوق ، وحيث المساواة في الإنسانية ، والتمثيل الصادق للجهات المتباعدة والمتقاربة ، والتجرد من كل لباس يزهو به صاحبه إلا لباس الإحرام الذي هو رمز التقوى وشارة الوحدة وشعار المساواة .

لو أن العالم كله اتجه في كل عام إلى دراسة المشكلات الإنسانية عند الحرم الآمن والبيت العتيق . حيث الجو مشبع بالطهر محفوف بآيات الرحمة ، لو كان ذلك كله فهل يمكن أن تشكو الإنسانية – والحالة هذه – فقدان الأمن والسلام ؟

إن الأمن ما فقد إلا يوم أن تحطمت دعائمه من العدل والحق والإيثار والحب .

والسلام ما ضاع إلا يوم أن ذهبت أسبابه من التعارف والتعاون والرحمة والبر .

وما أخال هذه الصفات تبعثها منظمات العالم ومن ورائها الأساطيل أو تحققها هيئة الأمم وتحكمها الأباطيل .

إن العدل في عرف هذه المنظمات معناه : القوة ، والحق معناه : الغلبة والسيطرة ، والإيثار معناه : الاستغلال ، والحب معناه : الأثرة ، والتعارف معناه : التناكر ، والتعاون معناه : الخلاف ، والرحمة معناها : الجور والظلم ، والبر معناه : الإثم والعدوان .

وهكذا على نقيض الصفات التي يتوافر بها السلام والأمن تقوم الصفات التي تقيم في دنيا الناس الخوف والفزع والظلم .

ويتم التلاقي بين الوفود فلا تسمع إلا التنابز ولا ترى إلا اتساع الهوة بين الأمم وانتشار الخوف بين الشعوب ، كل يدعي السلام ويدعو له ، والسلام حائر بين الداعين له والمتطلعين إليه ! ولقمة العيش تؤخذ من أفواه الجياع لتوضع في فوهات المدافع ، وخيرات الأرض تجمع لتقبر في مخازن الخراب والدمار !

استحالت نعم الله إلى نقم ، وتحولت بركات الأرض إلى بركان يوشك أن يبتلع الخلق ، ونغمة السلام تتردد على أفواه السكارى ، وتنساب من ألسنة المجانين ، وكأنها

تعني العبث بالخلق وتخويف الآمنين !

والواقع المشاهد يقطع أن السماء ما أمسكت برزقها والأرض ما ضنت بعطائها ، ولكن حيوانية الإنسان افترست إنسانيته وغرائزه قتلت فضائله فانطلق دون قيد من فضل أو تمسك بخلق يعبث بالناس ويتلهى بشقائهم ، ويحرز القوة ليتاجر في أمنهم ، وينشر الفزع ليربح من دعوة السلام ، فإن لم تحقق الحرب الباردة ربحا وافرا . أشعلها حربا ضروسا تروج معها منتجات المصانع ومعدات الحروب ، والإنسانية كلها تنظر الكارثة ، وترى المشهد الرهيب ، ولا تتقدم بخطى جادة إلى تلافي الكارثة أو البعد عن الهوة الساحقة !

وليس من شك في أن التجربة لها ما بعدها وأن الإنسانية ستلتقي حتما بفطرتها ، وستدرك يقينا أن أسباب الأمن في ذخر الإيمان ، وأن وفاء العهد في صدق اليقين ، ولن يطيب للأرض سعي أو تسلم لها نهضة أو تقوم فيها حياة إلا بقانون شمسها وتعاليم ربها .

وما على الذين يغفلون عن هذه الحقيقة إلا أن يتأملوا – في ضوء من نور العلم – من هم ؟ وما كوكبهم في ملك الله الواسع العريض ؟ ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سورة سبأ : ٩] .

وما على الذين ينظرون إلى قضايا الأرض دون أن يربطوها بأسباب السماء إلا أن يدركوا أمرهم على بصيرة وأن يعلموا أن أرضهم لا تنفك في كل آن عن ارتباطها بأسباب السماء ، وهي تمسك بها سابحة في كون الله صالحة للحياة والبقاء . ولو تخلت عنها قدرة الباريء ما بقيت قائمة ولا استقامت عليها حياة : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النمل : ٦١] .

فأي علاج لقضايا الأرض دون تقدير لأمر السماء إن هو إلا تدمير للإنسانية وتعريضها للعواصف الهوج التي تهوي بها في واد مظلم سحيق : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ

فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾

[سورة الحج : ٣١] .

وما أحال الإسلام في مجال التطبيق إلا معترفا بالواقع متسقا مع فطرة الخلق وهو ينشد للأرض ذخر السماء ، ويطلب السماء لأمن الأرض ، ويجعل من التأمل في كون الله سبيلا للإيمان الراشد والسعي المستنير ، ويقيم في نفس الفرد معنى التقدير للإنسانية والرحمة بالخلق ، ويجعل من رقابة الله التي تقوم في ضميره سببا للعدل والإحسان والخشية في السر والعلن ، والإحسان هو : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وبعد : فما بنا من حاجة أن نتحدث عن تاريخ الإسلام وحقيقته قائمة بين أيدينا وآياته باقية في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنطق بالصدق ، وتقوم على الحق .

ما بنا من حاجة أن نذكر ما أفادت الدنيا من هذا الدين ، وكيف بنا نحصر أثره وهو دين الله رب العالمين ؟

وما بنا من حاجة أن نكشف عن صفحات التاريخ لنعثر على صدق التجربة أو ندل على صلاحيتها لكل زمان أو مكان حتى نفتح الباب أمام المولعين بالجدل ليقولوا : أن لكل زمن مشكلات وما صلح لجيل لا يصلح للآخر ، أو نجرهم إلى المقارنة البلهاء بين حضارة العصر وحياة الماضي !

وإنما نقول : هذه حقيقة الدين وتلك حضارة العصر :

(١) فإن رأت الحضارة لنفسها حاميا تعيش في كنفه أو داعيا يسوقها إلى المزيد ويعلمها أن ما بيدها قليل : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

[سورة الإسراء : ٨٥] .

إن رأت كتابا يفتح أمامها آفاق العلم ، ويؤمن نهضتها أن تحطمها أيدي العابثين أو توقف سيرها سفاهة المغتصبين وطغيان المعوقين .

إن رأت غير القرآن كتابا يحرضها دائما أن تأخذ بأسباب الرفعة والكمال

ويستحثها على المزيد من العلم والزيادة من المعرفة .

إن رأت غير القرآن كتابا يطلب رضا الله عن طريق سعادة البشر والإيمان به عن طريق التأمل في الكون والانتفاع بما فيه – إن رأت كل ذلك – فلتعلم أن القرآن لأمم خلت وأجيال مضت .

أما إذا رأته داعيا لوحدتها آمرا بألفتها يصون عدلها وبرها ويرعى أمانتها وعهدها ، يسدد خطاها إلى كل خير ، ويدعو بنيها إلى كل بر .

إذا رأته أمان سلمها وسلام أمنها ، حفيا بحاضرها ومستقبلها وعزها ومجدها .

إذا رأته بارا بأخوتها مكرما لإنسانيتها مبددا لظلامها مؤنسا لوحشتها باعثا لطمأنينتها .

إذا رأته يشدو بلحن الخلود وينشدها لمجد تليد ويرضاها للحق فلا تحيد ولا تميد .

إذا رأته فرأت نفسها معه ووجدت إنسانيتها وأمنها فيه وبقاءها ظافرة بنعمة الحياة ورحمة الله .

إذا رأت القرآن كتاب فطرتها ، ونداء خالقها ووحي باريها – إذا رأت كل ذلك – فلتعلم أنه للأجيال كلها ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، فما كان للحق أن يتبدل مع الأجيال ، أو يتغير مع الأزمان ، وما كان العدل بضاعة تزكو عند أقوام دون أقوام اللهم إلا إن بطلت حاسة التقدير وهانت قيمة الإنسان . الحق هو الحق ، والعدل هو العدل ، والإنسان هو الإنسان ، والكون هو الكون ، والمصير هو المصير ، والله هو الله رب العالمين .

وكما جعل الله للكون شمسا ساطعة تفيض بالضياء والنور وتكشف عن طبيعة الأشياء فلا يلتبس السير أو ينحرف المسير ، وهي باقية ما بقيت الحياة قد جعل للإنسانية دينا يفيض بالضياء والنور ويكشف عن طبيعة الأشياء فلا يلتبس السير أو ينحرف المسير !

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٤٢] .

ولئن كانت شمس الكون لها – مع الأحياء – حدود ، إن شمس الحقيقة لا تعرف الحدود ولا السدود .

يموت الحي فلا ترى لشمس الكون مع موته نفعا ولا هي تمد بشعاعها لحدا وإن مدت فأين الجسد وقد بلي ، وأين السعي وقد توقف ؟

أما شمس الحقيقة فلها مع موته نفع وفي لحده ضوء وعلى صراطه نور وبين يدي الله شهادة وشفاعة ، فهي إذن شمس الخلود ونعمة البقاء وتلك والله حقيقة تراها البصائر وتبصرها القلوب : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [سورة النور : ٤٠] ، ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَٱنتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ * وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة هود : ١٢١ – ١٢٣] .

* * *